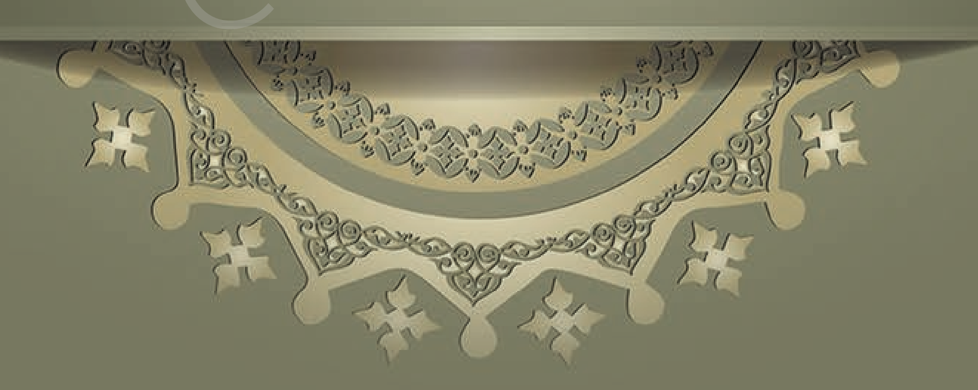


عمر بن عبد العزيز

عدله وزهده وحكمته



عمرو إسماعيل محمد

عمر بن عبد العزيز

عدله وزهده وحكمته

عمرو إسماعيل محمد

الكتاب: عمر بن عبد العزيز .. عدله وزهده وحكمته

الكاتب: عمرو إسماعيل محمد

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

محمد، عمرو إسماعيل

عمر بن عبد العزيز.. عدله وزهده وحكمته/ عمرو إسماعيل محمد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٣٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٢٣٧ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢١٠٧٦ / ٢٠٢١

عمر بن عبد العزيز
عدله وزهده وحكمته





إهداء

إلى روح أبي و أمي ودعائي أن يظلهم الـلـه العظيم بظله يوم لا ظل إلا ظله,

المؤلف



مقدمة

سأل الإسكندر حكيماً: من يصلح للملك؟ فقال له.. إما ملك حكيم أو ملك ملتمس للحكمة.. والحكمة في هذا المقام معناها الفلسفة.. وقد قرن هذا الحكيم السياسة بالفلسفة واعتبرها أداة من أدوات الحكم ووسيلة من وسائل العدل.. واشترط على الحاكم أن يكون فيلسوفاً أو ملتمساً للفلسفة ليعم الأمن وينتشر السلام وتستقيم الأمور وتصلح الأحوال.

رحلة قصيرة نقطعها مع هذا الخليفة العادل الزاهد، الذي ملأت أخباره الكتب، لعدله وخشيته وجلال أدبه وخلقه ورأفته بأمته! مع علم وذكاء، وزهد وقنوت، وفهم وسياسة وحنكة معها حكمة..

جاء الخليفة العادل في ظل ظروف سياسية وإقتصادية سيئة وفتن تضرب ربوع البلاد، ولم يكن لدى عمر بن عبدالعزيز عصا سحرية، وزعت الرخاء على الأمة، ولكنه استنهض الهمم بالأفعال قبل الأقوال، ولم يقف على متخاذل كسول ولا انصاع إلى رغبة طامع جهول، فنهضت الأمة بأسرها تسعى إلى رقيها، بصغيرها وكبيرها، برجالها ونسائها فكانت صحوة تسعى بكتلتها وبكامل حجمها حتى وصلت الأمة إلى الاستقرار والأمان.

خلال عامين وخمسة أشهر وأربعة أيام تقريباً استطاع الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أن يسطِّر معجزة تربوية في تاريخ الإسلام؛ ففي هذه الفترة الوجيزة استطاع هذا الخليفة العادل أن يضع الأسس والأهداف لتربية المجتمع المسلم وفق المنهج النبوي الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته، والذي يحرم فيه الغش، والكذب، والرشوة، والفساد على الرعية.

ذلك المنهج الذي يعتمد على اقتران العلم بالعمل، والمعرفة بالتطبيق والإطلاع الذاتي على سير من سبقنا من السلف الصالح؛ بغية التأسي بهم والتزام فهمهم - في

سلوكه القيادي والإداري والتربوي.

لقد بوَّأ الخليفة عمر بن عبد العزيز مكانة سامقة في التاريخ الإنساني لم ينلها إلا الأفذاذ من القادة والفاتحين، والجهابذة من أئمة العلم، والعباقرة من الكتاب والشعراء. ويزداد عجبك حين تعلم أنه احتلّ هذه المكانة بسنتين وبضعة أشهر قضاها خليفة للمسلمين، في حين قضى غيره من الخلفاء والزعماء عشرات السنين دون أن يلتفت إليهم التاريخ؛ لأن سنوات حكمهم كانت فراغًا في تاريخ أمتهم، فلم يستشعر الناس تحولا في حياتهم، ولا نهوضًا في دولتهم، ولا تحسنا في معيشتهم، ولا إحساسًا بالأمن والإستقرار يعمّ بلادهم.

ولم تمنعه السياسة من تبوأ مقعده بين العلماء والحكماء، فقد زاحمهم واتفقت كلمة المترجمين لعمر بن عبد العزيز على أنه من أئمة زمانه.

إن أهمية دراسة سير الرجال وذكر الصالحين وتشنيف الأذان بسماع أخبارهم، مما يثلج صدور المؤمنين وينزل السكينة في قلوب الموحدين، فهم القدوة والمثل، والنموذج الأسمى في تطبيق أخلاق الإسلام ومبادئه.

وقد كان القرآن الكريم يقصُّ علينا من أخبار الأنبياء عليهم السلام، فنحسُّ بالقمم الإنسانية الشامخة ترنو إلينا، فتستنهض هممنا، ويقص علينا أخبار الصالحين من غير الأنبياء، الذين كان لهم الدور الكبير في نشر كلمة لا إله إلا الله، وإعلائها، وتَحَمُّلِ الأذى، والصبر عليه.

قال الإمام ابن الجوزي: "واعلم أن في ذكر السير والتاريخ فوائد كثيرة، من أهمها أن يطلع بذلك على عجائب الأمور، وتقلبات الزمن، وتصاريف القدر، وسماع الأخبار، فالنفس تجد راحةً بسماع الأخبار"، فقراءة التاريخ، وسماع قصص الأخيار يحفز الهمم وينهض بالأمم.

يقول د. محمد موسى الشريف: " من المعلوم أنَّ التاريخ هو تراث الأمة وكنزها، وهو مقياس عظمتها في بابي الحضارة والثقافة، وهو ديوانها الذي تحتفظ فيه بذاكرتها، وهو

مغترف العبر والعظات لأحداثها، وهو بيانٌ لسيرة عظمائها، وهو ماضيها الذي تستند إليه لحاضر أفضل ومستقبل أجلّ، وهو دراسة أحوال الماضين من الأمم والشعوب الأخرى، وهو وعاء الخبرة البشرية" .

وصدق القائل:

استرشد الغرب بالماضي فأرشده — ونحن كان لنا ماض نسيناه

إنّا مشينا وراء الغرب نقتبس من — ضيائه فأصابتنا شظاياه

كان منهجي في هذا الكتاب يسير على نهج من سبق، تحدثت عن نشأته وطلبه للعلم ومكانته العلمية وولايته وبيعته للخلافة وكيفية إدارته للبلاد وعمله بمبدأ الشورى وعدله ورده للمظالم وعزل الولاة الظالمين ورفع المظالم عن الرعية وأهل الذمة ومنهجة في نشر العلم وتدوين السنة وكذا منهجه في الإصلاح الإقتصادي والتنمية وذكرت أخلاقه ومواقفه مع بعض الفرق والجماعات ووصاياه الحكيمة لعماله ولولي عهده وأهل بيته ووفاته وبعض مآثره وماذا قالوا عنه ثم كانت الخاتمة رضي الله عن أبي حفص عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل حامل لواء الحق والدين خامس الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

عمرو اسماعيل

الفصل الأول

نسبه وأسرته ونشأته

هو :أبو حفص عمر بن عبد العزيز بـن مـروان بـن الحكـم بـن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف بن قصي بن كـلاب بـن مرة بن كعببن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بـن كنانـة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الأموي القرشي المدني ثم المصري.

ذكر ابن سعد في الطبقة الثالثة من تابعي أهل المدينة فقال: أمـه هـي أم عاصـم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. قالوا: ولد سنة ثلاث وستين، قال: وكان ثقة مأمونا، له فقه وعلم وورع، وروى حديثا كثيرا، وكان إمام عدل -رحمه اللـه- ورضي عنه.

والده: هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم، كان من خيار أمراء بنـي أميـة، بقـي أميراً على مصر أكثر من عشرين سنة. ولما أراد الزواج قال لقيّمـه: «اجمـع لي أربعمائـة دينار من طيب مالي، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهـم صـلاح«، فتـزوج أم عاصـم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب (وقيل اسمها ليلى.

أمه: أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ووالدها: أبو عمرو عاصم بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، ولد في أيام النبوة وحدّث عن أبيـه، وكـان طـويلاً جسـيماً من نبلاء الرجال، ديِّناً خيِّراً صالحاً، وكان بليغاً فصيحاً شـاعراً. وأمـه: هـي جميلـة بنـت ثابت بن أبي الأقلح الأنصاريّة.

وأما جدته لأمه فقد كان لها موقف مع عمر بن الخطـاب، فعـن عبـد اللـه بـن الزبير بن أسلم عن أبيه عن جده أسلم قال:

«بينما أنا وعمر بن الخطاب وهو يَعُسّ (العُس: تـقصّي الليـل عـن أهـل الريبـة)

بالمدينة إذ أعيا، فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: «يا بنتاه، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء»، فقالت لها: «يا أمتاه، أوما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليوم؟»، قالت: «وما كان من عزمته يا بنية؟»، قالت: «إنه أمر منادياً فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء»، فقالت لها: «يا بنتاه، قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر»، فقالت الصبية لأمها: «يا أمتاه، والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء»، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: «يا أسلم، عَلِّم الباب واعرف الموضع»، ثم مضى في عسه. فلما أصبحا قال: «يا أسلم، امض إلى الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها، وهل لهم من بعل؟»، فأتيت الموضع فنظرت، فإذا الجارية أيِّم لا بعل لها، وإذا تيك أمها وإذا ليس بها رجل، فأتيت عمر فأخبرته، فدعا عمر ولده فجمعهم فقال: «هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه؟»، فقال عاصم: «يا أبتاه، لا زوجة لي فزوجني»، فبعث إلى الجارية فزوجها من عاصم، فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز ».

إخوته : كان لعبد العزيز بن مروان (والد عمر بن عبد العزيز) عشرة من الولد، وهم: عمر وأبو بكر ومحمد وعاصم، وهؤلاء أمهم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وله من غيرها ستة وهم: الأصبغ وسهل وسهيل وأم الحكم وزبّان وأم البنين. وعاصم هو من تُكنى به والدته ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فكنيتها أم عاصم.

وروى ابن شَوْذَب قال: لما أراد عبد العزيز بن مروان أن يتزوج أم عمر بن عبد العزيز قال لقيمه: اجمع لي أربعمائة دينار من طيب مالي فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح، قال: فتزوج أم عمر بن عبد العزيز.

وتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وولدت له إبنه الخليفة عمر بن عبد العزيز .

• أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب : هي ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب القرشية العدوية، وهي بنت تلك الفتاة التي اعترضت على أمها عندما أرادت أن تغش اللبن - وكان الخليفة عمر يعس بالليل يتفقد الرعية- وقالت لها إنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر فقالت الصبية لأمها والله ماكنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء فمن هذه البضعة

الطاهرة كان عمر بن عبد العزيز فأسأل اللـه أن يرزق نساءنا مخافته في السر والعلن، كبرت و عاشت في منزل جدها "عمر بن الخطاب"رضي اللـه عنه، وتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم, وأنجبت له عاصم وبه تكنت, وعمر.

حدثت عن أبيها عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللـه - صلى اللـه عليه وسلم -: نعم الإدام الخل. حدث سالم الأفطس أن عمر بن عبد العزيز رمحته دابة، وهو غلام بدمشق، فضمته أم عاصم أمه إليها، وجعلت تمسح الدم عن وجهه، ودخل أبوه عليها على تلك الحال، فأقبلت عليه تعذله وتلومه وتقول: ضيعت ابني، ولم تضم إليه خادماً ولا حاضناً يحفظه من مثل هذا! فقال: اسكتي يا أم عاصم، فطوباك إن كان أشج بني أمية.

كانت أم عاصم من المؤمنات العابدات اللاتي ربيَّن أولادهن على البكاء من خشية اللـه وعلى الزهد في هذه الدنيا، وقد أكرمها اللـه وأخرج من صلبها سيدنا عمر بن عبد العزيز الذي عده الثوري خامس الخلفاء الراشدين.

قال سفيان الثوري: الخلفاء خمسة " أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز".

وهكذا أكرمها اللـه بطيب الأصل وحسن الذرية فهي ذرية مباركة طيبة نشرت في ربوع بلاد الإسلام العدل والأمن حتى عم الرخاء على البلاد. ومن الأخبار التي أوردها التاريخ عن أم عاصم: أنها كانت مُحسنة جوّادة.

عن أحمد بن سليمان عن الزبير قال: "لما ماتت رقية بنت عمر بن الخطاب - رضي اللـه عنه - عند إبراهيم بن نعيم بن عبد اللـه فدُفنت بالبقيع، انصرف به عاصم إلى منزله فأخرج له ابنتيه: حفصة وأم عاصم فقال له: اختر أيهما شئت فإنا لا نحب أن يتقطع صِهرك منا قال إبراهيم: لم يَخف عليَّ أن أم عاصم أجمل المرأتين فتجاوزت عنها وقلت: يصيب بها أبوها رغبة من بعض الملوك لما رأيت من جمالها وتزوجت حفصة، فتزوج عبد العزيز بن مروان بن الحكم أم عاصم فولدت له عمر بن عبد العزيز وإخوة له، ثم هلكت عنده وهلك إبراهيم بن نعيم عن حفصة بنت عاصم فتزوجها عبد العزيز بن مروان بعد مهلك أم عاصم بنت عاصم وحُملت إليه بمصر وكان بأيلة إنسان به خَبل يقال له شر شمير، فكانت أم عاصم مَرّت به فتعرّض لها فأعطته وأحسنت إليه، ثم مرت به بعدها حفصة بنت عاصم فتعرض لها فلم ترفع إليه رأساً. فسئل أين حفصة من أم عاصم فقال: \"ليست حفصة من رجال أم عاصم ".

وكانت رحمها اللـه زاهدة في الملك و الولاية، فلم تفرح يوم تولى "عبد الملك بن مروان " شؤون الحكم لأنه قد آلت ولاية العهد لزوجها" عبد العزيز"إغتمت وحزنت و إنتظرت عودت زوجها لداره و ما إن دخل حتى وجدها متجهمة حزينة فما كان منه إلا أن يسألها عن سبب حزنها فقالت: إني أرجوا أن تتعزل هذا الأمر الحكم و الخلافة و نعود للبادية لا أريد أن يؤول الأمر لولدي فكلها صراع و مطامع. فأجابها : هذا ميراث أبائي و أجدادي فلم أحرم ولدي من ولاية أمور الناس و رعاية شؤنهم بالحق و بما يرضي اللـه و هو ميراث أبائه و أجداده ,فأجابته قائلة : بئس الميراث الدنيا و فتنتها و لو كان هذا الميراث عرشا قوائمه من الذهب يجعل الناس يتكالبون عليه و يقتل بعضهم بعضا و لا يراعون ذمة لنسب و لا قربى و ما قتل عترة النبي صل اللـه عليه و سلم إلا التكالب على هذا العرض الزائل فإرحمنا و إرحم و لدنا يرحمك اللـه. فإبتسم ثم قال لها: العرق دساس من شابهت أباها و جدها ما ظلمت يا زهرة من دوحة عمر عطرت بأريجها بيت عبد العزيز.

وهكذا كانت خيرة مُحسنة زاهدة و أما مُربية أخرجت لنا الخليفة الراشد العادل عمر بن عبد العزيز رضي اللـه عنه الذي عرف عنه"سيد البكائين ". ومما جاء في ذلك عن أبي قَبيل: أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير قد جميع القرآن، فأرسلت إليه أمه فقالت ما يبكيك؟ قال:"ذكر الموت " فبكت أمه من ذلك.

وهكذا كانت السيدة أم عاصم أماً صالحة سجلها التاريخ في سجل الأمهات الخالدات وهكذا نزعت به إلى خلائف جده الفاروق - رضي اللـه عنه - فرحمها اللـه ورضي عنها وعن ولدها.

مولده ونشأته

ولد عمر بن عبد العزيز في المدينة المنورة سنة 61هـ وهـي السـنة التـي ماتـت فيها ميمونة زوج النبي (صلى اللـه عليه وسلم) وقد اختلف المؤرخون في سنة ولادتـه، والراجح أنه ولد عام 61هـ وهو قول أكثر المؤرخين، ولأنه يؤيد ما يُذكر مـن أنـه تـوفي وعمره أربعون سنة، حيث توفي عام 101هـ وتذكر بعض المصادر أنـه ولـد بمصر وهـذا القول ضعيف؛ لأن أباه عبد العزيز بن مروان بـن الحكـم إنمـا تـولى مصر سـنة خمـس وستين للهجرة، بعد استيلاء مروان بن الحكم عليها من يد عامل عبد اللـه بـن الـزبير رضي اللـه عنهما، فولّى عليها ابنه عبد العزيز، ولم يعرف لعبد العزيز بن مـروان إقامـة بمصر قبل ذلك، وإنما كانت إقامتـه وبنـو مـروان في المدينـة , وذكـر الـذهبي أنـه ولـد بالمدينة زمن يزيد.

وكان عمر بن عبد العزيز رضي اللـه عنه(يلقب بالأشج)، وكان يقال له أشج بني مروان؛وذلك أن عمر بن عبد العزيز عندما كان صغيراً دخل إلى اصـطبل أبيـه - عنـدما كان والياً على مصر - ليرى الخيل فضربه فرس في وجهه فشجه، فجعل أبوه يمسح الـدم عنه ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك إذاً لسعيد. ولما رأى أخـوه الأصـبغ الأثـر قـال: اللـه أكبر، هذا أشج بني مروان الذي يملك.

قال أبو خيثم: حدثنا المفضل بن عبـد اللـه، عـن داود بـن أبي هنـد قـال: دخـل علينا عمر بن عبد العزيز من هذا الباب - يعني بابا من أبواب المسجدبالمدينة - فقـال رجل من القوم: بعث إلينا هذا الفاسق بابنه هذا يتعلم الفـرائض والسـنن، وزعـم أنـه يكون خليفة بعده، ويسير بسيرة عمر بن الخطاب .

قال: فقال لنا داود: فواللـه ما مات حتى رأينا ذلك فيه.

وكان عمر بن الخطاب يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً.

وكان الفاروق قد رأى رؤيا تشير إلى ذلك وقد تكررت هـذه الرؤيـا لغـير الفـاروق حتى أصبح الأمر مشهوراً عند الناس بدليل ما قاله أبوه عندما رأى الدم في وجهـه، ومـا قاله أخوه عندما رأى الشج في وجهه، كلاهما تفاءل لعله أن يكون ذلك الأشج الذي يملأ

الأرض عدلاً.

ومنذ ذلك الحين أطلق على عمر أشج بني مروان أو بني أمية أو أشج قريش.

قال أبو داود الطيالسي، حدثنا عبد العزيز بن عبد اللـه بن أبي سلمة الماجشـون، ثنا عبد اللـه ابن دينار، قال: قال ابن عمر: يا عجباً !! يزعم الناس أن الـدنيا لا تـنقضي حتى يلي رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر، قال: وكانوا يرونه بلال بن عبد اللـه بن عمر، قال: وكان بوجهه أثر، فلم يكن هو، وإذا هو عمر بن عبد العزيز، وأمـه ابنـة عاصم بن عبد اللـه بن عمر بن الخطاب.

وقال البيهقي: أنبأ الحاكم، أنبأ أبو حامد بن علي المقري، ثنا أبـو عـيسى الترمـذي، ثنا أحمد بن إبراهيم، ثنا عفان، ثنا عثمان بن عبد الحميد بن لاحق، عن جويرية بنـت أسماء، عن نافع، قال: بلغنا أن عمر بن الخطاب قال: إن من ولدي رجلاً بوجهه شـجان يلي فيملأ الأرض عدلاً. قال نافع من قبله: ولا أحسبه إلا عمر بن عبد العزيز .

ورواه مبارك بن فضالة، عن عبيد اللـه، عن نافع، وقال: كان ابن عمر يقول: ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً؟

قال وهيب بن الورد: بينما أنا نائم رأيت كأن رجلاً دخل من باب بني شيبة وهـو يقول: يا أيها الناس !ولي عليكم كتاب اللـه. فقلت: من؟ فأشار إلى ظفره، فإذا مكتوب عليه عمر، قال: فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز .

وقال بقية، عن عيسى بن أبي رزين، حدثني الخزاعي، عن عمـر بـن عبـد العزيـز، أنه رأى رسول اللـه - صلى اللـه عليه وسلم - في روضة خضراء فقال له: " إنـك سـتلي أمر أمتي فزع عن الدم فزع عـن الـدم، فـإن اسـمك في النـاس عمـر بـن عبـد العزيـز، واسمك عند اللـه جابر ".

وقال أبو بكر بن المقري: ثنا أبو عروبة الحسين بن محمد بن مودود الحراني، ثنا أيوب بن محمد الوزان، ثنا ضمرة بن ربيعة، ثنا السري بن يحيى، عن رياح بن عبيدة، قال: خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده، فقلت في نفسي: إن هذا شيخ جاف، فلـما صـلى ودخـل لحقتـه فقلـت: أصـلح اللــه الأمـير مـن هـذا الشـيخ الـذي أتكأتـه

يدك؟ فقال: يا رياح رأيته قلت: نعم ! قال: ما أحسبك يا رياح إلا رجلاً صالحاً ذاك أخي الخضر أتاني فأعلمني أني سألي أمر هذه الأمة وأني سأعدل فيها.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو عمير، ثنا ضمرة، عن علي بن خولة، عن أبي عنبس، قال: كنت جالساً مع خالد بن يزد بن معاوية فجاء شاب عليه مقطعات فأخذ بيد خالد، فقال: هل علينا من عين؟ فقال أبو عنبس: فقلت: عليكما من الله عين بصيرة، وأذن سميعة، قال: فترقرت عينا الفتى. فأرسل يده من يد خالد وولى، فقلت: من هذا؟ قال: هذا عمر بن عبد العزيز ابن أخي أمير المؤمنين، ولئن طالت بك حياة لترينه إمام هدى. قلت: قد كان عند خالد بن يزيد بن معاوية شيء جيد من أخبار الأوائل وأقوالهم، وكان ينظر في النجوم والطب.

وقد ذكر ابن الجوزي: أن سليمان بن عبد الملك -رحمه الله- لما حضرته الوفاة أراد أن يعهد إلى بعض أولاده، فصرفه وزيره الصالح رجاء بن حيوة عن ذلك، وما زال به حتى عهد إلى عمر بن عبد العزيز من بعده وصوب ذلك رجاء فكتب سليمان العهد في صحيفة وختمها ولم يشعر بذلك عمر ولا أحد من بني مروان سوى سليمان ورجاء، ثم أمر صاحب الشرطة بإحضار الأمراء ورؤوس الناس من بني مروان وغيرهم، فبايعوا سليمان على ما في الصحيفة المختومة، ثم انصرفوا، ثم لما مات الخليفة استدعاهم رجاء بن حيوة فبايعوا ثانية قبل أن يعلموا موت الخليفة، ثم فتحها فقرأها عليهم، فإذا فيها البيعة لعمر بن عبد العزيز، فأخذوه فأجلسوه على المنبر وبايعوه فانعقدت له البيعة .

وقد اختلف العلماء في مثل هذا الصنيع في الرجل يوصي الوصية في كتاب ويشهد على ما فيه من غير أن يقرأ على الشهود. ثم يشهدون على ما فيه فينفذ، فسوغ ذلك جماعات من أهل العلم، قال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري: أجاز ذلك وأمضاه وأنفذ الحكم به جمهور أهل الحجاز، وروى ذلك عن سالم بن عبد الله. وهو مذهب مالك ومحمد بن مسلمة المخزومي ومكحول، ونمير بن أوس وزرعة بن إبراهيم، والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز، ومن وافقهم من فقهاء الشام .

وحكى نحو ذلك خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيـه وقضـاة جنـده، وهـو قـول الليث بن سعد فيمن وافقه من فقهاء أهل مصر والمغرب، وهو قول فقهاء أهل البصرة وقضاتهم .

وروى عن قتادة وعن سوار بن عبد اللـه وعبيـد اللــه بـن الحسـن ومعـاذ بـن معاذ العنبري فيمن سلك سبيلهم، وأخذ بهذا عدد كثير من أصحاب الحديث، منهم أبو عبيد وإسحاق بن راهويه. قلت: وقد اعتنى به البخاري في صحيحه.

قال المعافى: وأبي ذلك جماعة من فقهاء العراق، منهم إبـراهيم وحـماد والحسـن، وهو مذهب الشافعي وأبي ثور، قال: وهو قول شيخنا أبي جعفر، وكـان بعـض أصـحاب الشافعي بالعراق يذهب إلى القول الأول، قال الجريري: وإلى القول الأول نذهب.

نشأته وتعليمه

نشأ عمر بن عبد العزيز في المدينة المنورة، فلما شب وعقل وهو غلام صغير كـان يأتي عبد اللـه بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه، ثم يرجع إلى أمه فيقول: « يـا أمـه، أنا أحب أن أكون مثل خالي »، يريد عبد اللـه بن عمـر، فتؤفـف بـه ثـم تقـول لـه: « اغرب، أنت تكون مثل خالك »، وتكرر عليه ذلك غير مرة.

فلما كبر سار أبوه عبد العزيز بن مروان إلى مصر أميراً عليها، ثم كتب إلى زوجتـه أم عاصم أن تقدم عليه وتقدم بولدها، فأتت عمها عبد اللـه بن عمر فأعلمته بكتـاب زوجها عبد العزيز إليها، فقال لها: «يا ابنة أخي، هو زوجك فـالحقي بـه»، فلـما أرادت الخروج قال لها: «خلفي هذا الغلام عندنا (يريد عمر) فإنه أشبهكم بنـا أهـل البيـت»، فخلفته عنده ولم تخالفه، فلما قدمت على عبد العزيز اعـترض ولـده فـإذا هـو لا يـرى عمر، فقال لها: «وأين عمر؟»، فأخبرته خبر عبـد اللــه ومـا سـألها مـن تخليفـه عنـده لشبهه بهم، فسرّ بذلك عبد العزيز، وكتب إلى أخيه عبد الملك يخبره بذلك، فكتب عبد الملك أن يجري عليه ألف دينار في كل شهر، ثم قدم عمر على أبيه مسلِّماً.

وهكذا تربى عمر بين أخواله بالمدينة المنورة من أسرة عمر بن الخطاب، ولا شـك أنـه

تأثر بهم وبمجتمع الصحابة في المدينة.

كان عمر عبد العزيز يعيش في أسرة الملك والحكم، حيث النعيم الدنيوي، وزخرف الدنيا وبهائجها، وكان يتقلب في نعيم يتعاظم كل وصف، ويتحدى كل إحاطة.. إنّ دخله السنوي من راتبه ومخصصاته، ونتاج الأرض التي ورثها من أبيه يجاوز أربعين ألف دينار.. وإنه ليتحرك مسافراً من الشام إلى المدينة، فينتظم موكبه خمسين جملاً تحمل متاعه.

وكان يلبس أبهى الثياب وأغلاها، ويضمخ نفسه بأبهج عطور دنياه، حتى إنه ليعبر طريقاً ما، فيعلم الناس أنه عبره، وكان يتأنق في كل شيء، حتى المشية التي انفرد بها وشغف الشباب بمحاكاتها وعرفت لفرط أناقتها واختيالها بـ"المشية العمرية".

ثم إنه مع هذا كله كان فيه نبوغ مبكر فلم تنسه هذه الدنيا وزخرفها الله تعالى والدار الآخرة، بل إنه كان فيه حب للعلم وأهله.

وكان عمر بن عبد العزيز منذ صغره شديد الإقبال على طلب العلم، وكان يحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء، كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم في المدينة، وكانت يومئذ منارة العلم والصلاح، زاخرةً بالعلماء والفقهاء والصالحين، وتاقت نفسه للعلم وهو صغير، وكان أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب.

وقيل في صفاته: كان عمر بن عبد العزيز أسمر رقيق الوجه أحسنه، نحيف الجسم حسن اللحية، غائر العينين بجبهته أثر نفحة دابة، وقد خطه الشيب، وقيل في صفته: أنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه، جميلاً، نحيفاً، وقيل في صفته: إنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه، جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية .

وقد اتصف بصفات القائد الرباني الميداني، ومن أهم هذه الصفات: إيمانه الراسخ بالله عز وجل وعظمته، وإيمانه بالقدر خير وشره دون تأويل أو تعطيل، وخوفه من الجليل والعمل بالتنزيل وكان صاحب علم غزير، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة والشجاعة والمروءة والزهد، وحب التضحية، والتواضع، والورع وقبول النصيحة، صاحب

مشورة وذا حلم وصبر، وعلو للهمة، والحزم، والإدارة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، وقدرته على التخطيط والتوجيه والتنظيم والمراقبة، وغير ذلك من الصفات المؤهلة لسيادة العالم وليس لأمة فحسب.

البيئة الصالحة

إن البيئة الصالحة تنتج أولاداً صالحين، وإن الاهتمام بتربية الأولاد والاعتناء بهم، هو الذي يوجههم إلى الوجهة التي سيكونون عليها في مستقبل الأمر غالباً، ولذلك فإن العناية منذ الصغر تنشئ رجال المستقبل، وإن الاهتمام بالبيئة هو الذي يصلح الأحوال بإذن الله، وقد كان فيما سلف سنة قد اختفت، وهي المؤدبون، كانوا يعتنون بتأديب الأولاد وتعليمهم، ومؤدب الولد يأخذه بحفظ القرآن وشيء من الحديث والتربية على حسن الخلق والآداب الشرعية، فينشأ عف اللسان، وينشأ محباً للدين والعلم والصالحين، وإن الأب، ولو كان مشغولاً ينبغي أن يتعاهد ولده ولو من بعد، لرجل صالح يتعاهده ويلزمه الصلوات، ويؤدبه.

منذ نعومة أظفار عمر حرص والده عبد العزيز رحمه الله على أن ينشأ ولده على الصلاح والاستقامة فأختار له البيئة الخصبة التي سيترعرع فيها فكانت هي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يعيش بعض من بقي من الصحابة رضي الله عنهم.

وقد رزق منذ صغره حب الإقبال على طلب العلم وحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم في المدينة. وكانت يومئذ منارة العلم والصلاح زاخرة بالعلماء والفقهاء والصالحين، وكان رحمه الله فصيحا مفوها.

وجمع عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير وساعده على ذلك صفاء نفسه وقدرته الكبيرة على الحفظ وتفرغه الكامل لطلب العلم والحفظ.

ثم كان للبيئة الاجتماعية المحيطة دور فعال ومهم في نشأة شخصية عمر بن عبد العزيز،حيث عاش في زمن ساد فيه مجتمع التقوى والصلاح والإقبال على طلب العلم والعمل بالكتاب والسنة. فقد كان عدد من الصحابة لا زالوا بالمدينة. فقد حدث عن

عبد الـلـه بن جعفر بن أبي طالب، والسائب بن يزيد، وسهل بن سعد، واستوهب منـه قدحاً شرب منه النبي - صلى الـلـه عليه وسلم -. وأمَّ بأنس بن مالك، فقـال: مـا رأيـت أحداً أشبه صلاةً برسول الـلـه - صلى الـلـه عليه وسلم - من هذا الفتى.

وثبت من غير وجه عن أنس بن مالـك. قـال: مـا صـليت وراء إمـام أشـبه بصـلاة رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم من هذا الفتى - يعني عمر بن عبد العزيـز - حـين كان على المدينة.

قالوا: وكان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود، وفي رواية صـحيحة أنـه كان يسبح في الركوع والسجود عشرا عشرا.

هذه العوامل والظروف ساهمت في بناء شخصية عمر بن عبد العزيز بناءً صالحاً، كما أن للإقامة بالمدينة آثار نفسية عظيمة، ومعان إيمانية، وتعلـق روحـي كبـير، وكـان لذلك المجتمع قوة التأثير في صياغة شخصية عمر بن عبد العزيز العلمية والتربوية.

الإشارة النبوية

أفرد ابن كثير رحمه الـلـه في كتابه (البداية والنهايـة) فصـلاً كـاملاً عـن الإشـارة النبوية إلى خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الـلـه عنه.

ومن ذلك حديث أبي إدريس الخولاني عن حذيفة قال: سألت رسول الـلـه - صلى الـلـه عليه وسلم - هل بعد هذا الخير من شر، قال: نعم. قلت: وهـل بعـد ذلـك الشر من خير، قال: نعم وفيه دخن. قلت: وما دخنه، قال: قوم يستنون بغير سنتي ويهـدون بغير هديي يعرف منهم وينكر. فحمل البيهقي وغيره هذا (الخير الثاني) على أيام عمـر بن عبد العزيز.

وروي عن الحاكم عن الأصم عن العباس بن الوليد بن مرثد عن أبيـه قـال: سـئل الأوزاعي عن تفسير حديث حذيفة حين سأل رسول الـلـه - صلى الـلـه عليـه و سـلم - عن الشر الذي يكون بعد ذلك الخير، فقال الأوزاعي هي الردة التـي كانـت بعـد وفـاة رسول الـلـه " صلى الـلـه عليه وسلم " وفي مسـألة حذيفـة: فهـل بعـد ذلـك الشر مـن خير؟، قال: نعم وفيه دخن. قال الأوزاعي: فالخير الجماعة، وفي ولاتهم من يعرف سيرته وفيهم من ينكر سيرته..

وروى أبو داود الطيالسي عن داود الواسطي عن حبيب بن سالم عن نعمان بن سالم عن حذيفة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إنكم في النبوة ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها لكم إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة.

قال: فقدم عمر بن عبد العزيز ومعه يزيد بن النعمان، فكتبت إليه أذكره الحديث، وكتبته إليه أقول: إني أرجو أن تكون أمير المؤمنين بعد الخيرية. قال: فأخذ يزيد الكتاب فأدخله على عمر فسر به وأعجبه.

وقال نعيم بن حماد حدثنا روح بن عبادة عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: قال عمر بن عبد العزيز: رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعنده عمر وعثمان وعلي. فقال لي: ادن، فدنوت حتى قمت بين يديه، فرفع بصره إلي وقال: أما إنك ستلي أمر هذه الأمة وستعدل عليهم.

وفي حديث أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، قال كثير من الأئمة إنه عمر بن عبد العزيز.

وروى نافع عن ابن عمر قال: بلغنا أن عمر بن الخطاب قال: إن من ولدي رجلاً بوجهه شين يلي فيملأ الأرض عدلاً. قال نافع من قبله ولا أحسبه إلا عمر بن عبد العزيز.

قال ابن كثير: قلت: وقد ولي عمر بن عبد العزيز بعد سليمان بن عبد الملك سنتين ونصفاً فملأ الأرض عدلاً وفاض المال حتى كان الرجل يهمه لمن يعطي صدقته.

عاش عمر بن عبد العزيز في زمن ساد فيه مجتمعُ التقوى والإقبال على طلب العلم، فقد كان عدد من الصحابة لا يزالون بالمدينة، فقد حدث عمر بن عبد العزيز عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والسائب بن يزيد، وسهل بن سعد، واستوهب منه قدحاً شرب منه النبي محمد، كما أمّ بأنس بن مالكفقال: « ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله - صلى الله عليه وسلم -من هذا الفتى ».

تربى عمر بن عبد العزيز وتعلم على أيدي كثير من العلماء والفقهاء، وقد بلغ عدد

شيوخ عمر بن عبد العزيز ثلاثة وثلاثين؛ ثمانية منهم من الصحابة وخمسة وعشرون من التابعين.

فقد اختار عبد العزيز (والد عمر) صالح بن كيسان ليكون مربياً لعمر، فتولى صالح تأديبه، وكان يُلزم عمر الصلوات المفروضة في المسجد، فحدث يوماً أن تأخر عمر عن الصلاة مع الجماعة، فقال له صالح بن كيسان: « ما يشغلك؟ »، قال: « كانت مرجّلتي (مسرحة شعري) تسكن شعري »، فقال: «بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟»، فكتب إلى عبد العزيز يذكر ذلك، فبعث أبوه رسولاً فلم يكلمه حتى حلق رأسه.

ومما يذكر من بكائه حال صغره وخوفه: أنه لما حج أبوه اجتاز به في المدينة، فسأل صالح عنه فقال: ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام.

وقد بكى يوماً وهو غلام صغير فأرسلت إليه أمه وقالت: ما يبكيك؟ قال: ذكرت الموت، فبكت أمه حين بلغها ذلك.

وكان عمر يحرص على التشبه بصلاة النبي محمد أشد الحرص، فكان يُتمُّ الركوع والسجود ويخفِّف القيام والقعود، وفي رواية صحيحة: أنّه كان يسبِّح في الركوع والسجود عشراً عشراً.

ومن شيوخ عمر بن عبد العزيز الذين تأثر بهم: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فقد كان عمر يجله كثيراً، ونهل من علمه وتأدب بأدبه وتردد عليه حتى وهو أمير المدينة، ولقد عبّر عمر عن إعجابه بشيخه وكثرة التردد إلى مجلسه فقال: « لَمجلسٌ من الأعمى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحب إليّ من ألف دينار »، وكان يقول في أيام خلافته لمعرفته بما عند شيخه من علم غزير: « لو كان عبيد الله حياً ما صدرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لي بيوم واحد من عبيد الله كذا وكذا ». وكان عبيد الله مفتي المدينة في زمانه، وأحد الفقهاء السبعة، قال عنه الزهري: «كان عبيد الله بن عبد الله بحراً من بحور العلم وكان يقرض الشعر، فقد كتب إلى عمر بن عبد العزيز هذه الأبيات:

بسم الذي أنزلت من عنده السور | والحمد لله أمّا بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر | فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبرعلى القدر المحتوم وارض به | وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامرئ عيش يُسرٌّ به | إلا سيتبع يوماً صفوه كدر.

ومن شيوخه أيضاً سعيد بن المسيب، وكان سعيد لا يأتي أحداً من الأمراء غير عمر. ومنهم سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قال فيه سعيد بن المسيب: « كان عبد الله بن عمر أشبه ولد عمر به، وكان سالم أشبه ولد عبد الله به ».

وذات يوم دخل سالم بن عبد الله على الخليفة سليمان بن عبد الملك، وعلى سالم ثياب غليظة رثَّة، فلم يزل سليمان يرحب به، ويرفعه حتى أقعده معه على سريره، وعمر بن عبد العزيز في المجلس، فقال له رجل من أُخريات الناس: «ما استطاع خالك أن يلبس ثياباً فاخرة أحسن من هذه يدخل فيها على أمير المؤمنين؟»، وعلى المتكلم ثياب سريَّة لها قيمة، فقال له عمر: « ما رأيت هذه الثياب التي على خالي وضعته في مكانك، ولا رأيت ثيابك هذه رفعتك إلى مكان خالي ذاك ».

كان لعمر بن عبد العزيز أثر كبير في نصح الخلفاء وتوجيه سياستهم بالرأي والمشورة، إذ يحتل عمر مكانة متميزة في البيت الأموي، فقد كان عمه عبد الملك يجله ويعجب بنباهته أثناء شبابه، مما جعله يقدمه على كثير من أبنائه ويزوجه من ابنته، ولكن لم يكن له مشاركات في عهد عبد الملك بسبب صغر سنه واشتغاله بطلب العلم في المدينة، ومع ذلك فقد أورد ابن الجوزي أنه كتب إلى عبد الملك كتاباً يذكّره فيه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، وقد جاء فيها:

« أما بعد، فإنك راعٍ، وكلٌّ مسؤولٌ عن رعيته، حدثنا أنس بن مالك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل راعٍ مسؤول عن رعيته، " اللـهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا " (النساء: 87)».

ويقال بأن عبد الملك قد ولّى عمر بن عبد العزيز على "خناصره" ليتدرب على

الأعمال القيادية في وقت مبكر، ويقال إن سليمان بن عبد الملك هـو الـذي ولاه عليهـا. وقد تأثر عمر بن عبد العزيز لموت عمـه عبـد الملـك وحـزن عليـه حزنـاً عظـيماً، وقـد خاطب عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك فقال له: «يا مسـلمة، إني حضرت أبـاك لمـا دفن، فحملتني عيني عند قبره فرأيته قد أفضى إلى أمر من أمر اللــه راعنـي وهـالني، فعاهدت اللـه ألا أعمل بمثل عمله إن وليت، وقد اجتهدت في ذلك».

هذه هي أهم العوامل التي أثرت في تكوين شخصيته. ومـن الـدروس المسـتفادة هو أن العلماء الربانيين يقع على عاتقهم مسؤولية كبيرة، وهي الاهتمام بـأولاد الأمـراء والحكام وأهل الجاه والمال ففي صلاحهم خير عظيم للأمة الإسلامية

***

انتقل عمر بن عبد العزيز من مرحلة التلقي والسماع إلى التحديث والرواية بعـد أن رسخت قدمه في العلم، وتتلمذ على أئمة الحديث والفقه. وكان ممن روى عن عمـر بن عبد العزيز من التابعين: أبـو بكـر بـن حـزم، ورجـاء بـن حيـوة، والزهـري، وأيـوب السختياني وغيرهم.

كان من أئمة زمانه، فقد أطلق عليه كـل مـن الإمـامين مالـك وسـفيان بـن عيينـة وصف إمام. وقال فيه مجاهد: أتيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلمّنا منه. وقـال ميمـون بن مهران: كان عمر بن عبد العزيز معلمَّ العلماء. وقال فيه الذهبي: كان إمامـاً فقيهـاً مجتهداً، عارفاً بالسنن، كبير الشأن، حافظاً، قانتاً لله أوَّاهـاً منيبـاً يعـد في حسـن السـيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمـر، وفي الزهـد مـع الحسـن الـبصري، وفي العلـم مـع الزهري.

وقد احتج الفقهاء والعلماء بقوله وفعله، ومن ذلك رسالة الإمام الليث بـن سـعد إلى الإمام مالك بن أنس، وهي رسالة قصيرة، وفيها يحتج الليث - مـراراً - بصـحة قولـه بقول عمر بن عبد العزيز على مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله.

ويرد ذكر عمر بن عبد العزيز في كتب الفقه للمذاهب الأربعة المتبوعـة عـلى سـبيل الاحتجاج بمذهبه، فاستدل الحنفية بصنيعه في كثير من المسـائل. وجعلـوا لـه وصـفاً وهـو

(عمر الصغير) ليتميَّز به عن جدّه لأمه عمر بن الخطاب.

ويكثر الشافعية من ذكره في كتبهم؛ ولذلك ترجم له الإمام النووي ترجمة حافلة في تهذيب الأسماء واللغات.

وأما المالكية فيكثرون من ذكره في كتبهم أكثر من غيرهم، ومالك إمام المذهب ذكره في كتابه (الموطأ) محتجاً بفتواه وقوله في مواضع عديدة في موطئه. وأما الحنابلة فكذلك يذكرونه كثيراً. وعمر هو الذي قال فيه الإمام أحمد: لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز.

وبعد مرحلة طلب العلم استدعاه عمه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى دمشق حاضرة دولته، وزوّجه ابنته فاطمة، وكان الخليفة عبد الملك بن مروان من الحصافة ليدرك أن ابن أخيه عمر بن عبدالعزيز هو خير زوج لبنته وفلذة كبده، فعرضها عليه قائلاً له: قد زوجك أمير المؤمنين ببنته فاطمة.. فقال عمر: وصلك الله يا أمير المؤمنين فقد أجزيت وكفيت.

ثم عيّنه واليًا على إمارة صغيرة من أعمال حلب، وظل واليًا عليها حتى تُوفي عبد الملك بن مروان سنة (86هـ- 705م).

أخرج أبو نعيم بسند صحيح عن رياح بن عبيدة قال: خرج عمر ابن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده فقلت في نفسي: إن هذا الشيخ جاف فلما صلى ودخل لحقته فقلت أصلح الله الأمير من الشيخ الذي كان يتكئ على يدك قال يا رياح رأيته قلت: نعم قال ما أحسبك إلا رجلا صالحاً ذاك أخي الخضر أتاني فأعلمني أني سألي أمر هذه الأمة وأني سأعدل فيها.

وأخرج أيضاً عن أبي هاشم أن رجلا جاء إلى عمر بن عبد العزيز فقال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله فإذا رجلان يختصمان وأنت بين يديه جالس فقال لك: يا عمر إذا عملت فاعمل بعمل هذين لأبي بكر وعمر فاستخلف له عمر بالله لرأيت هذا فخلف له فبكى عمر.

الفصل الثاني

الطريق إلى الخلافة

ولّاه الخليفة الوليد بن عبد الملك على إمارة المدينة المنورة، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة 91 هـ، فصار والياً على الحجاز كلها، ثم عُزل عنها وانتقل إلى دمشق.فلما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة قرّبه وجعله وزيراً ومستشاراً له، ثم جعله ولي عهده، فلما مات سليمان سنة 99 هـ تولى عمر الخلافة.

يُعدّ عمر بن عبد العزيز من العلماء الذين تميزوا بقربهم من الخلفاء، وكان له أثر كبير في نصحهم وتوجيه سياستهم بالرأي والمشورة، ويحتل عمر بن عبد العزيز مكانة متميزة في البيت الأموي، فقد كان عبد الملك يجلّه ويُعجب بنباهته أثناء شبابه، مما جعله يقدمه على كثير من أبنائه، ويزوجه من ابنته، ولكن لم يكن له مشاركات في عهد عبد الملك بسبب صغر سنه واشتغاله بطلب العلم في المدينة، ومع ذلك فقد أورد ابن الجوزي أنه كتب إلى عبد الملك كتاباً يذكّره فيه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه وقد جاء فيها: أما بعد: فإنك راعٍ، وكلٌّ مسؤول عن رعيته.

حدثنا أنس بن مالك أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: كل راعٍ مسؤول عن رعيته. " اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا " (النساء:87).

ويُقال بأن عمر بن عبد العزيز ولاّه عمه عبد الملك خناصره لكي يتدرب على الأعمال القيادية في وقت مبكر، وقد قيل: إن سليمان بن عبد الملك هو الذي ولاه على خناصره، وهناك من رجح القول، وقد تأثر عمر بن عبد العزيز لموت عمه وحزن عليه

حزناً عظيماً، وقد خاطب عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك فقال له: يا مسلمة، إني حضرت أباك لما دفن، فحملتني عيني عند قبره فرأيته قد أفضى إلى أمر من أمر الله، راعني وهالني، فعاهدت الله ألاّ أعمل بمثل عمله إن وُليت، وقد اجتهدت في ذلك.

في ربيع الأول من عام 87 هـ ولّى الخليفة الوليد بن عبد الملك عمرَ إمارة المدينة المنورة، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة91 هـ وبذلك صار والياً على الحجاز كلها واشترط عمر لتوليه الإمارة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يعمل في الناس بالحق والعدل ولا يظلم أحداً، ولا يجور على أحد في أخذ ما على الناس من حقوق لبيت المال، ويترتب على ذلك أن يقل ما يرفع للخليفة من الأموال من المدينة.

الشرط الثاني: أن يسمح له بالحج في أول سنة؛ لأن عمر كان في ذلك الوقت لم يحج.

الشرط الثالث: أن يسمح له بالعطاء أن يُخرجه للناس في المدينة.

فوافق الوليد على هذه الشروط، وباشر عمر بن عبد العزيز عمله بالمدينة، وفرح الناس به فرحاً شديداً، وقام عمر بتكوين مجلس للشورى بالمدينة سمي بـ"مجلس فقهاء المدينة العشرة"، فعندما جاء الناس للسلام على أمير المدينة الجديد وصلّى بهم، دعا عشرة من فقهاء المدينة وهم: عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد بن ثابت، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، إني لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأحرّج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغني».

قال وأرسل عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدِينة رسولا إلى سعيد بن المسيب

يسأله عن مسألة وَكان سعيد لا يأتي أَمِيرا ولا خليفة فأخطأ الرسول فقال هل الأمير يدعوك فأخذ نعليه وقام إليه (من وقته) فلما رآه قال له عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حَتى يسألك رسولنا عن حاجتنا فإنا لم نرسله ليدعوك ولكنه أخطأ إنما أرسلناه ليسألك ولم ير سعيد أنه يسعه التخلف عَنه.

وفي إمارته على المدينة المنورة وسع المسجد النبوي بأمر من الوليد بن عبد الملك، حتى جعله مئتي ذراع في مئتي ذراع، وزخرفه بأمر الوليد أيضاً، مع أنه كان يكره زخرفة المساجد.

ظلَّ عمر بن عبد العزيز واليًا على المدينة حوالي ست سنوات كان فيها موضع الرضا من أهلها وعلمائها، وقد أقام الحج أثناء ولايته عدة مرات، وكان عمر يعتبر فترة ولايته على المدينة من أسعد أيام حياته، ولم يعكر صفو أيامه هذه إلا حادثة خبيب بن عبد الله بن الزبير؛ إذ تعرض عمر لحادث مؤسف في أثناء ولايته على المدينة؛ مما أثر فيه.

قال علماء السير: كان خبيب بن عبد الله بن الزبير قد حدَّث عن النبي - صلى الله عليه وسلم -أنه قال: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً، وهو حديث ضعيف، فبعث الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز ـ واليه على المدينة ـ يأمره بجلده مائة سوط، وبحبسه، فجلده عمر مائة سوط، وبرد له ماءً في جرّة ثم صبه عليه في غداة باردة فكز، فمات فيها. وكان عمر قد أخرجه من السجن حين اشتد وجعه، وندم على ما صنع منه وحزن عمر على موت خبيب، فقد روى مصعب بن عبد الله عن مصعب بن عثمان أنهم نقلوا خبيباً إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير ببقيع الزبير، واجتمعوا عنده حتى مات، فبينما هم جلوس، إذ جاءهم الماجشون يستأذن عليهم وخبيب مسجّى بثوبه. وكان الماجشون مع عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة. فقال عبد الله بن عروة: ائذنوا له. فلما دخل قال: كأن صاحبكم في مرية من موته اكشفوا له عنه، فكشفوا عنه، فلما رآه الماجشون انصرف. قال الماجشون: فانتهيت إلى دار مروان، فقرعت الباب ودخلت فوجدت عمر كالمرأة الماخض قائماً وقاعداً فقال لي: ما وراءك فقلت: مات الرجل. فسقط على الأرض فزعاً ثم رفع رأسه

يسترجع فلم يزل يعرف فيه حتى مات. واستعفى من المدينة، وامتنع من الولاية. وكان كلما قيل له: إنك قد صنعت كذا فأبشر فيقول: كيف بخبيب، ولم يذكرها ويتصورها أمام عينه حتى مات, ومن الأدلة على صلاح عمر بن عبد العزيز وقت ولايته على المدينة غير ما ذكر: ما رواه أبو عمر مولى أسماء بنت أبي بكر قال: فأتيته في مجلسه الذي يصلي فيه الفجر والمصحف في حجره، ودموعه تسيل على لحيته. وحدّث ابن أبي الزناد عن أبيه، قال: كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير على المدينة إذا أراد أن يجود بالشيء قال: ابتغوا أهل بيت بهم حاجة.

ذكر ابن الجوزى: أن حَبس عمر رجلاً بالمدينة، وجاوز عمر في حبسه القدْرَ الذي يستحقه، فكلمه مزاحم في إطلاقه، فقال له عمر: ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو أكثر مما مرَّ، فقال: مزاحم (مغضبًا): يا عمر بن عبد العزيز، إني أحذرك ليلة تمخض بالقيامة وفي صبيحتها تقوم الساعة.. يا عمر، ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع "قال الأمير قال الأمير قال الأمير"، قال عمر: إن أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم، فوالله ما هو إلا أن قال ذلك، فكأنما كشف عن وجهي غطاء.

وفي سنة 91هـ أي في أثناء إمارته على المدينة المنورة، حج الخليفة الوليد بن عبد الملك، فاستقبله عمر بن عبد العزيز أحسن استقبال، وشاهد الوليد بأم عينيه الإصلاحات العظيمة التي حققها عمر بن عبد العزيز في المدينة المنورة.

ذكر ابن الجوزي أن عمر بن عبد العزيز قد استعفى من المدينة، ففي سنة 92هـ عقد الخليفة الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف الثقفي ليكون أميراً على الحج، ولما علم عمر بن عبد العزيز بذلك، كتب إلى الخليفة يستعفيه أن يمرَّ عليه الحجاج بالمدينة المنورة، لأن عمر بن عبد العزيز كان يكره الحجّاج ولا يطيق أن يراه لما هو عليه من الظلم، فامتثل الوليد لرغبة عمر، وكتب إلى الحجّاج: « إن عمر بن عبد العزيز كتب إليَّ يستعفيني من ممرك عليه، فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك، فتنحّ عن المدينة».

وقد كتب عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة إلى الوليد بن عبد الملك يخبره

عما وصل إليه حال العراق من الظلم والضيم والضيق بسبب ظلم الحجّاج وغشمه، مما جعل الحجّاج يحاول الانتقام من عمر، لاسيما وقد أصبح الحجاز ملاذاً للفارين من عسف الحجاج وظلمه، حيث كتب الحجّاج إلى الوليد: «إن من قبلي من مُرّاق أهل العراق وأهل الثقاف قد جلوا عن العراق، ولجأوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن»، فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حبان، وخالد بن عبد الله القسري، وعزل عمر عبد العزيز.

وقد كان ميول الوليد لسياسة الحجّاج واضحاً، وكان يظن بأن سياسة الشدة والعسف هي السبيل الوحيد لتوطيد أركان الدولة، وهذا ما حال بينه وبين الأخذ بآراء عمر بن عبد العزيز ونصائحه، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن ما كان يراه عمر أفضل مما كان يسير عليه الوليد، وذلك بعد تولي عمر الخلافة وتطبيقه لما كان يشير به.

قال الإمام مالك: لما عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة - يعني في سنة ثلاث وتسعين - وخرج منها التفت إليها وبكى وقال لمولاه: يا مزاحم، نخشى أن نكون ممن نفت المدينة - يعني أن المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد - وينصع طيبها.

قلت: خرج من المدينة فنزل بمكان قريب منها يقال له: السويداء حينا، ثم قدم دمشق على بني عمه. قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أبي حكيم، قال: سمعت عمر بن عبد العزيز، يقول: خرجت من المدينة وما من رجل أعلم مني، فلما قدمت الشام نسيت.

خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة المنورة وهو يبكي، ومعه خادمه مزاحم، فالتفت إلى مزاحم وقال: «يا مزاحم، نخشى أن نكون من نفت المدينة»، يشير بذلك إلى قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»

وسار عمر حتى وصل السويداء، وكان له فيها بيت ومزرعة، فنزل فيها فأقام مدة يرقب الأوضاع عن بعد، ثم رأى أن مصلحة المسلمين تقتضي أن تكون إقامته

في دمشق بجوار الخليفة، لعله بذلك يستطيع أن يمنع ظلماً أو يشارك في إحقاق حق، فانتقل إلى دمشق فأقام بها. ولم يكن عمر بن عبد العزيز على وفاق تام مع الخليفة الوليد بن عبد الملك، ولذلك فإن إقامته في دمشق بجوار الوليد لم تخلُ من مشاكل، فالوليد يعتمد في تثبيت حكمه على ولاة أقوياء قساة، يهمهم إخضاع الناس بالقوة وإن رافق ذلك كثير من الظلم، بينما يرى عمر أن إقامة العدل بين الناس كفيل باستقرار الملك وائتمارهم بأمر السلطان، فكان يقول: «الوليد بالشام، والحَجّاج بالعراق، ومحمد بن يوسف(أخو الحجّاج) في اليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك في مصر، امتلأت والله الأرض جوراً».

نصح عمر للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل سلك عمر بن عبد العزيز بعض الطرق والوسائل لإصلاح هذا الوضع، فمن ذلك نصحه للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل، وقد نجح في بادي الأمر في استصدار قرار يمنع أي والٍ من القتل إلا بعد علم الخليفة وموافقته على ذلك، فيذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز دخل على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عندي نصيحة، فإذا خلا لك عقلك، واجتمع فهمك فسلْني عنها، قال: ما يمنعك منها الآن؟ قال: أنت أعلم، إذا اجتمع لك ما أقول فإنك أحق أن تفهم، فمكث أياماً ثم قال: يا غلام من بالباب؟ فقيل له ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز، فقال: أدخله، فدخل عليه فقال: نصيحتك يا أبا حفص فقال عمر: إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وإن عمالك يقتلون، ويكتبون: إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا، وأنت المسؤول عنه والمأخوذ به، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحداً حتى يكتب بذنبه ثم يشهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك. فقال: بارك الله فيك يا أبا حفص ومنع فقدك. عليَّ بكتاب، فكتب إلى أمراء الأمصار كلهم فلم يحرج من ذلك إلا الحجّاج فإنه أمضه، وشق عليه وأقلقه. وظن أنه لم يكتب إلى أحد غيره، فبحث عن ذلك، فقال: من أين ذهبنا؟ أو من أشار على أمير المؤمنين بهذا؟ فأُخبر أن عمر بن عبد العزيز هو الذي فعل ذلك فقال: هيهات إن كان عمر فلا نقض لأمره. ثم إن الحجّاج أرسل إلى أعرابي حروري ـ من

الخوارج ـ جافٍ من بكر بن وائل، ثم قال له الحجّاج ما تقول في معاوية؟ فنال منه. قال: ما تقول في يزيد؟ فسبّه. قال: فما تقول في عبد الملك؟ فظلمه. قال: فما تقول في الوليد؟ فقال: أجْوَرُهم حين ولاك وهو يعلم عداءك وظلمك. فسكت الحجّاج وافترصها منه، ثم بعث به إلى الوليد وكتب إليه: أنا أحوط لديني، وأرعى لما استرعيتني، وأحفظ له من أن أقتل أحداً لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأي فشأنك وإياه. فدخل الحروري على الوليد وعنده أشراف أهل الشام وعمر فيهم، فقال له الوليد: ما تقول فيّ؟ قال ظالم جبّار. قال: ما تقول في عبد الملك؟ قال: جبّار عاتٍ. قال فما تقول في معاوية؟ قال: ظالم. قال الوليد لابن الريان: اضرب عنقه فضرب عنقه، ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده فقال: يا غلام، أرددْ عليّ عمر، فردّه عليه فقال: يا أبا حفص ما تقول بهذا؟ أصبنا أم أخطأنا؟ فقال عمر: ما أصبت بقتله، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب، كنت تسجنه حتى يراجع الله -عز وجل- أو تدركه منيته، فقال الوليد شتمني وشتم عبد الملك وهو حروري أفتستحل ذلك؟ قال: لعمري ما أستحله، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه، فقام الوليد مغضباً، فقال ابن الريان لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص، لقد راددت أمير المؤمنين حتى ظننت أنه سيأمرني بضرب عنقك، وهكذا احتار الحجّاج على الوليد ليصرفه على الأخذ برأي عمر في الحد من سرف الحجّاج وأمثاله في القتل.

ونذكر هنا ماورد من آخر مواقفه التي ذكرت لعمر بن عبد العزيز في عهد الوليد بن عبد الملك نصحه للوليد عندما أراد خلع أخيه سليمان والبيعة لابنه عبد العزيز من بعده، وقد أطاعه كثير من الأشراف طوعاً وكرهاً، فوقف عمر من ذلك موقفاً حازماً؛ فامتنع ولم يستجب لأمر الوليد في ذلك، وقال حين أراده على ذلك: يا أمير المؤمنين، إنما بايعنا لكما في عقدة واحدة، فكيف نخلعه ونتركك، وقال: " لسليمان في أعناقنا بيعة ". وصمم- فعرفها له سليمان -.

وغضب الوليد على عمر، وحاول استخدام الشدة معه لعله يوافقه على ما أراد، فيذكر أنه أغلق عليه الدار وطيّن عليه الباب حتى تدخلت أم البنين أخته وزوجة الوليد

ففتح عنه بعد ثلاث، وقد ذبل ومالت عنقه.

كان سليمان بن عبد الملك رحمه اللـه من أمثل الخلفاء في بنـي أميـة، نشر عَلَـم الجهاد، وجهّز مائة ألف برّاً وبحراً، فنازلوا القسطنطينية، واشتد القتال والحصـار عليهـا أكثر من سنة.

لم ينسي سليمان رحمه اللـه فعل عمر رضي اللـه عنه، فحفظ الجميل له وجعله كالوزير، وجعله فيما بعد خليفة من بعده، وفي نفس الوقت انـتقم مـن قـادة الفتـوح الذين أيدوا الوليد بن عبد الملك حـين أراد عزلـه عـن ولايـة العهـد. ومـن حسـن حـظ الحجاج أنه مات قبل تولي سليمان الخلافة، ولكن سليمان انتقم من آل الحجاج وبقيـة القادة مثل محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وعبد العزيز بن موسى بن نصير.

واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز مستشاراً ووزيراً وقال له: إنا قد ولينا ما ترى وليس لنا علم بتدبيره فما رأيت من مصلحة العامة فمر به، فليكتب.

وتهيـأت الفـرص لعمـر بـن عبـد العزيـز بقـدر كبـير، فظهـرت آثـاره في مختلـف الجوانب، فبمجرد تولي سليمان الخلافة قرّب عمرَ وأفسح له المجال واسعاً، حيث قـال: «يا أبا حفص، إنا ولينا ما قد ترى (ولم يكن بتدبيره علم) فما رأيتَ من مصلحة العامـة فمر به»، وجعله وزيراً ومستشاراً ملازماً له في إقامته وسـفره. وكـان سـليمان يـرى أنـه محتاج له في صغيره وكبيره، فكان يقول: «ما هو إلا أن يغيب عني هذا الرجل فما أجد أحداً يفقه عني».

وقال في موضع آخر: « يا أبا حفص، ما اغتممت بأمر ولا أكربني أمـر إلا خطـرت فيه على بالي »، وقد كان لعمر بن عبد العزيز أثر كبير على سليمان في إصدار عدد مـن القرارات النافعة، ومن أهمها: عزل ولاة الحَجّاج وبعض الولاة الآخرين، كوالي مكة خالد القسري البجلي،ووالي المدينة عـثمان بـن حيـان، والأمـر بإقامـة الصلاة في وقتهـا، فقـد أورد ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز: أن الوليد بن عبد الملـك كـان يـؤخر الظهـر والعصر، فلما ولي سليمان كتب إلى الناس عن رأي عمـر: إن الصـلاة كانـت قـد أميتـت فأحيوها. وهناك أمور أخرى أجملها الذهبي بقوله: «مع أمور جليلـة كـان يسـمع مـن عمر فيها».

وقدِم سليمان بن عبد الملك المدينة فأعطى بها مالاً عظيماً، فقال لعمر بن عبد العزيز: « كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟ »، قال: « رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل الفقر بفقرهم ». وخرج سليمان ومعه عمر إلى البوادي، فأصابه سحاب فيه برق وصواعق، ففزع منه سليمان ومن معه، فقال عمر:

« إنما هذا صوت نعمة، فكيف لو سمعت صوت عذاب؟ »، فقال سليمان: « خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها »، فقال عمر: « أوخير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ »، قال: « وما هو؟ »، قال: « قوم صحبوك في مظالم لم يصلوا إليك »، فجلس سليمان فردّ المظالم.

وأقبل سليمان بن عبد الملك ومعه عمر على معسكر سليمان، وفيه الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال سليمان: «ما تقول يا عمر في هذا؟»، قال: «أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً، وأنت المسؤول عن ذلك كله»، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غرابٌ قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبة، فقال له سليمان: « ما تقول في هذا يا عمر؟ »، فقال: « لا أدري »، فقال: « ما ظنك أنه يقول؟ »، قال: كأنه يقول: « من أين جاءت؟ وأين يذهب بها؟ »، فقال له سليمان: « ما أعجبك! »، فقال عمر: « أعجب مني من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه ».

ولما وقف سليمان وعمر بعرفة، جعل سليمان يعجب من كثرة الناس، فقال له عمر: « هؤلاء رعيّتُك اليوم، وأنت مسؤول عنهم غداً »، وفي رواية: « وهم خصماؤك يوم القيامة »، فبكى سليمان وقال: « بالله أستعين ».

وذكر الإمام مالك أن سليمان وعمر تقاولا مرة فقال له سليمان في جملة الكلام: كذبت، فقال: تقول كذبت؟ والله ما كذبت منذ عرفت أن الكذب يضر أهله، ثم هجره عمر وعزم على الرحيل إلى مصر، فلم يمكنه سليمان، ثم بعث إليه فصالحه وقال: له ما عرض لي أمر يهمني إلا خطرت على بالي.

وظل عمر بن عبد العزيز قريباً من سليمان طيلة مدة خلافته، يَحوطه بنصحه

ويشاركه مسؤولياته. قال ابن عبد الحكم :" وكان عمر بن عبد العزيز أعظم أموي ترفها وتملكا غذي بالملك، ونشأ فيه، لا يعرف إلا وهو تعصف ريحه فتوجد رائحته في المكان الذي يمر فيه، ويمشي مشية تسمى "العمرية" فكان الجواري يتعلمنها من حسنها، وتبختره فيها، وأنه ترك كل شيء كان فيه لما استخلف غير مشيته، فإنه لم يستطع تركها، فربما قال لمزاحم :ذكرني إذا رأيتني أمشي فيذكره فيخلطها، ثم لا يستطيع إلا إياها فيرجع إليها".

وبلغ عمر من رفاهيته قبل الخلافة أن الناس كانوا ينتظرون يوم أن تؤخذ ملابسه إلى المغسل، لتغسل ملابسهم بعد ملابسه حتى ينالها الكثير مما نزل منها من الطيب في الماء.

لكنه ترك كل هذا لحظة تولى الخلافة، ورأى أنه مسئول مسئولية كاملة أمام الله عن الدين وعن العباد بادئا بنفسه وأهله، راجيا أن ينجو من العقاب في آخرته.

اجتمع لعمر بن عبد العزيز من الصفات والمواهب ما جعله خليفة قديرًا نادر المثال، ينهض بمسئوليته على خير وجه، وشاء الله أن يعتليَ منصب الخلافة والدولة في أوج قدرتها وعظمتها، بعد أن مرّت بفترات عاصفة، وأوقات حَرِجة، وفتن مظلمة، وثورات مدمرة، لكن الدولة تجاوزت تلك المخاطر، وفرضت هيبتها وسلطانها؛ فعاد الأمن والاستقرار، واستؤنف الفتح الإسلامي، وضمت الدولة إلى أراضيها بقاعا شاسعة في الشرق والغرب، وحسبك أن تعلم أن عمر بن عبد العزيز ولي منصبه وجيوش مسلمة بن عبد الملك تحاصر القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية؛ فكان استقرار الدولة من أسباب ظهور أثر إصلاحات عمر، وسياسته الحكيمة الراشدة، وإدارته العادلة.

وكان عمر إداريًا عظيمًا، إلى جانب صلاحه وتقواه، وزهده وورعه، وهو ما امتلأت به كتب السِّيَر والتراجم حتى كادت تطغى هذه الأخبار على ملامح شخصيته الثرية بجوانبها الأخرى.

اقترح الفقيه رجاء بن حيوة الكندي على الخليفة سليمان بن عبد الملك في مرض موته أن يولي عمر بن عبد العزيز، قال ابن سيرين: " يرحم الله سليمان، افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز ".

وكان سليمان يريد أن يعهد بعده لابنه أيوب بدلاً من أخيه يزيد بن عبد الملك، ولكن مات ابنه أيوب، وفي النهاية استخلف عمر بن عبد العزيز على أن يكون بعده يزيد بن عبد الملك حتى لا ينقطع الحكم في نسل عبد الملك بن مروان.

وتعددت الروايات في قصة استخلاف سليمان لعمر، ومنها ما ذكره ابن سعد في طبقاته عن سهيل بن أبي سهيل قال: سمعت رجاء بن حيوة يقول: لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثياباً خضراً من خز، ونظر في المرآة فقال: «أنا والله الملك الشاب»، فخرج إلى الصلاة يصلي بالناس الجمعة فلم يرجع حتى وعك، فلما ثقل كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب، وهو غلام لم يبلغ، فقلت: «ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يُحفظ به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصالح»، فقال سليمان: « كتاب أستخير الله فيه وأنظر، ولم أعزم عليه»، فمكث يوماً أو يومين، ثم خرقه ثم دعاني، فقال: «ما ترى في داود بن سليمان؟»، فقلت: «هو غائب بقسطنطينية، وأنت لا تدري أحي هو أم ميت»، قال: «يا رجاء فمن ترى؟»، فقلت: «رأيك يا أمير المؤمنين وأنا أريد أن أنظر من يُذكر»، فقال: «كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟»، فقلت: «أعلمه والله فاضلاً خياراً مسلماً»، فقال: «هو على ذلك، والله لئن ولّيته ولم أولِّ أحداً من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده»، ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم، قال: « فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنه ويرضون به»، قلت: «رأيك»، فكتب بيده:

« بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني وليته الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيُطمع فيكم».

وختم الكتاب، فأرسل إلى كعب بن حامد صاحب الشرطة أن مُرْ أهل بيتي فليجتمعوا، فأرسل إليهم كعب فجمعهم، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: «اذهب بكتابي هذا إليهم، فأخبرهم أنه كتابي ومُرهم فليبايعوا من وليت». ففعل رجاء، فلما قال لهم ذلك رجاء قالوا: «سمعنا وأطعنا لمن فيه»، وقالوا: «ندخل فنسلم على أمير المؤمنين»،

قال: «نعم»، فدخلوا فقال لهم سليمان: «هذا الكتاب (وهو يشير لهم وهم ينظرون إليه في يد رجاء بن حيوة) هذا عهدي، فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب»، فبايعوا رجلاً رجلاً، ثم خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء... قال رجاء: وأجلست على الباب من أثق به وأوصيته أن لا يريم حتى آتيه، ولا يُدخل على الخليفة أحداً. فخرجت، فأرسلت إلى كعب بن حامد العنسي، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا في مسجد دابق فقلت: «بايعوا»، قالوا: «قد بايعنا مرة ونبايع أخرى!»، قلت: «هذا أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به، ومن سمى في هذا الكتاب المختوم»، فبايعوا الثانية رجلاً رجلاً، فلما بايعوا بعد موت سليمان رأيت أني قد أحكمت الأمر، قلت: «قوموا إلى صاحبكم فقد مات»، قالوا: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وقرأت عليهم الكتاب، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام: «لا نبايعه أبداً»، قلت: «أضرب والله عنقك، قم فبايع»، فقام يجر رجليه. وأخذت بضبعي عمر فأجلسته على المنبر، وهو يسترجع لما وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطأه، فلما انتهى هشام إلى عمر قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، أي حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك، فقال عمر: «نعم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار إلي لكراهتي له».

توفي سليمان بن عبد الملك بن مروان وهو مقيم بمرج دابق شمال مدينة حلب، وقيل: بذات الجنب يتابع الأخبار عن الجيش أثناء حصار القسطنطينية في(يوم الجمعة 10 من صفر 99 هـ)

يقول ابن كثير في البداية والنهاية " تعهد ألا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت؛ فمات هناك فحصل له بهذه النية أجر الرباط في سبيل الله".

كانت خلافته رحمه الله سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام، وغسل سليمان وكفن وصلى عليه عمر بن عبد العزيز ودفن. وكان نقش خاتمه: "آمنت بالله مخلصا".

ولما رجع من جنازة سليمان أتي بمراكب الخلافة ليركبها، فامتنع من ذلك، وأنشأ يقول : فلولا التقى ثم النهى خشية الردى لعاصيت في حب الصبا كل زاجر قضى ما

قضى فيما مضى ثم لا ترى له صبوة أخرى الليالي الغوابر.

ثم قال : ما شاء اللـه لا قوة إلا باللـه، قدموا إلي بغلتي. ثم أمر ببيع تلك المراكب الخليفية في من يريد، وكانت من الخيول الجياد المثمنة، فباعها وجعل أثمانها في بيت المال.

قالوا: فلما رجع من الجنازة، وقد بايعه الناس، واستقرت الخلافة باسمه، انقلب وهو مغتم مهموم، فقال له مولاه: ما لك هكذا مغتما مهموما، وليس هذا بوقت هذا؟ فقال: ويحك ! وما لي لا أغتم، وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني بحقه، أن أؤديه إليه، كتب إلي في ذلك أو لم يكتب، طلبه مني أو لم يطلب. قالوا: ثم إنه خير امرأته فاطمة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت وبكى جواريها لبكائها، فسمعت ضجة في داره، ثم اختارت مقامها معه على كل حال، رحمها اللـه. وقال له رجل : تفرغ لنا يا أمير المؤمنين. فأنشأ يقول :

قد جاء شغل شاغل وعدلت عن طرق السلامه

ذهب الفراغ فلا فراغ لنا إلى يوم القيامة

قال ابن سيرين: يرحم اللـه سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز.

روى أبو نعيم وغيره: أن عمر بن عبد العزيز لما دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من المقبرة؛ سمع للأرض هدَّةً أو رجَّة، فقال: ما هذه؟ قيل: هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين قربت إليك لتركبها، فقال: مالي ولها، نحوها عني وقربوا إلى بغلتي، فقربت إليه بغلته فركبها، فجاءه صاحب الشُّرَطِ يسير بين يديه بالحربة، فقال: تنح عني! إنما أنا رجل من المسلمين.

بويع عمر بالخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك وهو ابن عمه، فتسلم الخلافة سنة 99هـ.

***

يقول الإمام ابن كثير رحمه اللـه تعالى- : لما ولّ عمر ابن عبدالعزيز الخلافة جاء صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادته مع الخلفاء قبله، فقال له عمر: ما لي ولك؟ تنح عني إنما أنا رجل من المسلمين، ثم سار وساروا معه حتى دخل المسجد، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه، فقال : يا أيها الناس إني قد ابتُليت بهذا الأمر عن غير رأي مني فيه ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي, فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون، فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا ورضينا كلنا بك، وهكذا أراد عمر أن يطبق مبادئ الإسلام في اختيار الحاكم فأعلن أمام المسلمين أنه قد خلع ما في أعناقهم من بيعة، وترك الأمر شورى بينهم، لتكون البيعة إختيارا لا جبرا كما فعل الخلفاء من قبله.

فلما هدأت أصواتهم حمد اللـه وأثنى عليه وصعد الخليفة عمر بن عبد العزيز المنبر وقال في أول لقاء له مع الأمة بعد استخلافه:

« أيها الناس، إني قد ابتُليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم ». فصاح الناس صيحة واحدة: « قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فولِّ أمرنا باليمن والبركة»، وهنا شعر أنه لا مفر له من تحمل مسؤولية الخلافة، فأضاف قائلاً يحدد منهجه وطريقته في سياسة الأمة المسلمة:

أما بعد، فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل اللـه حلال إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاضٍ ولكني منفّذ، ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يُطاع في معصية اللـه، ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن اللـه جعلني أثقلكم حملاً.

أيها الناس، من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية، ولا يعترض فيما لا يعنيه.

أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء وليس من تقوى الله عز وجل خلف، واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أيها الناس! إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يجمعكم الله عز وجل فيه للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وشقي عبد أخرجه الله عز وجل من رحمته التي وسعت كل شيء، وجنته التي عرضها السماوات والأرض، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله تعالى وأتقى وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباق، وشقاوة بسعادة. ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلفه بعدكم الباقون؟

ألا ترون أنكم تشيعون في كل يوم غادياً رائحاً إلى الله تعالى قد قضى نحبه وانقطع أمله، فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد قطع الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب؟

هذه أول كلمات لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الذي أقبلت عليه الدنيا بخيلها وخيلائها فأعرض عنها رغبة في النعيم المقيم، ورهبة من الجحيم وحبا في مجاورة رب العالمين، كان من أحسن الناس سيرة، وأطيبهم سريرة!

ثم أردف يقول: وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيها صلى الله عليه وسلم، ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً، ولا أمنع أحداً حقاً. ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال:

يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. وإن من حولكم من الأمصار والمدن، فإن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا وليكم، وإن هم نقموا فلست لكم بوالٍ ثم نزل.

وكان من هذه القواعد والأسس قاعدةٌ كان لها الأثر الكبير في تكوين شخصيته وانطلاقته المباركة، ألا وهي الزهد في الدنيا، قاعدة التجرد المطلَق، والنزاهة في أروع

صورها!

وهكذا عُقدت الخلافة لعمر بن عبـد العزيـز في ذلـك اليـوم، وهـو يـوم الجمعـة لعشر خلون من صفر سنة 99هـ.

ثم نزل فدخل فأمر بالستور فهتكت، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء أمـر بهـا فبيعت، وأدخل أثمانها في بيت المال، ثم ذهب يتبوأ مقيلا فأتاه ابنه عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع؟ قال: يا بني أقيل، قال: تقيل ولا ترد المظالم إلى أهلها، فقال: إني سهرت البارحة في أمر سليمان فإذا صليت الظهر رددت المظالم، فقال له ابنه: ومن لك أن تعيش إلى الظهر؟ قال: ادن مني أي بني، فدنا منه فقبل بـين عينيـه وقـال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني. ثم قـام وخـرج وتـرك القائلـة، وأمر مناديه فنادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليـه رجـل ذمـي مـن أهـل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب اللـه، قال: ما ذاك؟ قال: العباس بـن الوليـد بن عبد الملك اغتصبني أرضي، والعباس جالس، فقال له عمر: يا عباس مـا تقـول؟ قـال: نعم ! أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد، وكتب لي بها سجلا، فقال عمر: ما تقـول يـا ذمـي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب اللـه تعالى، فقـال عمـر: نعـم كتـاب اللـــه أحـق أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته، فردهـا عليـه، ثـم تتـابع النـاس في رفـع المظالم إليه فما رفعت إليه مظلمة إلا ردها سواء كانت في يده أو في يد غيره، حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم مما كان في أيديهم بغير استحقاق, فكانت أولى خطوات عمر بن عبد العزيز نحو الحكم الرشيد.

تولى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيـز الخلافـة، فقـدمت عليـه الوفـود مـن كـل مكان تبايعه وتهنئه، ولبيان حاجاتهـا، فوفـد عليـه الحجـازيون، فتقـدم غـلام هاشـمي للكلام، وكان حديث السن، فقال عمر رضي اللـه عنه:- لينطلق من هو أسن منك.

فقال الغلام:- أصلح اللـه أمير المؤمنين، إنما المـرء بأصـغريه قلبـه ولسـانه، فـإذا مـنح اللـه عبداً لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً، فقد استحق الكلام وعرف فضله من سمع خطابه، ولو

أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك.

فقال عمر:- صدقت، قل ما بدا لك.

فقال الغلام:- أصلح الله أمير المؤمنين، نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة، وقد أتيناك لمنَّ الله الذي منَّ علينا بك، ولم يقدمنا إليك رغبة أو رهبة، أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا، وأما الرغبة فقد أمنا جورك بعدلك.

فقال عمر: عظني يا غلام، فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، إن ناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت بهم الأقدام فهووا في النار، فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك، فتزل قدمك، فتلحق بالقوم، فلا جعلك الله منهم، وألحقك بصالحي هذه الأمة، ثم سكت. فقال عمر: كم عمر الغلام، فقيل له: ابن إحدى عشرة سنة، ثم سأل عنه فإذا هو من ولد الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهم، فأثنى عليه خيراً، ودعا له، وتمثَّل قائلاً:

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهلُ

فإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذ التفت عليه المحافل

***

كان عمر كثيرا ما يحب أن يستمع الى موعظة من مواعظ العلماء ليعتبر, وكانت مواعظ الحسن البصري رحمه الله تروق له, وكان كثيرا ما يدعو للحسن البصري فيقول: رحم الله الحسن, فانّه من الاسلام بمنزل ومكان.

لما ولي عمر رضي الله عنه الخلافة كتب إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه الله: "اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفت كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقرّ. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب

الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كبارًا، يكتسب لهم في حياته، ويـدخر لهـم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المـؤمنين كـالأم الشـفيقة الـبرة الرفيقـة بولـدها، حملتـه كرهًا، ووضعته كرهًا، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسـكونه، ترضـعه تـارة وتفطمـه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغـتمّ بشـكايته، والإمـام العـدل يـا أمـير المـؤمنين وصى اليتـامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفسـاده. والإمـام العـدل يـا أمـير المـؤمنين هـو القائم بين اللـه وبين عبـاده، يسـمع كـلام اللـــه ويسـمعهم، وينظـر إلى اللـــه ويـريهم، وينقاد إلى اللـه ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فـيما ملّكـك اللـــه عـز وجـل كعبـد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق مالـه. و اعلم يا أمير المؤمنين أن اللـه أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيـف إذا أتاها من يليها! وأن اللـه أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم مـن يقـتص لهـم! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود لـه ولما بعده من الفزع الأكبر. و أعلم يا أمير المؤمنين أن لك منـزلاً غـير منزلـك الـذي أنـت فيـه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريدًا وحيدًا. فتزود له ما يصحبك "يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ.وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ.وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ" (عبس:34-36) وذكر يا أمير المؤمنين " أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْـثِرَ مَـا فِي الْقُبُـورِ. وَحُصِّـلَ مَـا فِي الصُّـدُورِ " (العاديـات:9-10)، فـالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصـاها. فـالآن يـا أمـير المـؤمنين وأنـت في مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكـم يـا أمـير المـؤمنين في عبـاد اللـــه بحكـم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقـالاً مـع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبـات في دنيـاهم بإذهـاب طيباتك في آخرتك. ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غـدًا وأنـت مأسـور في حبائل الموت، وموقوف بين يدى اللـه في مجمع من الملائكة النبيـين والمرسـلين، وقد عنت الوجوه للحى القيوم. إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلـغ بعظتـي مـا بلغـه

أولو النهى من قبلي، فلم آلك شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمـداوي حبيبـه يسـقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المـؤمنين ورحمة الـلـه وبركاته.

قال ابن القيم: كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز أما بعـد : فـإن الـدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، إنما أُنـزل إليهـا آدم عليـه السـلام عقوبـة فاحـذرها يـا أمـير المؤمنين فإن الزاد منها تركها والغنى فيها فقرها، لها في كـل حـين قتيـل، تُـذل مـن أعزهـا وتُفقِر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فكن فيها كالمداوي جراحـه يحتمي قليلا مخافة ما يكره طويلا ويصبر على شدة الـدواء مخافـة طـول الـبلاء، فاحـذر هذه الدار الغرَّارة الخدَّاعة الخيَّالة التـي قـد تزينـت بخـدعها وفتنـت بغرورهـا وختلـت بآمالها وتشوفت لخطابها، فأصبحت كـالعروس المجلـوة، فـالعيون إليهـا نـاظرة والقلـوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهي لأزواجها كلهـم قاتلـة، فعاشـق لهـا قـد ظفـر منهـا بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد فشغل بها لبه حتى زلت عنهـا قدمـه فعظمـت عليهـا ندامته وكثرت حسرته واجتمعت عليه سكرات الموت وألمـه وحسرات الفَـوت، وعاشـق لم ينل منها بغيته فعاش بغصته وذهب بكمده ولم يدرك منها مـا طلـب ولم تسـترح نفسـه من التعب فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد فكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه وصل الرخاء منها بـالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء، سرورها مشوب بالحزن أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر وعيشها نكد، فلو كان ربنا لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت قـد أيقظـت النـائم ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الـلـه فيها واعظ وعنها زاجر، فمالها عند الـلـه قـدر ولا وزن ولا نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحهـا وخزائنهـا لا ينقصـها عنـد الـلـه جناح بعوضة فأبى أن يقبلها كره أن يحب ما أبغض خالقه أو يرفع مـا وضـع مليكـه، فزواها عن الصالحين اختيارا وبسطها لأعدائه اغترارا، فيظن المغرور بهـا المقتـدر عليهـا أنـه أكرم بها ونسى ما صنع الـلـه عز وجل برسوله حين شد الحجـر عـلى بطنـه، وقـال الحسـن أيضـا : إن قومـا أكرمـوا الـدنيا فصـلبتهم عـلى الخشـب، فأهينوهـا فأهنـأ مـا تكـون إذا

أهنتموها وهذا باب واسع، وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنـواع الألم في طلبها، ولما كانت هي أكبر همّ مـن لا يـؤمن بـالآخرة ولا يرجـو لقـاء ربـه كـان عذابه بها بحسب حرصه عليها وشدة اجتهاده في طلبهـا، وإذا أردت أن تعـرف عـذاب أهلها بها فتأمل حال عاشق فان في حب معشوقه وكلما رام قربا من معشوقه نأى عنه ولا يفي له ويهجره ويصل عدوه فهو مع معشوقه في أنكد عـيش يختـار المـوت دونـه، فمعشوقه قليل الوفاء كثير الجفاء كثير الشركـاء سريـع الاسـتحالة عظـيم الخيانـة كثـير التلون لا يأمن عاشقه معه على نفسه ولا على ماله، مع أنه لا صبر له عنه ولا يجد عنه سبيلا إلى سلوى تريحه ولا وصال يدوم له، فلـو لم يكـن لهـذا العاشـق عـذاب إلا هـذا العاجل لكفى به، فكيف إذا حيل بينه وبين لذاتـه كلهـا وصـار معـذبا بـنفس مـا كـان ملتذا به على قدر لذته به التي شغلته عن سعيه في طلب زاده ومصالح معاده.

عن شبيب بن بشر، قال: كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى فقهاء العراق أن يأتوه فمرض الحسن البصري بفتق في بطنه وبـدلا مـن أن يـذهب إليـه مـع فقهـاء العراق كتب إليه يقول:

"يا أمير المؤمنين إن استقمت استقاموا وإن ملت مالوا.يا أمير المـؤمنين لـو أن لـك عمر نوح وسلطان سليمان ويقين ابراهيم وحكمة لقمان ما كان لك بد مـن أن تقـتحم العقبة أو النار من أخطأته هذه دخل هذه".

فلما أتاه الكتاب فوضعه على عينيه وبكى ثم قـال: "كيـف لي بعمـر نـوح ويقـين ابراهيم وسلطان سليمان وحكمة لقمان؟ ولو قلـت ذلـك لم يكـن لي بـد مـن أن أشرب بكأس الأولين".

وأيضا من مواعظ الحسن البصري له :

أما بعد, يا أمير المؤمنين! ان استقمت استقاموا, وان ملت مالوا, ولو كان لك عمـر نوح, وملك سليمان, ويقين ابراهيم, وحكمة لقمان, فانّ أمامك هول الموت, ومن وراءه داران, ان أخطأتك هذه, صرت الى هذه, وما كان لك يد مـن أن تقـتحم العقبـة, ومـن

وراء العقبة الجنة والنار, من أخطأته هذه, دخل هذه.

موعظة طاووس رحمه اللـه: سلام عليك يا أمير المؤمنين! فانّ اللـه عزوجل أنـزل كتابا, وأحل فيه حـلالا, وحـرم فيـه حرامـا, وضرب فيـه أمثـالا, وجعـل بعضـه محكـما وبعضه متشابها, فأحل حلال اللـه, وحرم حرام اللـه, وتفكر في أمثـال اللــه, واعمـل بمحكمه, وآمن بمتشابهه, والسلام عليك.

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز الخلافة, دخل عليه سالم بن عبد اللـه ومحمـد بن كعب, وهو مكتئب حزين, فأقبل على أحدهما فقـال عظنـي, فوعظـه سـالم رحمـه اللـه, فقال: يا أمير المـؤمنين! ان اللــه لم يجعـل أحـدا مـن خلقـه فوقـك, فـلا تـرض لنفسك أن يكون أحد من خلقه أطوع له منك, واجعل الناس أصنافا ثلاثة: الكبير بمنزلة الأب, والوسط بمنزلة الأخ, والصغير بمنزلة الولد, فبر أباك, وصـل أخـاك, واعطـف عـلى ولدك, واعلم أنك لست أول خليفة يموت.

ثم أقبل على محمـد بـن كعـب رحمـه اللــه وقـال لـه عظنـي؟ فقـال: يـا أمـير المؤمنين! انّ الدنيا عطن مهجور, وأكل منزوع, وعرض بلاء, ومسـتقر آفـات يحـيط بهـا الذل ويفنيه الشكل, لكل فرحة منها ترحة, ولكل سرور منهـا غـرور, وقـد رغـب عنهـا السعداء, وانتزعت من أيدي الأشقياء, فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه, يصـبر على شدة الدواء لما يرجو من الشفاء.

فبكى عمر رحمه اللـه وقال: لا حول ولا قوة الا باللـه.

وقال خادمه مزاحم رحمه اللـه: يا عمر بـن عبـد العزيـز! اني أحـذرك مـن ليلـة تمخض بالقيامة, في صبيحتها تقوم الساعة, يا عمر! ولقد كدت أنسى اسمك مـما أسـمع قال الأمير, قال الأمير.

الفصل الثالث

تنظيم الولايات واختيار الولاة والقضاة

جاءته الخلافة دون أن يسعى لها عمر بن عبد العزيز وكان كارها لها إذ أوصى له بها سليمان بن عبد الملك بناء على مشورة من العالم الجليل "رجاء بن حيوة الكندي" الذي كان مقرباً من سليمان يأتمنه ويأخذ برأيه.

وحين آلت الخلافة إليه لم يسر على نهج سلفه سليمان رحمه الله، ولم يقبل على الدنيا واتخذ من سيرة جده عمر بن الخطاب مثلاً يحتذي به ويسير على هديه، فاعتمد على الفقهاء وقربهم إليه، وجعل للقاضي منزلة رفيعة في المشورة وأخذ الرأي، وكانت الدولة في رأيه لا تصلح إلا بأركانها الأربعة: الوالي، والقاضي، وصاحب بيت المال، والخليفة، وفي هذا يقول: " إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها، فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا ".

عرف عمر أهمية العلماء الربانيين وعلو مكانتهم، وأنه يجب على صاحب القرار أن يدنيهم ويقربهم منه ويشاورهم في أمور الرعية، من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن للمصالح وتقليل ما يمكن من المفاسد. كما أن عمر بن عبد العزيز لم يقتصر في شوراه على هؤلاء فحسب، بل كان يستشير غيرهم من علماء المدينة، كسعيد بن المسيِّب، والزهري، وغيرهم. وكان لا يقضي في قضاء حتى يسأل سعيد، ففي المدينة أظهر عمر عبد العزيز إجلاله للعلماء وإكباره لهم.

***

إن نجاح الخلافة والدولة لا تنحصر في الخليفة أو الأمير؛ بل لابد أن يكون حوله

رجال أقوياء أتقياء علماء أمناء، وإن كان تَجَمُّعُ الرجـال الأقويـاء في الدولـة و الخلافـة منحصرًا في وجود خليفة و أمير صالح عاقل عالم؛ لأن خبرة معادن الرجال تتوقـف عـلى فهم وتقوى الأمير و صلاحه. ثم تحمل مثل هؤلاء الأجـلاد في داخـل الخلافـة و الدولـة أمر ثقيل وحمل لا يقدر عليه كل أحد؛ لأن التعامل مع الصقر و الأسد أصـعب بكثـير من التعامل مع الغـراب و الثعلـب، فـإن الأول لا يـرضى إلا بـالنفيس، و الثـاني يُرْضِـيْهِ الخسيس.

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى اللـه عليه وسلم قال " ما بعث اللـه مـن نبي ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشروتحضه عليه، فالمعصوم من عصم اللـه تعالى ". (رواه البخاري)

وعن عائشة رضي اللـه عنها قالتْ: قالَ رسولُ اللـه - صلى اللـه عليـه وسـلم -: "إِذَا أرَادَ اللـه بالأمِيرِ خَيْراً، جَعَلَ لَهُ وزيرَ صِـدقٍ، إنْ نَسي ذكَّـرهُ، وَإن ذَكَـرَ أعَانَـهُ، وَإذا أَرَاد بهِ غَيرَ ذَلِكَ جعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إنْ نَسي لَمْ يُـذَكِّره، وَإن ذَكَـرَ لَـمْ يُعِنْـهُ". رواه أَبُـو داود بإسنادٍ جيدٍ عَلَى شرط مسلم.

وقال الكرماني " يحتمل أن يكون المراد بالبطانتين النفس الأمارة بالسـوء والـنفس اللوامة المحرضة على الخير " إذ لكل منهما قوة ملكية وقـوة حيوانيـة انتهـى. والحمـل على الجميع أولى إلا أنه جائز أن لا يكون لبعضهم إلا البعض, وقال الطبري " البطانـة : الأولياء والأصفياء " وهو مصدر وضع موضع الاسم يصدق على الواحد والاثنين والجمع مذكرا ومؤنثا.

وتتجلى قيمة المضمون الخِطابي النبوي في التحـذيرِ مـن بطانـة السـوء، وكـأن ولي الأمر إذا عصم من شرهـا فقـد عُصِـمَ مـن الشر كلـه، ثـم في بيـان طريـقِ ولي الأمـر في الاستقامة أو الزيغ، بناء على استجابَتِه لأي من الفريقين. وقد سـاق النبـي صـلى اللــه عليه وسلم تلك الحقائق الجليلة بأسلوب بديع موجز، فيه ثلة من الحَقائقِ المذكورة في الأثار السابقة.

ومن ذلك المنهج النبوي علم عمر بأن الحمل ثقيل، ولن يقوى عليه بمفـرده وأنـه

لابد من جماعة مؤثرة في القرار السياسي والتي تستمد قوتها وعلاقتها وتفاعلاتها مع دور الاقيادة، فأدنى الصالحين والعباد فجعلهم بطانته، وطلب منهم أن يوفوه ويبصروه بعيوبه، يقول لهم: لقد توليت أمر أمة محمد - صلى اللـه عليه وسلم - فأعينوني، فكتب له أحدهم: صم هذا اليوم يا عمر ! ولا تفطر حتى تلقى اللـه.

وكتب له مطرف بن عبد اللـه : يا أمير المؤمنين! لو كان لك خصم لدود لأعجزك، فكيف بخصمين؟ كيف بثلاثة؟ كيف وخصمك يوم القيامة أمة محمد صلوات ربي وسلامه عليه؟!

جمع سبعة من الصالحين وقال: أنتم جلسائي كل ليلة، لكني أشترط عليكم شروطاً ثلاثة - ليتنا اشترطنا هذه الشروط في مجالسنا، اسمعوا وبلغوا هذه الشروط، فرب مبلغ أوعى من سامع:-

أولها: لا تغتابوا، ولا تعيبوا في مجلسي أحداً.

ثانيها: لا تتحدثوا في الدنيا.

ثالثها: لا تمزحوا وأنا جالس أبداً.

فكانوا يجتمعون بعد العشاء، فيتحدثون في الموت وما بعده، ثم ينفضون عن مجلسهم، وكأنهم انفضوا عن جنازة.

كتب له أثناء خلافته سالم بن عبد اللـه بن عمر كتاباً شديداً يقول فيه: يا أمير المؤمنين! لقد تولى الملك قبلك أناس ثم صرعوا وهاهي مصارعهم، فانظر إليها لترى، كانوا ينظرون إلى اللذات بعيون فأكلت، ويأكلون ببطون فنهشت، ويتلفتون بخدود أكلها الدود، فاحذر أن تحبس في جهنم يوم أن يطلق العادلون، فلما قرأ ذلك انهد باكياً قائلاً: اللـهم لا تجعلني مع المحبوسين يوم أن يطلق العادلون.

ومن حسن اختياره: أنه قرب الصالحين والعباد، فجعلهم بطانته، وطلب منهم أن يوصوه ويبصروه بعيوبه، يقول لهم: لقد توليت أمر أُمَّة محمد-صلى اللـه عليه وسلم- فأعينوني. جمع سبعة

من الصالحين، وقال: أنتم جلسائي كل ليلة، لكني أشترط عليكم شروطًا ثلاثة:

أولها: لا تغتابوا ولا تعيبوا في مجلسي أحدًا.

وثانيها : لا تتحدثوا في أمر الدنيا. وثالثها: ألا تمزحوا وأنا جالس أبدًا. فكانوا يجتمعون بعد العشاء فيتحدثون في الموت وما بعده، ثم ينفضون من مجالسهم وكأنما انفضوا عن جنازة.

استدعى (مزاحمًا) يوم أن تولى الخلافة فقال: يا مزاحم: لقد رأيتك تُصلِّي الضحى في شِعب من الشعاب لا يراك فيه إلا الله فأحببتك في الله، فكن عوني على نفسي، إذا رأيتني ظلمت فخذ بتلابيبي وقل: اتق الله يا ابن عبد العزيز.

وكتب له أثناء خلافته سالم بن عبد الله كتابًا شديدًا يقول فيه: يا أمير المؤمنين لقد تولى الملك قبلك أناس ثم صُرِعُوا وهاهي مصارعهم، فانظر إليها لترى، كانوا ينظرون بعيون إلى اللذات فأُكلت، ويأكلون في بطون فَنُهِشَتْ، ويميدون بخدود أكلها الدود، فاحذر أن تكون مع المحبوسين في جهنم يوم يُطلق العادلون. فلما قرأ ذلك تنهد باكيًا، قائلا: اللهم لا تجعلني مع المحبوسين يوم يُطلق العادلون.

ومن ذلك تضييقه على نفسه، قال أبو أمية الخصمي غلام عمر: دخلت يوماً على مولاتي فغدّتني عدساً، فقلت: كل يوم عدس؟ قالت: يا بني هذا طعام مولاك أمير المؤمنين. رأى أمير المؤمنين خادماً له يسحب برذونه، فسأله : كيف حال الناس؟ فأجابه: كل الناس في راحة إلا أنت وأنا وهذا البرذون.

ومن نتائج هذا العدل: أن جمعت الزكوات فلم يوجد لها مستحقون، ومن ذلك أيضا: ما روي عن الحسن القصاب أنه قال: رأيت الذئاب ترعى مع الغنم في البادية في خلافة عمر بن عبد العزيز فقلت :سبحان الله ذئب مع غنم لا يضرها؟ فقال الراعي: إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس. وقال مالك بن دينار : لما ولي عمر بن عبد العزيز قالت رعاء الشاء: من هذا الصالح قام على الناس خليفة؟ عدله كف الذئاب عن شائنا.

قبل أن يلي عمر الخلافة تمرس على الإدارة واليا وحاكما واقترب من صانعي القرار كوزير ومستشار للخليفة ورأي عن كثب كيف تدار شئون الدولة، وراعية مصالحها وخبر الأعوان والمساعدين, فلما تولى الأمر كان لديه من عناصر الخبرة والتجربة ماتعينه على تحمل المسئولية والقيام بمباشرة مهام الخلافة دون عناء، فهو يعرف الداء والدواء.

وقد تميزت خلافة عمر بن عبد العزيز بعدد من المميزات، أهمها: العدل.. قال شعيب: حدثت أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فقال: يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غداً إذا سألك فقال رأيت بدعة فلم تمتها أو سنة فلم تحيها فقال أبوه: رحمك الله وجزاك من ولد خيراً يا بني إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة ومتى أردت مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا علي فتقاً يكثر فيه الدماء والله لزوال الدنيا أهون علي من أن يراق في سببي محجمه من دم أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة؟

عاش عمر عيشة الفقراء، كان يأتدم خبز الشعير في الزيت، وربما أفطر في الصباح بحفنة من الزبيب، ويقول لأطفاله: هذا خير من نار جهنم.

يذهب فيصلي بالمسلمين، فكان أول مرسوم اتخذه، عزل الوزراء الخونة الظلمة الغشمة، الذين كانوا في عهد سليمان، استدعاهم أمامه وقال لشريك بن عرضاء: اغرُب عني يا ظالم رأيتك تُجلس الناس في الشمس، وتجلد أبشارهم بالسياط، وتُجوّعهم وأنت في الخيام والإستبرق.

واستدعى الآخر وقال: اغرب عني والله لا تلي لي ولاية، رأيتك تقدم دماء المسلمين لسليمان بن عبد الملك. ثم عيّن وزراءه وأمراءه من علماء وصُلَحاء المسلمين.

وكتب إلى علماء العالم الإسلامي رسالة، إلى من؟ إلى الحسن البصري، ومُطرّف بن عبد الله بن الشّخِّير، وسالم بن عبد الله بن عمر؛ أن اكتبوا لي كتبًا انصحوني وعِظوني، قبل أن ألقى الله ظالماً، فكتبوا له رسائل، تتقطع منها القلوب، وتشيب لها الرؤوس.

كتب له الحسن: يا أمير المؤمنين صم يومك، لتفطر غدًا. وقال سالم: يا أمير

المؤمنين، إنك آخر خليفة تولَّى، وسوف تموت كما مات من قبلك. وخوّفوه ووعدوه. وجعل سُمَّاره سبعة من العلماء، يسمرون معه بعد صلاة العشاء، واشترط عليهم ثلاثة شروط:

الشرط الأول: ألا يُغتاب مسلم.

الشرط الثاني: ألا يُقدِّموا له شِكاية في مسلم، التقارير المخزية في أعراض المسلمين، وفي كلمات المسلمين، ومجالس المسلمين، أبى أن تُعرض عليه أو تُرفع إليه.

الشرط الثالث: ألا يمزح في مجلسه، إنما يذكرون الآخرة وما قرب منها، فكان يقوم معهم، وهم يبكون، كأنهم قاموا عن جنازة.

كان عمر يرى أن المسؤولية تتمثل بالقيام بحقوق الناس، والخضوع لشروط بيعتهم، وتحقيق مصلحتهم المشروعة، فالخليفة أجير عند الأمة وعليه أن ينفذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة.

وقد أحب الاستزادة في فهم صفات الإمام العادل وما يجب أن يقوم به ليتصف بهذه الخصلة، فكتب إلى الحسن البصري يسأله عن ذلك، فأجابه الحسن: "الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده؛ يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتب لهم في حياته، ويدخرهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى وخازن المساكين، يربي صغيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده. والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين اللـه وبين عباده، يسمع كلام اللـه ويُسمعهم، وينظر إلى اللـه ويريهم، وينقاد إلى اللـه ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك اللـه كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدَّد وشرَّد العيال، فأفقر أهله وفرَّق ماله".

وقد أحبّ عمر أهل البيت وأعاد إليهم حقوقهم، وقال مرة لفاطمة بنت علي بن

أبي طالب: «يا بنت علي، والـلـه ما على ظهر الأرض أهل بيت أحبّ إليَّ مـنكم، ولأنـتم أحب إليَّ من أهل بيتي».

كانت سياسة عمر التوزيعية تهدف على إيصال الناس إلى حد الكفاية، من خـلال زيادة الإنفاق على الفئات الفقيرة والمحرومة ورعايتها وتأمين مستوى الكفاية لهـا عــن طريق الزكاة وموارد بيت المال الأخرى, ويلاحظ ذلك مـن خطبـه، فقـد خطـب النـاس يومًا فقال " وددن أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوي نحن وهم وأكون أنا أولهم " وفي خطبة أخرى يقول " ما أحد منكم تبلغني حاجته إلا حرصـت أن أسدَّ من حاجته ما قدرت عليه وما أحد لا يسـعه مـا عنـدي إلا وددت أنـه بُـدِئ بــي وبلحمتي الذي يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم " وقد ظهر ذلك عمليا عندما أمر بقضاء دين الغارمين، عندما كتب إليه عامله على الصدقات: إنا نجد الرجل له المسـكن والخادم، وله الفرس والأثاث في بيته، " فأجاب عمر " لا بدَّ للرجل مـن المسـلمين مـن مسكن يأوي إليه رأسه وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيتـه، فهو غارم فاقضوا عنـه، فسياسـة عمـر التوزيعيـة تهـدف إلى كفايـة النـاس مـن حيـث المسكن والمركب والأثاث، وهي حاجات يرى أنها أساسـية، وضروريـة للإنسـان تصـعب الحياة بدونها.

استطاع الخليفة العادل أن يسيطر على زمام أمور الـبلاد مـن مشرقهـا الى مغربهـا ومن شمالها الى جنوبها في فترة يسيرة لم تتجاوز الثلاثين شهرا.

فلم يغمض للخليفة جفن عن أمور الرعية بل فتح الأبـواب عـلى مصرعيهـا لسـماع أخبارهم: فقد كان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحدًا من النـاس إذا خـرج كتابًـا إلا حمله، فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابًا تذكر فيـه أنَّ لها حائطًا قصيرًا، وأنه يُقتحم عليهـا فـيُسرق دجاجهـا، فكتـب: "بسـم اللـه الـرحمن الرحيم، من عبد اللـه أمير المؤمنين إلى فرتونة السـوداء مـولاة ذي أصـبح، بلغنـي كتابـك وما ذكرتي من قصر حائطك وأنه يُدخل عليك فيُسرق دجاجك، فقد كتبت كتابًا إلى أيـوب بن شرحبيل- وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها- آمره بأن يبني لك ذلـك يُحصـنه لك مما تخافين إن شاء اللـه"، وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: " مـن عبـد اللــه عمـر أمـير

المؤمنين إلى ابن شرحبيل، أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت تذكر قصر حائطها، وأنه يُسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تُحصنه لها، فلمَّا جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، وإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصَّنه لها ".

قدمت امرأة من العراق على الخليفة عمر بن عبد العزيز فلمَّا صارت إلى بابه قالت: هل على أمير المؤمنين حاجب؟ فقالوا: لا فلجي إن أحببت، فدخلت المرأة على فاطمة وهي جالسة في بيتها، وفي يدها قطن تُعالجه، فسلَّمت فردت عليها السلام وقالت لها: ادخلي، فلما جلست المرأة رفعت بصرها ولم تر شيئًا له بال، فقالت: إنما جئتُ لأُعمِّر بيتي من هذا البيتِ الخرب. فقالت لها فاطمة: إنما خَرِبَ هذا البيت لِعمارة بيوتِ أمثالك، قال: فأقبل عمر حتى دخل الدار، فمال إلى بئرٍ في ناحية الدار فانتزع منها دلاء فصبها على طين كان بحضرة البيت- وهو يكثر النظر إلى فاطمة- فقالت لها المرأة: استتري من هذا الطيّان فإني أراه يُديم النظر إليك، فقالت: ليس هو بطيان، هو أمير المؤمنين. قال: ثم أقبل عمر فسلَّم ودخل بيته، فمال إلى مصلى كان له في البيت يُصلي فيه، فسأل فاطمة عن المرأة، فقالت: هي هذه، فأخذ مكتلاً له فيه شيء من عنب فجعل يتخير لها خيره يناولها إياه ثم أقبل عليها وقال: ما حاجتك؟ فقالت: امرأة من أهل العراق لي خمس بنات كُسْلٌ كُسْد، فجئتك أبتغي حسن نظرك لهنَّ، فجعل يقول: كسل كسد، ويبكي، فأخذ الدواة والقرطاس فكتب إلى والي العراق، فقال: سمي كبراهنّ، فسمتها ففرض لها، فقالت المرأة: الحمد لله، ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة، والمرأة تحمد الله ففرض لها، فلما فرض للأربعة استفزها الفرح فدعت له فجزته خيراً، فرفع يده وقال: كنا نفرض لهنَّ حيث كنت تُولين الحمد أهله، فمري هؤلاء الأربع يفضنّ على هذه الخامسة. فخرجت بالكتاب حتى أتت به العراق، فدفعته إلى والي العراق، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاؤه، وقال: رحم الله صاحب هذا الكتاب، فقالت: أمات؟ قال: نعم، فصاحت وولولت، فقال: لا بأس عليك، ما كنت لأرد كتابه في شيء، فقضى حاجتها وفرض لبناتها.

خرج عمر بن عبد العزيز ذات يوم راكبًا ليعرف أخبار البلاد، فقابله رجل من المدينة المنورة فسأله عن حال المدينة، فقال: إن الظالم فيها مهزوم، والمظلوم فيها ينصره الجميع، وإن الأغنياء كثيرون، والفقراء يأخذون حقوقهم من الأغنياء، ففرح عمر فرحًا شديدًا وحمد الله، وهكذا رجل من ولد (زيد بن الخطاب)، يقول: (إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفًا، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، يبحث عمن يعطيه فما يجد، فيرجع بماله، قد أغنى الله الناس على يد عمر).

روي عن يحيى بن سعيد قال: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية، فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيراً، ولم نجد من يأخذها مني، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقاباً، فأعتقتهم، وولاؤهم للمسلمين.

هذا وعمر نفسه- وهو أمير المؤمنين- لم يكن له في بيته غير الثوب الذي على بدنه، فإذا أراد غسله انتظر حتى يجف، فيعود إلى لبسه، ويخرج به إلى الناس.

وروى معاصره سعيد بن سويد أن رجلاً من القوم لم يطق الصبر على هذا الحال فقال لعمر: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك، فلو لبست وصنعت!فنكس عمر رأسه مليَّاً حتى عرفنا أنَّ ذلك قد أساءه، ثم رفع رأسه وقال: إنَّ أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند القدرة.

رحمك الله ياعمر.. أنصفت الفقير.. وأطعمت المسكين.. وكفلت اليتيم.. وفككت الأسير.. فبالله عليك ماذا تركت للحكام من بعدك من حجج.

***

كان عمر قد جمع جماعة من الفقهاء والعلماء وقال لهم: "إني قد دعوتكم لأمر هذه المظالم التي في أيدي أهل بيتي، فما ترون فيها؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين : إن ذلك أمرًا كان في غير ولايتك، وإن وزر هذه المظالم على من غصبها"، فلم يرتح عمر إلى قولهم وأخذ بقول جماعة آخرين منهم ابنه عبد الملك الذي قال له: أرى أن تردها إلى أصحابها ما

دمـت قـد عرفـت أمرهـا، وإنـك إن لم تفعـل كنـت شريكـا للـذين أخـذوها ظلـما. فاستراح عمر لهذا الرأي وقام يرد المظالم إلى أهلها.

نكث عمر بن عبد العزيز أعمال أهل بيته وسماها مظالم، وبدأ برد المظالم بنفسه، روى ابن سعد: لما رد عمر بن عبد العزيز المظالم قال: « إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول مـن نفسي»، فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع، فخرج منـه حتـى نظـر إلى فـص خـاتم، فقال: « هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب »، فخرج منه. وقد بلغ به حرصه على التثبت أنه نزع حلي سيفه من الفضـة، وحـلاه بالحديـد، قال عبد العزيز بن عمر: «كان سيف أبي محلى بفضة فنزعها وحلاه حديدا».

وكان خروجه مما بيده من أرض أو متاع بعدة طرق كالبيع، فلـما اسـتخلف نظـر إلى ما كان له من عبد، وإلى لباسه وعطره وأشياء من الفضول، فباع كل ما كان به عنـه غني، فبلـغ ثلاثـة وعشريـن ألـف دينـار، فجعلـه في السـبيل. أو عـن طريـق ردهـا إلى أصحابها الأصليين، وهذا ما فعله بالنسبة للقطائع التي أقطعه إياها قومـه، كـما أرجـع عمر للرجل المصري أرضه بحلوان بعد أن عرف أن والده عبد العزيـز قـد ظلـم المصري فيها، وحتى الدار التي كان والده عبد العزيز قد اشتراها من الربيـع بـن خارجـة الـذي كان يتيماً في حجره، ردها عليه، لعلمه أنه لا يجوز اشتراء الولي ممن يلي أمره.

ثم التفت إلى المال الذي كان يأتيه من جبل الورس بـاليمن، فـرده إلى بيـت مـال المسلمين مع شدة حاجة أهله إلى هذا المال، كما أمر مولاه مزاحماً برد المال الـذي كـان يأتيه من البحرين كل عام إلى مال اللـه. وقال أرطأة بـن المنـذر: قيـل لعمـر بـن عبـد العزيز: لو اتخدت حرساً واحترزت في طعامك وشرابك فقال: اللـهم إن كنـت تعلـم أني أخاف شيئاً دون يوم القيامة فلا تؤمن خوفي.

ففي الخلافة الراشدة لم تكن هناك أموال واقطاعات مخصصة للأسر الحاكمة لعـدم وجود أسر حاكمة أصلا، فكانت هذه الأموال تذهب للأمة لأن الأسرة الحاكمة هـي الأمـة كلها والحاكم من الأمة كلهـا، إلا أنـه بعـد تخصـيص الحكـم في أسرة معينـة كمثـل حـال

القيصرية أو الكسروية، وهي هنا الأسرة الأموية وتخصيص أموال وقطائع لهم أضاع على الأمة الكثير من حقوقها والتي تكفى لإطعام ملايين الجائعين من المسلمين لتنفق على بضع مئات من الأسرة الحاكمة والتي أيضا لا تقتصد بل سمتها الإسراف.

والمشكلة الأكبر أنها قد لا ترضى بما لديها حتى تعتدي على ما لدى غيرها عن طريق الظلم والعسف، أدرك عمر بن عبد العزيز ذلك، فأراد القيام بتجريد الأسرة الحاكمة من كل ما لها من امتيازات تحت مسمى بيت الخلافة، فلما أبوا قال لهم في حزم " إن لله من بنى مروان يوما وقيل -ذبحا- وايم اللـه لو كان ذلك الذبح على يدى" فكفوا، لكنه لم يأخذها أيضا بالعسف ابتداء حتى لا تكون فتنة وهذا هو نعم الفقه، لكنه أيضا له هدف وسيحققه، فيقول لبنى مروان وقد رفضوا التنازل " لولا ان تستعينوا علي بمن أطلب الحق له، لأضرعت خدودكم عاجلا، ولكني أخاف الفتنة، ولئن أبقاني اللـه لأردن إلى كل ذي حق حقه إن شاء اللـه".

وإذا كان عمر قد بدأ بنفسه في رد المظالم، فقد ثنّى ذلك بأهل بيته وبني عمومته من الأمويين، فقد رأى أن الأمويين أدخلوا الكثير من مظاهر السلطان التي لم تكن موجودة على عهد النبي محمد صلى اللـه عليه وسلم أو خلفائه الراشدين، فأنفقوا الكثير من المال من أجل الظهور بمظاهر العظمة والأبهة أمام رعيتهم، وفوجيء بتلك الثياب الجديدة وقارورات العطر والدهن التي أصبحت له بحجة أن الخليفة الراحل لم يصبها، فهي من حقه بصفته الخليفة الجديد، فأمر مولاه مزاحماً فور تقديم هذه الزينة له ببيعها، وضم ثمنها إلى بيت مال المسلمين.

هكذا عمل عمر على إزالة كل أثر من الآثار التي تراكمت من قبل ولم يكن راضيًا عنها، أو كان يرى أنها تنافي روح الإسلام.

واجتمعوا جميعاً وقرروا أن يرسلوا إليه رسالة وعيدية على لسان عمر بن الوليد بن عبد الملك, فأرسل إليه عمر بن الوليد رسالة شديدة قال فيها: من عمر بن الوليد إلى ابن عبد العزيز, أما بعد: فلقد أزريت بمن سبقك من الخلفاء، وسرت في الناس

بغير سيرتهم، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل، وعملت في قرابتك بغير الحق! فعمدت إلى أموالهم ومواريثهم وحقوقهم وأدخلتها بيت مالك عدوناً وزوراً وظلماً! فاتق الله يا ابن عبد العزيز، وإلا ليوشكن بك ألا تستقر على منبرك! وعيد واضح، وتهديد صارخ، وما كان من هذا الورع البكاء التقي النقي إلا أن يتحول إلى زلزال مدمر، وإعصار مزمجر! وعلى الفور يرد برسالة شديدة على عمر بن الوليد فيقول فيها: من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى ابن الوليد، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فعهدي بك يا ابن الوليد كنت جباراً شقياً، والآن ترسل إلي وتتهمني بالظلم لأنني حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين! الذي هو حق للضعيف والمسكين وابن السبيل! ألا إن شئت يابن الوليد أخبرتك بمن هو أظلم مني وأترك لعهد الله، إنه أبوك الوليد بن عبد الملك، الذي حين كان خليفة للمسلمين استخلفك عليهم صبياً سفيهاً تحكم في دمائهم وأموالهم! فويل لك وويل لأبيك! ألا إن شئت أخبرتك يا بن الوليد بمن هو أظلم مني وأترك لعهد الله، إنه من ولّى الحجاج بن يوسف يسبي المال الحرام، ويسفك الدم الحرام! ألا إن شئت أخبرتك يا ابن الوليد بمن هو أظلم مني وأترك لعهد الله، إنه من ولّى يزيد بن أبي مسلم على المغرب كلها يجبي المال الحرام ويسفك الدم الحرام! ألا رويدك يا ابن الوليد، فوالله لو طالت بي حياة لأقيمنك وأهلك على المحجة البيضاء. والسلام. إنها العظمة! ورع تقي بكاء وجل في خلوته، بينه وبين ربه، أما على كرسي الحكم والسياسة فهو القوي الشديد، صاحب العينين الثاقبتين اللتين تدوران كعيني الصقر فتلقط كل شاردة وواردة، وبالفعل أيها الأحباب! تغير كل شيء بعدما غير الولاة وأمناء بيت المال، وغير القضاة، وغير كل شيء، واستتب الأمر من جديد على أروع ما يكون، حتى إن الناس أحسوا بأنهم يعشون في عصر النبوة!

ولقد كانت لعمر سياسة محددة في رد مظالم بني أمية، فحين وفد عليه أفراد البيت الأموي عقب انصرافه من دفن سليمان، وسألوه ما عودهم الخلفاء الأمويون من قبله، أراد عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز أن يردهم عن أبيه، فقال له عمر: « وما تبلغهم؟ »، قال: «أقول: أبي يقرئكم السلام ويقول لكم: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)»، ثـم اتجـه إلى أبنـاء البيـت الأمـوي، فجمعهـم وطلـب إلـيهم أن يُخرجوا مـا بأيـدهم مـن أمـوال وإقطاعـات أخـذوها بغـير حـق ولم تمـضِ سـوى أيـام معدودات حتى وجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعي المشروع.

وعندما عجز الرجال من بني أمية عـن جعـل عمـر يخـاف أو يلـين عـن سياسـته إزاءهم، لجأوا إلى عمته فاطمة بنت مروان، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها كعادتـه، وألقى لها وسادة لتجلس عليها، فقالت: « إن قرابتك يشكونك ويـذكرونك أنـك أخـذت منهم خير غيرك »، قال: « ما منعتهم حقاً أو شيئاً كـان لهـم، ولا أخـذت مـنهم حقـاً أو شيئاً كان لهـم »، فقالـت: « إني رأيـتهم يتكلمـون، وإني أخـاف أن يهيجـوا عليـك يومـاً عصيباً»، فقال: «كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقـاني اللـه شره »، فـدعا بـدينار وجنب ومجمرة، فألقى ذلك الدينار بالنار، وجعل ينفح على الدينار فـإذا احمـرّ تناولـه بشيء، فألقاه على الجمر فنشى وقتر، فقال: « أي عمة، أما ترثين لابن أخيـك مـن هـذا؟ »،ثم قال: « إن اللـه بعث محمداً صلى اللـه عليه وسـلم رحمـة ولم يبعثـه عـذاباً إلى الناس كافة، ثم اختار له مـا عنـده وتـرك للنـاس نهـراً شربهـم فيـه سـواء، ثـم ولي أبـو بكر وترك النهـر عـلى حالـه، ثـم ولي عمـر فعمـل عملهـما، ثـم لم يـزل النهـر يسـتقي منه يزيد ومروان وعبد الملك وابنه الوليد وسليمان أبناء عبد الملك حتى أفضى الأمر إلي وقد يبس النهر الأعظـم، فلـم يُـروَ أصـحابه حتـى يعـود إلى مـا كـان عليـه »، فقالـت: «حسبك، قد أردت كلامك، فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شـيئاً أبـداً »، فرجعـت إليهم فأخبرتهم كلامه. وجاء في روايـة أنهـا قالـت لهـم: «أنـتم فعلـتم هـذا بأنفسـكم، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده »، فسكتوا.

ومرة بعث إليه واليه على البصرة برجل اغتصب أرضه، فرد عمر هذه الأرض إليـه ثم قال له: «كم أنفقت في مجيئك إلي؟»، قال: «يا أمـير المـؤمنين، تسـألني عـن نفقتـي وأنت قد رددت علي أرضي وهي خير من مائة ألف؟»، فأجابه عمر: « إنما رددت عليك حقك »، ثم ما لبث أن أمر له بستين درهماً تعويضاً له عن نفقـات سـفره. وقـال ابـن موسى: « ما زال عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات ».

وذات يوم قدم عليه نفر من المسلمين وخاصموا روح بن الوليد بن عبد الملـك في

حوانيت، وقد قامت لهم البينة عليه، فأمر عمر روحاً برد الحوانيت إليهم، ولم يلتفت لسجل الوليد، فقام روح فتوعدهم، فردع رجل منهم وأخبر عمر بذلك، فأمر عمر صاحب حرسه أن يتبع روحاً، فإن لم يردّ الحوانيت إلى أصحابها فليضرب عنقه، فخاف روح على نفسه وردّ إليهم حوانيتهم. وردّ عمر أرضاً كان قوم من الأعراب أحيوها، ثم انتزعها منهم الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله، فقال عمر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من أحيا أرضاً ميتة فهي له« .

تبين لنا من هذه السياسات الحكيمة للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ألا حظيت برضاء جميع الناس مما ساعدعلى توحيد الأمة خلفه لحكمة الخليفة في تدبير أمور الخلافة، بل خمدت نار الفتن وخاصة من معارضي الدولة سابقا ؛ مما جعل الناس مقلين عليه بانضوائهم تحت لوائه وطاعتهم إياه.

***

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، عمد إلى جميع الولاة والحكام الظالمين فعزلهم عن مناصبهم، وعزل كل القضاة الذين كانوا في عهد الحجاج. فقال له أحدهم أنا عملت مع الحجاج شهرا واحدا فلم تعزلني؟ فقال له يكفيني ان الحجاج رضي عنك وعينك.

ومنهم خالد بن الريان صاحب حرس سليمان بن عبد الملك الذي كان يضرب كل عنق أمره سليمان بضربها، وعين محله عمرو بن مهاجر الأنصاري، فقال عمر بن عبد العزيز: «يا خالد، ضع هذا السيف عنك، اللهم إني قد وضعت لك خالد بن الريان، اللهم لا ترفعه أبداً»، ثم قال لعمرو بن مهاجر: «والله إنك لتعلم يا عمرو إنه ما بيني وبينك قرابة إلا قربة الإسلام، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلي في موضع تظن ألا يراك أحد، فرأيتك حسن الصلاة، خذ هذا السيف قد وليتك حرسي».

وقد رأى عمر رجلاً كثير الصلاة، فأراد أن يمتحنه ليوليه، فأرسل إليه رجلاً من خاصته فقال: «يا فلان، إنك تعلم مقامي عند أمير المؤمنين، فمالي لو جعلته يوليك على أحد البلدان؟»، فقال الرجل: «لك عطاء سنة»، فرجع الرجل إلى عمر وأخبره بما كان

من هذا الرجل، فتركه لأنه سقط في الاختبار.

وكان من ضمن من عزلهم عمر بن عبد العزيز: أسامة بن زيد التنوخي، وكان على خراج مصر، لأنه كان غاشماً ظلوماً يعتدي في العقوبات بغير ما أنزل اللـه عز وجل؛ فكان يقطع الأيدي في خلاف دون تحقق شروط القطع، فأمر به عمر بن عبد العزيز أن يحبس في كل جُنُد سنة، ويُقيّد ويُحلّ عنه القيد عند كل صلاة ثم يُرد في القيد، فحبس بمصر سنة، ثم بفلسطين سنة، ثم مات عمر وولي يزيد بن عبد الملك الخلافة، فردّ أسامة على مصر في عمله.

***

منصب القضاء في الإسلام من أعلى المراتب؛ لقوله تعالى: "وَاللـهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ" (غافر: 20). فكأن القاضي نائب عن اللـه في حكمه وفتواه، يقول الإمام الغزالي: "إنه أفضل من الجهاد".قال تعالى: "يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللـه إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللـهِ " (ص: 26)، وقال تعالى: "إِنَّ اللـهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْل" (النساء: 58)، وقال تعالى: "يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِين"(النساء: 135)، وقال تعالى: "وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ" (الشورى: 15).

وقال صلى اللـه عليه وسلم: "إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللـهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا " (صحيح مسلم). وروى أبو ذرٍّ عن النبي - صلى اللـه عليه وسلم -فيما روى عن اللـه عز وجل في الحديث القدسي أنه قال : " يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا"، (صحيح مسلم). ومن هنا أدرك المسلمون قيمة العدل، ووجوب تطبيقه فيما بينهم.

وفي الحديث:" إِنَّ اللـهَ مَعَ الْقَاضِي مَا لَمْ يَجُرْ فَإِذَا جَارَ تَخَلَّى عَنْهُ وَلَزِمَهُ الشَّيْطَانُ "

(سنن الترمذي).

ولم يكن تطبيق العدل فيما بين المسلمين وبعضهم فقط، بل أمرنا اللـه عز وجل بضرورة التعامل بالعدل مع من نكرههم ونبغضهم، وهو ما كان جديدًا في ساحة التعامل العالمي، ومن ثَمَّ قال تعالى: " وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللـهَ إِنَّ اللـهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون "(المائدة: 8)

بل أكد الإسلام على ضرورة التعامل بالقسط مع غير المسلمين، وحذَّر من انتقاصه حقه، أو ظلمه لضعفه، أو خيانته، فقال النبي صلى اللـه عليه وسلم: "مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (سنن أبي داود)، وفي الحديث : " تَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ " (صحيح مسلم).

بل الأكثر من ذلك، فقد حذر الإسلام المتخاصمين من تزييف الحقائق، أو تزوير الأدلة، والإتيان بالحجج والأدلة التي تؤيد له وجهة نظره، وتُعينه على أخذ حق غير حقه، ولا شكَّ أن هذه التربية الإسلامية القويمة، هي مما تجعل ضمير المسلم يقظًا ضد كل شرٍّ، حذرًا من كل تدليس أو تغيير للحق؛ ولذلك قال النبي صلى اللـه عليه وسلم : إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَلَا يَأْخُذَنَّ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ"(صحيح البخاري) .

كان العهد الأموي امتدادًا للعهد الراشدي في عدة جوانب؛ إذ بقي كثير من الصحابة إلى العهد الأموي، وشاركهم في العلم والفقه والقضاء وغيرها كبار التابعين، ثم صغار التابعين، كما بقي بعض قضاة العهد الراشدي يمارسون القضاء في العهد الأموي، وبعضهم طال قضاؤهم كشريح بن الحارث -رحمه اللـه-، وبقيت في العهد الأموي آثار التربية الدينية وسمو العقيدة، وآثار الإيمان والالتزام بالدين والتقيد بالأحكام الشرعية. وظهر في العهد الأموي عدد كبير من المجتهدين الذين كانوا صلة الوصل بين الصحابة والمذاهب الفقهية، وكان العلماء والمجتهدون في العهد الأموي أساتذة لأئمة المذاهب التي

ظهرت في العهد العباسي، وكان لهذه الصورة الفقهية الزاهية أثرها الكبير والمحمود على حسن سير القضاء والعدالة في العهد الأموي، وظهر التوسع بالاجتهاد.

وما لبث أن وقع انحراف في تغيير النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامي الذي تتمثل فيه روح الإسلام كاملة، وهو الخلافة واستبدال الملك العضوض به إلاّ أن الطابع الإسلامي هو الصفة الغالبة على مظهر الدولة، وتصرّفات الحكام.

اتبع الأمويون نفس أسلوب الخلفاء الراشدين في تعيين القضاة. حيث يَقوم الخلفاء بتعيين قاض على كل إقليم من أقاليم الدولة حسبَ كفاءته وأهليته للعمل. وقد دون بعض هؤلاء القضاة أحاكمهم، مثل قاضي مصر في عهد معاوية بن أبي سفيان"سليم التجيبي" الذي كان أول قاض يدون أحكامه، وقد أصبحت بعض هذه الأحكام فيما بعد قواعد فقهية عندَ تدوين الفقه في العصر العباسي. ومن أبرز القضاة الأمويين: عامر بن شراحيل الشعبي وعبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي وأبو إدريس الخولاني وعبد الرحمن بن حجيرة وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري وعبد الرحمن بن أذينة العبدي وفرج بن كنانة الكناني وهشام بن هبيرة، وآخرون غيرهم.

كان الخليفة عمر بن عبد العزيز يدقق في اختيار القضاة حتى لا يبتلى الناس بقاض يتخبط فيهم بغير حق، ولهذا فقد اشترط عمر بن عبد العزيز في القاضي خمسة شروط، ولا يجوز له أن يلي القضاء حتى تكتمل فيه هذه الشروط وهي: العلم – والحلم – والعفة – والاستشارة – والقوة في الحق وكانت الأحكام في الدماء والقصاص والحدود تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية، وقد فصلت فيها في كتابي عن عمر بن عبد العزيز، وكان يأمر ولاته بتعجيل النظر في أمور المتهمين، فمن كان عليه أدب فيؤدب ويطلق سراحه، ومن لم تثبت عليه قضية يخلى سبيله.. ويرى أن إقامة الحدود سبب لقلة السجناء؛ لأنه كان زاجراً لأهل الفسق والزعارة فعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: فلو أمرت بإقامة الحدود لقل أهل الحبس ولخاف أهل الفسق والزعارة ولتناهوا عما هم عليه، إنما يكثر أهل الحبس لقلة النظر في أمورهم إنما هو حبس وليس نظر، فمر ولاتك جميعا بالنظر في أمر أهل الحبوس في كل الأيام فمن كان عليه ذنب أدب وأطلق،

ومن لم تكن له قضية خُلّي عنه... لقد اهتم بأمر المسجونين اهتماماً شديداً، وأصدر تعليماته بتعهدهم بكل ما يحتاجونه من طعام وأدم وكسوة وغير ذلك، ولم تكن حقوق الإنسان في سجون دولة عمر بن عبد العزيز منتهكة، وقد كتب إلى أمراء الأجناد: وانظروا في السجون ممن قام عليه الحق، ولا تعد في العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال. وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشي فإن من ارتشى ضاع ما أمر به. ويمضي عمر بن عبد العزيز قدماً في تنظيم السجون والاهتمام بأمر المسجونين وتعاهدهم، فيأمر بأن يُجعل للنساء حبس خاص بعيداً عن الاختلاط بالرجال، مما يؤكد على اختيار أهل الدين والأمانة ليتولوا أمور السجناء، ويأمر ولاته بقوله: وإذا حبست قوماً في دين فلا تجمع بينهم وبين أهل الزعارات في بيت واحد، ولا حبس واحد، واجعل للنساء حبساً على حدة. فانظر إلى عمر بن عبد العزيز في اهتمامه بالسجناء وحرصه على إقامة العدل فيهم ودفع الظلم عنهم.

كان يراعي في اختيار القضاة الصفات التي تحَقق العدالة والمساواة؛ من العلم، والتقوى، والعدل، والعفة، وما يتصل بذلك .

وقد حرص الخلفاء الأمويون على تولية من اتصف بالعلم والصلاح والأمانة لولاية القضاء، فقد ولى عمر بن عبد العزيز قضاء مصر لابن خذامر الصنعاني؛ وكان ذلك بعد سابق معرفة وتأكد من قدرة ابن خذامر على تحمل أعباء هذه المهمة الثقيلة؛ فقد روى ابن حجر عن سبب تعيين عمر بن عبد العزيز لابن خذامر قوله: "وفد من أهل مصر وفدٌ على سليمان بن عبد الملك منهم ابن خذامر الصنعاني، فسألهم سليمَان عن شيء من أهل المغرب، فأخبروه، وأبى ابن خذامر أن يتكلم، فلما خرجوا، قال له عمر بن عبد العزيز رضي اللـه عنه: ما منعك من الكلام يا أبا مسعود؟ قال: خفت واللـه أن أكذب. فعرفها له عمر، فلما وَلِيَ كتب إلى أيوب بن شراحبيل بولاية ابن خذامر القضاء، فولي القضاء من سنة مائة إلى سنة خمس ومائة".

إن معرفة الرجال واختبارهم أمر ضروري جدا في تسيير شئون الدولة، ومعرفة مَن يصلح لها ممن لا يصلح؛ ولذلك فحينما كان عمر بمثابة وزير لسليمان بن عبد الملك،

عرف جيدًا من هم الرجال القادرون على تحمل المسئولية، وقد أسر عمر في نفسه صلاحية ابن خذامر لولاية القضاء في إمارة من الإمارات الإسلامية، وهو ما تم بالفعل، ولقد صدق ظن عمر بن عبد العزيز في الرجل، فقد تولَى خمس سنوات كاملة أدى فيها الواجب على أكمل ما يكون؛ ولذلك قال ابن حجر في حق ابن خذامر: "وهو أول من ولي القضاء بمصر من غير العرب، ولم يقبض منذ أن ولي القضاء -بسبب القضاء- درهمًا ولا دينارا".

وكان القضاء مجانيًا في عهد عمر بن عبد العزيز رضي اللـه عنه، وكان يعطي المتظلم نفقات سفره, فاطمأن في عهده الفقراء والضعفاء، وساد الأمن والرخاء, وكان عمر يكتفي باليسير من البينات في ردّ المظالم إلى أهلها، لما يعلم من ظلم الولاة.

***

كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله على البلاد الإسلامية:أما بعد فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة اللـه عليك، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، واعلم أن اللـه عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين.

وروى الطبراني والدارقطني, أنه كتب إلى عامل له: أما بعد فإني أوصيك بتقوى اللـه، واتباع سنة رسوله، والاقتصاد في أمره، وترك ما أحدث المحدثون بعده ممن قد حارب سنته وكفوا مؤنته، ثم أعلم أنه لم تكن بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل على بطلانها، - أو قال دليل عليها - فعليك لزوم السنة فإنه إنما سنها من قد علم ما في خلافها من الزيغ والزلل، والحمق والخطأ والتعمق، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وعلى العمل الشديد أشد، و إنما كان عملهم على الأسد، و لو كان فيما تحملون أنفسكم فضل لكانوا فيه أحرى، وإليه أجرى، لأنهم السابقون إلى كل خير، فإن قلت: قد حدث بعدهم خير، فاعلم أنه إنما أحدثه من قد اتبع غير سبيل المؤمنين، وحاد عن طريقهم، و رغبت نفسه عنهم، ولقد تكلموا منه ما يكفي، و وصفوا منه ما يشفي، فأين لا أين، فمن دونهم مقصر، ومن فوقهم غير محسن، ولقد قصر أقوام دينهم فحفوا، وطمح عنهم آخرون

فغلوا، فرحم اللـه ابن عبد العزيز. ما أحسن هذا القول الذي ما يخرج إلا من قلب قد امتلأ بالمتابعة ومحبة ما كان عليه الصحابة، فمن الذي يستطيع أن يقول مثل هذا من الفقهاء و غيرهم؟ فرحمه اللـه وعفا عنه.

ماروواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلاَّم في كتاب الأموال. لكن الأثر في أموال بيت المال لا في في أموال الزكاة فحسب، فروى أبو عبيد عن رجل من الأنصار، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وهو بالعراق: أن أخرج للناس أعطياتهم، فكتب إليه عبد الحميد: إني قد أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقي في بيت المال مال، فكتب إليه: أن انظر كل من أدان في غير سفه ولا سرف فاقض عنه، قال: قد قضيت عنهم وبقي في بيت المال مال، فكتب إليه: أن زوج كل شاب يريد الزواج، فكتب إليه: إني قد زوجت كل من وجدت وقد بقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه بعد مخرج هذا: أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين. ورواه ابن زنجويه في الأموال أيضا من طريق أبي عبيد.

وكتب عمر إلى عامل من عماله: قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما عَدَلْتَ، وإما اعتزلت، والسلام.

أيضا كتب عمر إلى بعض عماله : لا تعاقب رجلا لمكان جلسائه، ولا لغضب عليه، ولا تؤدب أحدا من أهل بيتك إلا على قدر ذنبه، وإن لم تبلغ إلا سوطا واحدا.

وكتب أيضا : لا تركب دابة إلا دابة يضبط سيرها أضعف دابة في الجيش.

كذلك كتب إلى عروة بن محمد عامله على اليمن: انظر من قبلك من بني فلان فأقصهم عنك، ولا تشركهم في شيء من عملك، فإنهم بئس أهل البيت كانوا.

وكتب عمر إلى بعض عماله: أما بعد، فاتق اللـه فيمن وليت أمره، ولا تأمن مكره في تأخيره عقوبته، فإنه إنما يعجل بالعقوبة من يخاف الفوت، والسلام عليكم ورحمة اللـه وبركاته.

وكتب بعض عمال إليه: أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لها مالا يرمها به فعل. فكتب إليه عمر : أما بعد، قد فهمت كتابك وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فحصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنه مرمتها، والسلام.

كتب الحسن إلى عمر: أما بعد، فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قيل قد مات، فأجابه عمر: أما بعد، فكأنك بالدنيا ولم تكن، وكأنك بالآخرة ولم تزل .

وكتب عمر إلى عدي بن أرطاة - وكان استخلفه على البصرة- : أما بعد فإنك غررتني بعمامتك السوداء، ومجالستك القراء، أظهرت لي الخير فأحسنت بك الظن, وقد أظهر الله علي ما كنتم تكتمون، والسلام.

و كتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن الناس قد كثروا في الإسلام، وخفت أن يقل الخراج. فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: فهمت كتابك، ووالله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا.

.,عن نوفل بن أبي الفرات قال : كتبت الحجبة إلى عمر بن عبد العزيز، يأمر للبيت بكسوة كما يفعل من كان قبله، فكتب إليهم: إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة، فإنهم أولى بذلك من البيت.

حدثنا أبو عبد الله السلمي قال: حدثني مبشر، عن نوفل بن أبي الفرات قال : كنت عاملا لعمر بن عبد العزيز، فكنت أختم على بيادر أهل الذمة، فجاءني كتاب عمر أن لا تفعل، فإنه بلغني أنها كانت من صنائع الحجاج، وأنا أكره أن أتأسى به.

***

اهتم عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بتفعيل مبدأ الشورى في خلافته، ومن أقواله في الشورى: «إن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة لا يضل معهما رأي، ولا يُفقد معهما حزم».

وقد تبين مبدأ الشورى في أول يوم من خلافته، حيث قال للناس: «أيها النـاس، إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له ولا مشورة مـن المسـلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي»، فصاح الناس صيحة واحدة: «قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فولّ أمرنا باليمن والبركة».وبذلك خرج عمر من مبدأ توريـث الولاية الذي تبناه معظم خلفاء بني أمية إلى مبدأ الشورى والانتخاب، ولم يكتف عمـر باختياره ومبايعة الحاضرين، بـل يهمـه رأي المسـلمين في الأمصـار الأخـرى ومشـورتهم، فقال في خطبته الأولى: «وإن من حولكم من الأمصـار والمـدن إن أطـاعوا كـما أطعـتم، وإن هم أبوا فلست لكم بوالٍ»، ثم نزل.

وقـد كتـب إلى الأمصـار الإسـلامية فبايعـت كلهـا، وممـن كتـب لهـم يزيـد بـن المهلب يطلب إليه البيعة بعد أن أوضح له أنـه في الخلافـة لـيس براغـب، فـدعا يزيـد الناس إلى البيعة فبايعوا. وبذلك يتضح أنه لم يكتف بمشورة من حوله، بل امتـد الأمـر إلى جميع أمصار المسلمين.

وكان عمر يستشير العلماء ويطلب نصحهم في كثير من الأمور، أمثال سالم بن عبد اللـه، ومحمد بن كعب القرطبي، ورجاء بن حيوة، فقال: «إني قـد ابتليـت بهـذا الأمـر فأشيروا عليّ». كما كان يستشير ذوي العقول الراجحة من الرجال، وقد حرص عمر على إصلاح بطانته لمّا تولّى الخلافة، فقرّب إلى مجلسـه العلـماء وأهـل الصـلاح، وأقصى عنـه أهل المصالح الدنيوية والمنـافع الخاصـة، وكـان يوصـيهم ويحـثهم عـلى تقويمـه، فقـال لعمرو بن مهاجر: «إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابي ثم هزني، ثم قل: يا عمر ما تصنع؟»، وقد كان لهذا المسلك أثر في تصحيح سياسته التجديديـة ونجاحهـا، حيث كان لبطانته أثر في شد أزره، وسداد رأيه وصواب قراره.

ففي عهد عمر اتسعت مشاركته للعلماء في مختلف الميادين بشكل لم يسـبق لـه مثيل في الدولة الأموية، ويرجع ذلك إلى سببين وهما:

الأول – حرص على تقريب العلماء وجعلهم بطانته ووزراءه وأعوانه.

والثاني - وهذا السبب يتعلق بالعلماء أنفسهم، حيث لم ير أي أحد منهم لنفسه مبرراً في البعد عنه والمشاركة في إعانته على أمور الحكم، فمن الواجب على العلماء تحمل أعباء المسؤولية التي تلقى على عواتقهم، ولم يعد لمعتذر عذر، بل أقبلوا عليه لما علموا من صلاحه وإخلاصه .

ومن قول العلماء في عمر, كما نقل عنهم ابن عساكر في تاريخه: (ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله).

لقد أسهم العلماء في مساعدة عمر بن عبدالعزيز في السير في منهجه الإصلاحي حيث أيدوه فيما اتخذه من قرارات إصلاحية كما كان لبعضهم أثر في اتخاذ عمر لبعض تلك القرارات، فمن ذلك: فقد أُثر عن العالم عرَّاك بن مالك الغفاري المدني - أحد علماء التابعين - أنه طلب منه انتزاع جميع الأموال التي حازها بنو أمية من الفيء والمظالم من أيديهم، وقد تعرض هذا العالم بعد وفاة عمر إلى غضب بني أمية فنفاه يزيد بن عبد الملك بعد توليه الخلافة إلى جزيرة في بحر اليمن وبقي فيها إلى أن مات.

لذلك اختار عمر لسياسة الرعية وأعمال الحق بين الناس الولاة الثقات من أهل الدين والعلم وممن اشتهروا بالأمانة والقوة في غير بأس والتواضع وعفة النفس، والعدالة، وحسن الخلق والرحمة والقدوة الحسنة ومشاورة الآخرين والنصح وعدم الأنانية والكفاءة والذكاء و الحكمة.

ولاهتمامه بالعلماء ولمكانتهم في قلبه كلفهم بمهام وأعباء الدولة الإسلامية، وأرسل العلماء إلى الأمصار والبوادى، ليعلّموا أهلها ويفقهوهم. ثم عمم «عمر» المنشور تلو الآخر لولاته وعماله بإفشاء العلم بين الناس، ينقل أبوبكر بن حزم كتاباً عاماً لعماله يقول فيه: «ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يتعلم من لم يتعلم»، وفرض الرواتب للعلماء والمتعلمين، بما يكفل تدبير أمور معاشهم، روى الخطيب البغدادى عن أبى بكر بن أبى مريم قال: كتب عمر بن عبدالعزيز إلى ولاته: «مُرْ لأهل العلم من بيت المال بما يغنيهم؛ لئلّا يشغلهم شيء عن العلم» وكان يوزع الأموال على طلبة العلم، واليتامى، والمساكين،

والمرضى، والأرامل، والمحتاجين كل يوم جمعة.

وقد قال ابن كثير في ولاة عمر بن عبد العزيز: وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من أستعمله عمر بن عبد العزيز ثقة و ذكر من هؤلاء:

- ولى ميمون بن مهران على خراج الجزيرة.
- وولى الإمام الفقيه الثقة عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب على ولاية الكوفة.
- وولى العالم القدير أبا بكر بن عمر بن حزم على المدينة المنورة.
- وولى الإمام الكبير إسماعيل بن أبي المهاجر على أفريقية.
- وولى الفقيه المحدث عدي ابن عدي الكندي على الجزيرة الفراتية وأرمينية وأذريبجان.
- وولى القاضي عبادة بن نسي بن وابصة العبدي على الرقة.
- وولى العالم وهب بن منبه على بيت مال اليمن.
- وولى الثقة الصالح صالح بن جبير الصداني على الخراج لعمر.

وبالتالي لم تكن هذه القرارات ارتجالية من خليفة المسلمين، يخشى المؤامرات الداخلية من حوله، أو قرارات طائشة من حاكم شاب متزهد سقط فجأة فوجد نفسه حاكما.

لم يكن عمر بن عبد العزيز رجل زهد وولاية وجد نفسه فجأة خليفة؛ بل كان رجل دولة استشعر الأمانة، وراقب الله فيما أُوكل إليه، وتحمل مسؤولية دولته الكبيرة بجدٍّ واجتهاد؛ فكان منه ما جعل الناس ينظرون إليه بإعجاب وتقدير.

وكان يختار ولاته بعد تدقيق شديد، ومعرفة كاملة بأخلاقهم وقدراتهم؛ فلا يلي عنده منصبًا إلا من رجحت كفته كفاءة وعلمًا وإيمانًا، وحسبك أن تستعرض أسماء من اختارهم

لولاياته؛ فتجد فيهم العالم الفقيه، والسياسي البارع، والقائد الفاتح، من أمثال أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أمير المدينة وقاضيها، والجراح بن عبد الله الحكيمي، أمير البصرة، وكان قائدًا فاتحًا، وإداريًا عظيمًا، وعابدًا قائدًا، والسمح بن مالك أمير الأندلس، وكان قائدًا فذًا، استُشهد على أرض الأندلس، وكان باقي ولاته على هذه الدرجة من القدرة والكفاءة.

وكان عمر لا يكتفي بحسن الاختيار بعد دراسة وتجربة، بل كان يتابع ويراقب، لكن مراقبته لم تكن مراقبة المتهم، بل كان يراقب تطبيق السياسة العامة التي وضعها للدولة.

وإذا كان قد أخذ نفسه بالشدة والحياة الخشنة، فإنه لم يلزم بها ولاته، بل وسّع عليهم في العطاء، وفرض لهم رواتب جيدة تحميهم من الانشغال بطلب الرزق، وتصرفهم عن الانشغال بأحوال المسلمين، كما منعهم من الاشتغال بالتجارة، وأعطى لهم الحرية في إدارة شئون ولاتهم؛ فلا يشاورونه إلا في الأمور العظيمة، وكان يظهر ضيقه من الولاة إذا استوضحوه في الأمور الصغيرة.. كتب إليه أحد ولاته يستوضح منه أمرًا لا يحتاج إلى قرار من الخليفة، فضاق منه عمر، وكتب إليه: " أما بعد، فأراك لو أرسلتُ إليك أن اذبح شاة، ووزع لحمها على الفقراء، لأرسلت إلي تسألني: كبيرة أم صغيرة؟ فإن أجبتك أرسلت تسأل: بيضاء أم سوداء؟ إذا أرسلت إليك بأمر، فتبيَّن وجه الحق منه، ثم أمْضِه ".

اتفق علماء أهل السنة والجماعة على أنّ عمر بن عبد العزيز قد ألزم نفسه طريقاً واحداً هو إحياء ما مات من السنن الحميدة التي غفل عنها الناس حكاماً ومحكومين. إذ رأى أن المسلمين قد حادوا عن صحيح الدين وتحديداً في سلوكياتهم ومعاملاتهم، والتي مست العقيدة بشكل غير مباشر. فوضع نصب عينيه أن تستهدف عملية الإحياء الديني تقويم تلك السلوكيات وإعادتها إلى صحيح الدين، لكي تكون انعكاساً لجوهر الإسلام، كما كان الحال في السلف الصالح من قبل.

ولذا كانت أولى مهامه الرئيسة، إعادة تمكين العقيدة من النفوس، وتهيئة الأذهان لتقبل الإحياء الديني بما فيه من مشاق، بعدما هيمنت متاع الدنيا وحبها على المسلمين، فطغت على أنفسهم، وتحديداً تلك الشريحة من الولاة والأسر الحاكمة. وبعكس التجديد

وما فيه من مراعاة للأولويات والتدرج في عمليات التغيير بقصد المواءمة مع مقتضيات الواقع، فإن النهج العمري في الإحياء لم يكن بحاجة لتلك التدرجية كما يقول البعض.

وأتى نهجه قاسياً وحاداً على أولئك الذين إعتادوا الإسراف والتمتع بما لم يأت الإسلام به من سلطان، ومحبباً للذين نشدوا العدل والحرية والمساواة من قبله فلم يجدوها، فمثل أولئك ناصروه بقلوبهم ودعواتهم، وأما الأولون فهم الذين ناصبوه العداء والتربص به.

ولذا يروي أن بني قومه من آل مروان وأمية اجتمعوا يوماً للتدارس في أحوالهم بعدما سلبهم عمر كل ما لديهم من أسباب التفاخر والتكبر على عباد الله المسلمين وسواهم بهم، فبعثوا بأحدهم يكلمه في مطلب وحيد وهو استعادة ما كان لديهم من عز وجاه وسلطان، مؤكدين له أن من كان قبله من الخلفاء يعرف لهم قدرهم، وأنه قد حرمهم وأخذ ما كان بين أيديهم من ثروة ومتاع.. فكان رده عليهم أن حمّل رسولهم رسالة قال فيها: " إرجع إليهم وقل لهم: إني أخاف الله إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم".

ويذكر العديد من المؤرخين أن المنهاج العمري في الإحياء والتجديد اتسم بعدة سمات، من أبرزها: إشاعة المساواة بين الرعية، وما تلا ذلك من إلغاء لما ورث بالنفوس منذ بدء الخلافة الأموية من خنوع تام للولاة والحكام لحد التقديس مقلدين في ذلك ما حولهم من إمبراطوريات الرومانية والفارسية وغيرها من الأمم.

---

* الشورى هي مصطلح إسلامي استمده بعض فقهاء وعلماء المسلمين من بعض آيات القرآن مثل قوله تعالى { :وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } (سورة الشورى-آية 38) للدلالة على ما اعتبروه المبدأ شرعي من مبادئ الإسلام المتعلق بتقليب الآراء، ووجهات النظر في قضية من القضايا، أو موضوع من الموضوعات، واختبارها من أصحاب الرأي والخبرة، وصولاً إلى الصواب، وأفضل الآراء، من أجل تحقيق أحسن النتائج.

ولا يمكن بأي حال أن نتطرق إلى المؤسسة السياسية الإسلامية دون الحديث عن واحدة من أهم مميزات هذه المؤسسة؛ فالإسلام قد جاء بمبدأ إنساني غاية في العظمة والروعة، وهو مبدأ الشورى، بل سُميت سورة من سور القرآن الكريم باسم "الشورى"؛ دلالة على أهمية تحقق هذا الشرط في أي شأن من شئون المسلمين.

وعلى الرغم من اختلاف الفقهاء حول آليات تنفيذ هذا المبدأ من ناحية الاختيار أو الوجوب والإلزام، لكنهم مُجْمِعُون على ضرورة تَحَقُّقها بين المسلمين مصداقًا لقوله تعالى.: [وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ] {آل عمران: 159 }

وتُعرَّف الشورى بأنها طلب الرأي ممن هو أهل له، أو هي استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في الأمور العامة المتعلقة بها، وعليه فقد اتخذ المسلمون الشورى أصلاً وقاعدة من أصول الحكم وقواعده، وعليها قام ترشيح العدول من المسلمين لمن يرونه أهلاً للقوَّة والإمامة لتولِّي أمرهم؛ ومما يؤكِّد ذلك ويؤصِّله أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يترك نصًّا مكتوبًا ولم يستخلف أحدًا ليتولَّى إمامة

حرص عمر على نشر العلم بين رعيته وتفقيههم في الدين وتعريفهم بالسنة، وقد ورد عنه أنه قال في إحدى خطبه: « إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً، فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فلأن أعِش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص»، وقال أيضاً: « فلو كان كل بدعة يميتها اللـه على يدي وكل سنّة يُعيشها اللـه على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في اللـه يسيراً»، وفي موضع آخر قال: «واللـه لولا أن أُنعش سُنّة أو أسير بحق ما أحببت أن أعيش فواقاً ».

لقد خشيَ عمر بن عبد العزيز أن يَضيع الحديث بموت العلماء الذين يَحفظونه فأمرَ بتدوينه، فكتبَ إلى ولاته على أقاليم الدولة المختلفة وأمر كلاً منهم بجمع الحديث من العلماء في ولايته، وبهذه الطريق بدأت حركة تدوين الحديث بالتوسُّع تدريجياً، وقضى الكثير من العلماء سنوات طويلة في جمعه وتدوينه، ومن أبرز المحدثين في العصر الأموي محمد بن مسلم الزهري و ابن إسحاق و سفيان الثوري و محمد بن راشد اليمنيّ وابن جريج المكي و مالك بن أنس . ولهذا بعث عمر العلماء لتعليم الناس وتفقيههم إلى مختلف أقاليم الدولة وحواضرها وبواديها، وأمر عماله على الأقاليم بحث العلماء على نشر العلم، فقد جاء في كتابه الذي بعث إلى عماله: « ومُر أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم اللـه من ذلك، وليتحدثوا به في مجالسهم »، ومما كتب إلى بعض عماله: « أما بعد، فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت ».

المسلمين، وإنما ترك الأمر شورى بينهم، وقد روى عن أبي وائل قال : قيل لعلي بن أبي طالب - رضي اللـه عنه - : ألا تستخلف علينا؟ قال : ما استخلف رسول اللـه - صلى اللـه عليه وآله وسلم - فأستخلف, ولكن إن يرد اللـه بالناس خيرا, فسيجمعهم بعدي على خيرهم, كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم .هذا حديث صحيح الإسناد

هناك اتفاق بأن الشورى في الإسلام منوطة بفئة من المسلمين يُطلق عليهم أهل الشورى (الحلِّ والعقد)، وقد تحدَّث الفقهاء عن ضرورة توافر بعض الشروط فيهم؛ وهي: العدالة، والعلم، والرأي، والحكمة. ومن ثَمَّ يمكن إجمالهم في "العلماء والرُّؤساء ووجوه النَّاس الَّذين يتيسَّر اجتماعهم".

لذلك كانت الشورى من الأمور الضرورية الملحة التي يفرضها الإسلام على ولاة الأمور، ويمكن القول: إنها من أهم المظاهر الحضارية التي أسهم المسلمون في إيجادها وإرسائها في المجتمع الإسلامي، وتأثر بها الآخرون، خاصة في أوربا منذ القرن الثالث عشر الميلادي، ولذلك كانت الشورى نوعًا من التعبير عن الإرادة الإلهية؛ استنادًا إلى ما يقوله الرسول" إِنَّ أُمَّتِي لاَ تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلاَلَةٍ ".

كما أمر عماله أن يُجروا الرواتب على العلماء ليتفرغوا لنشر العلم، وانتدب العديد من العلماء لتفقيه الناس في الدين، فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري يفقهان الناس والبدو. وذكر الذهبي أن عمر ندب يزيد بن أبي مالك ليفقه بني نمير ويقرئهم، وبعث نافع مولى ابن عمر إلى أهل مصر ليعلمهم السنن، وكان قد بعث عشرة من الفقهاء إلى إفريقية يفقّهون أهلها.

***

الحياة العلمية في بلاد الخلافة في العصر الأموي يستطيع الباحث أن يتتبع نشوء التفسير القرآني وتطوره في القرن الأول الهجري وكان من أبرز علماء التفسير في تلك الفترة سعيد بن جبير (المتوفى سنة 95 هـ/ 714 م). ويعدّ من أكثر التابعين علماً ومكانة، ومن أوائل مفسري القرآن الكريم.

روى ابن سعد والفَسَوي عن ميمون بن مهران قال: قد مات سعيد بن جبير وما على الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه، قال: أرى في التفسير على نحو أوضح من كل فروع المعرفة الأخرى.

- أن هذا العصر شهد حياة جيلين فريدين، جيل الصحابة المتلقي عن النبي، وجيل التابعين والذي دخل ضمن الخيرية التي أطلقها الرسول صلى الله عليه وسلم على أجيال الأمة الإسلامية حيث قال صلى الله عليه وسلم: " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم".
- إن هذا العصر أساس الحركة العلمية في العصور الإسلامية جميعها، حيث تم فيه التدوين العلوم لأول مرة - رسميا - في تاريخ الدولة الإسلامية.

كما شهد هذا العصر فتوحات عظيمة للدولة الإسلامية، نتج عن ذلك دخول شعوب جديدة ذات حضارات قديمة، كان لها إسهام في تطور العلوم في العصر الأموي.

ظهرت المدارس العلمية أولا في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وقد اتخذ من عاصمة الدولة مدرسة يتخرج منها العلماء والدعاة والولاة والقضاة فنشطت المدارس العلمية في مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام ومصر وغيرها وأشرف الصحابة رضوان

الله عليهم على تعليم وتربية الناس فيها، ومن بعدهم التابعين رضي الله عنهم أجمعين، واستطاعت تلك المدارس أن تخرج كوادر علمية وفقهية ودعوية متميزة ساندت الدولة التي قامت بفتح العراق وإيران والشام ومصر وبلاد المغرب، واستطاع علماء الصحابة الذين تفرغوا لدعوة الناس وتربيتهم أن ينشئوا جيلاً من قرآنيا فريدا من أبناء المناطق المفتوحة، وقد استطاعوا أن يتغلبوا على مشكلة إعاقة الحاجز اللغوي، بل تعلم الكثير من الأعاجم لغة الإسلام، وأصبح كثير من رواد حركة العلم بعد عصر الصحابة من العجم، وقد ازدهرت العلوم والترجمة في العصر الأموي ازدهارا كبيرا حتى بدت منطلقة بسرعة عالية في استكشاف آفاق العلوم والتعرف على جديدها ورثت الدولة الأموية علوم الأعاجم من الفرس والروم بعد انهيار دولتهم، وكان لا بد - للإفادة من ذلك التراث- من ترجمته ونقله إلى العربية بعد أن غدا " تراثًا تقليديًّا تداولته أيدي الشارحين والمحترفين ممن أجادوا اليونانية أو السريانية".

وقد كان بعض هذه الترجمات حافزًا على الاهتمام بالعلوم التجريبية وربما كان العكس صحيحًا أحيانًا. ومعلوم أن كل ذلك يحتاج إلى جهد كبير تعجز عنه إمكانات الأفراد العاديين؛ ولذا فقد وقف الأمويون يشجعون على ذلك حتى تحققت أعمال جيدة على نحو ما نرى.

وشملت الحركة العلمية في العصر الأموي الإهتمام بالفقه وتاريخ الأنبياء وسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم -وشملت العلوم التي عني بها أيضا معرفة السنن والفريضة وتلاوة القرآن والمواريث واللغة العربية، بالإضافة إلى الأنساب والشعر والمغازي، والأخبار وأيام العرب وقد توسعت الدراسات القرآنية والدراسات الفقهية ورواية الحديث.

ولقد أثرت المدارس العلمية والفقهية في المناطق المفتوحة، وشكلت جيلاً من التابعين نقلوا إلى الأمة علم الصحابة وأصبحوا من ضمن سلسلة السند التي نقلت للأمة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد استمرت مدارس التابعين في النشاط العلمي في عهد الدولة الأموية وكثير من العلماء الذين تخرجوا من تلك المدارس أعانوا عمر بن عبد العزيز على مشروعه الإصلاحي التجديدي الراشدي المنضبط بمنهاج النبوة.

من إحياء للسنة وقمع للبدعة ومن أهم تلك المدارس:

1 ـ مدرسة الشام:

تأسست في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأشهر مؤسسيها من الصحابة، معاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وعباد بن الصامت رضي الله عنهم وحمل التابعون الراية العلمية والتربوية والدعوية بعد الصحابة ومن أشهرهم:

أ ـ الإمام الفقيه أبو إدريس الخولاني, عائذ بن عبد الله:

قاضي دمشق وعالمها، روى عن أبي الدرداء، وأبي هريرة وابن عباس وخلق غيرهم، كان أبو إدريس عالم الشام بعد أبي الدرداء قال: أدركت أبي الدرداء ووعيت عنه، وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس ووعيت عنهما(175). كان أبو إدريس ثقة من أهل الفقه في الدين وعلم الحلال والحرام، وكان من أحسن الناس تلاوة للقرآن، فعن يزيد بن عبيدة أنه رأى أبا إدريس في زمن عبد الملك ابن مروان، وأن حلق المسجد بدمشق يقرؤون القرآن، يدرسون جميعاً، وأبو إدريس جالس إلى بعض العمد، فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا إليه يقرأ بها، وانصتوا له وسجد بهم جميعاً... حتى إذا فرغوا من قراءتهم قام أبو إدريس يقصُ. وعن يزيد بن أبي مالك، قال: كنا نجلس إلى أبي إدريس الخولاني فيحدثنا، فحدث يوماً عن بعض مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استوعب الغزاة، فقال له رجل من ناحية المجلس: أحضرت هذه الغزوة؟ فقال: لا وقال الرجل: قد حضرتها مع رسول الله، ولأنت أحفظ لها مني، وقد عزل عبد الملك بن مروان بلال بن أبي الدرداء عن القضاء ـ وولى أبا إدريس. ثم أن عبد الملك عزل أبا إدريس عن القصص، وأقره على القضاء، فقال أبو إدريس: عزلتموني عن رغبتي وتركتموني في رهبتي، توفي عام 80هـ.

ب ـ الفقيه قبيصة بن ذؤويب الدمشقي:

روي عن عمر بن الخطاب، وأبي الدرداء وعبد الرحمن بن عوف وخلق غيرهم. كان قبيصة من علماء التابعين ثقة مأموناً كثير الحديث، قال الشعبي: كان أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت، قال عنه مكحول: ما رأيت أحداً أعلم من قبيصة، وعن ابن شهاب، قال:

كان قبيصة بن ذؤويب من علماء هذه الأمة، توفي سنة 86هـ وقيل 87هـ وقيل88هـ وقد توسعت في ترجمته عند حديثي عن عبد الملك.

ج ـ رجاء بن حيوة الفلسطيني:

من أجلة التابعين وشيخ أهل الشام حدث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وعباد بن الصامت وطائفة، كان شامياً ثقة فاضلاً كثير العلم، ويروى عن رجاء بن حيوة أنه قال: من لم يؤاخ إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقه، ومن لم يرضى من صديقه بالإخلاص له دام سخطه ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوُّه. كان رجاء كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك وعند عمر بن عبد العزيز وأجرى الله على يديه الخيرات، ثم أنَّه بعد ذلك أُخِّر، فأقبل على شأنه، توفي سنة 112هـ.

س ـ مكحول الشامي الدمشقي:

عالم أهل الشام عداده في أواسط التابعين من أقران الزهري سمع من واثلة بن الأسقع وواثله آخر من مات من الصحابة بدمشق، وتوفي عام 85هـ وله ثمان وتسعون سنة، قال عنه الزهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة والشعبي بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام. وكان مكحول أفقه أهل الشام، ولم يكن في زمنه أبصر بالفتيا منه توفي 112هـ وقيل 113هـ وقيل غير ذلك.

ع ـ عمر بن عبد العزيز:

ومن علماء المدرسة الشامية والمدينة وذلك بعد انتقاله إلى الشام وقيامه بأعباء الخلافة، وكان معروفاً بالفقه بصير بالسنة، يرجع إليه القضاة في الأمور التي يختلفون فيها. وقد بدأت بالمدرسة الشامية لأنها ترعرعت في عاصمة الخلافة الأموية.

س ـ بلال بن سعد السكوني:

الإمام الرباني الواعظ أبو عمرو الدمشقي شيخ أهل دمشق كان لأبيه صحبة، كان بليغ الموعظة، حسن القصص نافعاً للعامة وكان لأهل الشام كالحسن البصري بالعراق وكان قارئ أهل الشام جهير الصوت يقول الأوزاعي: لم أسمع واعظاً قط أبلغ من بلال بن

سعد، ومن مواعظه العميقة: يا أهل التُقى إنكم لم تُخلقوا للفناء وإنما تُنقلون من دار إلى دار، كما نُقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار. ومن أقواله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن أنظر من عصيت. وقال الأوزاعي سمعته يقول: والله لكفى به ذنباً أن الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها. وقد توفي سنة نيف وعشرة ومائة.

2 ـ المدرسة المدنية:

لما انتقل النبي "صلى الله عليه وسلم" إلى الرفيق الأعلى كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية وموطن الخلافة، وفيها تفتق عقل الصحابة في استخراج أحكام إسلامية، تصلح لما جد من شئون في المجتمعات الإسلامية، بعد الفتوح التي كثرت وفي عهد عمر بن الخطاب بلغ فقهاء الصحابة المفتون 130 مائة وثلاثين صحابياً وكان المكثرون منهم سبعة: عمر وعلي وعبد الله بن مسعود، وعائشة، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وورث علماء التابعين الفقه والعلم والتربية والدعوة، وأما أشهر علماء التابعين: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، وعمرة بنت عبد الرحمن بن سعد الأنصارية، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وسليمان بن يسار، ونافع مولى ابن عمر، وقد تحدثت عن دور فقهاء وعلماء التابعين بالمدينة في نشأة عمر بن عبد العزيز.

3ـ المدرسة المكية:

احتلت هذه المدرسة المكانة في قلوب المؤمنين، الساكنين والثائبين على بلد الله الحرام، الحجاج والعمار والزوار، بل أخذت مكة بألباب كل مؤمن رآها أو تمنى أن يراها، ولقد كان العلم بمكة يسير زمن الصحابة، ثم كثر في أواخر عصرهم وكذلك في أيام التابعين، وزمن أصحابهم، كابن أبي نجيح، وابن جريج، إلا أن مكة اختصت زمن التابعين بحبر الأمة وترجمات القران ابن عباس رضي الله عنهما الذي صرف جل همه، وغاية وسعه إلى علم التفسير، وربى أصحابه على ذلك، فنبع منهم أئمة كان لهم قصب السبق بين تلاميذ المدارس في التفسير، وقد ذكر العلماء مجموعة من الأسباب أدت إلى تفوق

المدرسة المكية في هذا العلم وأهم هذه الأسباب والأساس فيها إمامة ابـن عبـاس رضي اللـه عنهما وأستاذيته لها، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة المكية.

أ ـ مجاهد بن جبر المكي:

أخذ الفقه والتفسير عن ابن عباس وغيره من الصحابة، كان فقيهاً عالماً ثقـة مـن أوعية العلم، وعن مجاهد قال: عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، أَقِفُه عنـد كل آية، اسأله فيم نزلت، وكيف كانت، وقال قتادة: أعلم مـن بقـي بالتفسـير مجاهـد، وقال مجاهد: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني، وقدم مجاهد عـلى سليمان بن عبد الملك ثم على عمر بن عبد العزيز، وشهد وفاته وعن مجاهد قال. قـال لي عمر بن عبد العزيز في مرض وفاتـه: يـا مجاهـد مـا يقـول النـاس فيّ قلـت: يقولـون مسحور، قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاماً له فقال: ويحك، ما حملك على أن سـقيتني السُّمُّ؟ قال: ألف دينار أُعطيتها وأن أُعتق، قال: هاتها، فجاء بها، فألقاهـا في بيـت المـال وقال: اذهب حيث لا يراك أحد، وقال مجاهد: ما أدري أي النعمتين أعظـم، أن هـداني للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء. قال الذهبي معلقاً على قول مجاهـد: مثـل الـرّفض والقدر والتجهّم. وعن عبد الوهاب بن مجاهد، قال: كنت عند أبي فجاء ولـده يعقـوب فقال: يا أبتاه، إن لنا أصحاب يزعمون أن إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحـد. فقـال: يا بني ما هؤلاء بأصحابي، لا يجعل اللـه من هو منغمس في الخطايا كمن لا ذنـب لـه، ومات مجاهد سنة اثنتين ومائة وهو ساجد، وكان عمره ثلاث وثمانين سنة.

ب ـ عكرمة مولى ابن عباس:

كان مكياً تابعياً ثقة من أعلم التـابعين، روى عـن ابـن عبـاس، وعائشـة وأبي هريـرة وابن عمر، وابن عمرو، وعقبة بن عامر، وعلي بن أبي طالب، قـال: طلبـت العلـم أربعـين سنة، وكنت أفتي بالباب وابن عباس بالدار وعن عكرمـة أن ابـن عبـاس قـال لـه: انطلـق فأفت الناس وأنا لك عون، قلت: لو أن هذا الناس ومثلهم مرتين لأفتيتهم. قال ابن عباس: انطلق فأفتهم فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته ومـن سـألك عـما لا يعنيـه فـلا تُفتـه،

فإنك تطرح عنك ثلثي مؤونة الناس، وكان عكرمة كثير الأسفار ونزل على عبد الرحمن الحسّاس الغافقي، وصار إلى إفريقية، وقد اتهم عكرمة بالصفرية فرقة من فرق الخوارج ولم تثبت هذه التهمة بسند صحيح وإنما بصيغة يقال، وقد دافع علماء الجرح والتعديل عن عكرمة، كابي حاتم الرازي، وابن حبان، والعجلي، وابن منده وابن عبد البر ونقل ذلك ابن حجر في مقدمة الفتح وقال: لا تثبت عنه بدعة. وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا هو يحتج بعكرمة، توفي سنة 105هـ.

ج ـ عطاء بن أبي رباح:

مفتي الحرم وأحد الفقهاء الأئمة روى عن ابن عباس وأبي هريرة وأم سلمة وعائشة ورافع بن خديج وزيد بن أرقم وابن الزبير، وابن عمرو وابن عمر وجابر ومعاوية وأبي سعيد وعدة من الصحابة. وكان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث انتهت إليه فتوى أهل مكة. قال عنه ابن عباس: يا أهل مكة تجتمعون علي وعنكم عطاء، ولسعة علمه وجلالة قدره كانوا في عهد بني أمية يأمرون في الحج منادياً يصيح لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح توفي سنة 115 هـ. هؤلاء بعض علماء التابعين من المدرسة المكية الذين نهضوا بعبء الدعوة والتعليم وإتمام البناء العلمي.

4 ـ المدرسة البصرية:

وهي منافسة للكوفة في كل الفنون، وقد نزلها من الصحابة جمع كثير، منهم أبو موسى الأشعري، وعمران بن حصين وأنس بن مالك وغيرهم، ويعتبر أنس بن مالك شيخ السادة من علماء التابعين أمثال الحسن البصري، وسليمان التيمي، وثابت البناني، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وإبراهيم بن أبي ميسرة، ومحمد بن سيرين، وقتادة وغيرهم.

ومن أشهر علماء المدرسة البصرية:

أ ـ محمد بن سيرين البصري:

كان مولى أنس بن مالك، سمع من ابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة وخلق سواهم، وعن حبيب بن الشهيد قال: كنت عند عمرو بن دينار فقال: والله ما رأيت مثل

طاووس، فقال أيوب السختياني وكان جالساً: واللـه لو رأى محمد بـن سـيرين لم يقلـه، وقال عثمان البتي: لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء من ابن سيرين. وكان الحسن البصري يقدمه على غيره، فعن ثابت البُناني، قال: كان الحسن متوارياً من الحجّاج فماتت بنـت له، فبادرت إليه رجاء أن يقول لي صلّ عليهـا، فبكى حتـى ارتفـع نحيبـه، ثـم قـال لي: اذهب إلى محمد بن سيرين، فقل له ليُصل عليهـا، فعـرف حـين جـاء الحقـائق، أنـه لا يعدل بابن سيرين أحداً. وكان محمد بن سـيرين يصـوم يومـاً ويفطـر يومـاً، وكـان قـد أشتهر بتفسير الأحلام وهو اشهر من أن يعرف في هذا الباب قال عنه الذهبي: قد جـاء عن ابن سيرين في التعبير عجائب، وكان لـه في ذلـك تأييـد الهـي. وكـان يلـبس الثيـاب الثمينة والطيالس والعمائم، وكان صاحب ضحك ومزاح، وكان باراً بأمـه قالـت حفصـة بنت سيرين: كانت والدة محمد حجازية وكان يعجبها الصبغ، وكـان محمـد إذا أشـترى لها ثوباً أشترى ألين ما يجد، فإذا كان عيد، صبغ لها ثياباً وما رأيته رافعـاً صـوته عليهـا، كان إذا كلمها كالمصغي إليها، وعن ابن عون، أن محمداً كان إذا كـان عنـد أمـه لـو رآه رجل لا يعرفه ظن أن به مرضاً من خفض كلامه عندها. وقال ابن عون: كانوا إذا ذكروا عند محمد رجلاً بسيئة ذكره هو بأحسن ما يعلـم. وجـاءه نـاس فقـالوا: إنـا نلنـا منـك فاجعلنا في حلّ، قال: لا أُحلّ لكـم شـيئاً حرّمـه اللـــه. تـوفي ابـن سـيرين بعـد الحسـن البصري بمئة يوم، سنة عشر ومئة.

ب ـ قتادة بن دعامة السدوسي:

كان من أوعية العلم، روى عن بعض الصحابة وكبار التابعين وكـان ثقـة حجـة في الحديث، قال عنه أحمد بن حنبل: كـان قتـادة عالمـاً بالتفسـير وبـاختلاف العلـماء ثـم وصفه بالفقه والحفظ وقال: قلما تجـد مـن يتقدمـه. وقـال: كـان قتـادة أحفـظ أهـل البصرة لا يسمع شيئاً إلا حفظه قرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها. قال سلام بن مطيع: كان قتادة يختم القرآن في سبع، وإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث. قال عنه الذهبي: حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين، كان رأساً في العربية والغريب وأيـام العرب وأنسابها، وكان من تلاميذ الحسن البصري، وجالسه اثنتي عشرة سنة وصلى معه الصبح ثلاث سنين، توفي سنة ثماني عشرة ومائة.

5ـ المدرسة الكوفية :

نزل الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر رضي الله عنهم أجمعين، وقد اهتم عمر بالكوفة ووجه عبد الله بن مسعود واجتهد ابن مسعود في إيجاد جيل يحمل دعوة الله فهماً وعلماً وكان له الأثر البالغ في نفوس الملازمين له، أو من جاء بعدهم، وقد اشتهر مجموعة من تلاميذ ابن مسعود بالفقه والعلم والزهد والتقوى منهم، علقمة بن قيس، مسروق بن الأجدع، عبيدة السلماني، الأسود بن يزيد، ومرة الجعفي وغيرهم، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة الكوفية:

أ ـ عامر بن شرحبيل الشعبي:

كان علامة عصره ومن أفقههم، روى عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر وجمهرة غيره حتى قيل أنه أدرك خمسمائة من الصحابة، لذلك كان صاحب آثار كثير العلم والفقه. قال محمد بن سيرين: لقد رأيته يستفتى والصحابة متوافرون بالكوفة ورغم هذا العلم الواسع فقد كان ينقبض عند الفتوى، وكثيراً ما يقول لا أدري، لأنه كان يعتبرها نصف العلم، وقد قال الشعبي: إنا لسنا بالفقهاء، ولكنّا سمعنا الحديث فرويناه ولكن الفقهاء من إذا علم عمل، ومن نكاته اللاذعة، ما رواه الأعمش قال: أتى رجل الشعبيَّ، فقال: ما اسم امرأة أبليس؟ قال: ذاك عرس ما شهدته، توفى سنة أربع ومائة وقيل ست ومائة وقيل خمس ومائة.

ب ـ حمّاد بن أبي سلمة:

فقيه أهل العراق، روى عن أنس بن مالك وتتلمذ على يدي إبراهيم النخعي وهو أنبل أصحابه وأفقههم وأقيسهم وأبصرهم بالمناظرة. وكان أحد العلماء الأذكياء والكرام الأسخياء، له ثروة وحشمة وتجمُّل، وكان أفقه أهل الكوفة عليّ وابن مسعود وأفقه أصحابها علقمة، وكان أفقه أصحابه إبراهيم، وأفقه أصحاب إبراهيم حماد، وأفقه أصحاب حماد أبو حنيفة، وأفقه أصحابه أبو يوسف، وانتشر أصحاب أبي يوسف في الآفاق، وأفقههم محمد، وأفقه أصحاب محمد أبو عبد الله الشافعي رحمهم الله تعالى. وقد

توفي حماد سنة عشرين ومائة.

6ـ المدرسة اليمنية:

من أشهر علمائها من الصحابة الذين ساهموا في دخول الإسلام فيها معاذ بن جبل، علي بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري وغيرهم، ومن أراد التوسع فليراجع الرسالة العلمية للدكتور عبد الله الحميري، الحديث والمحدثون في اليمن في عصر الصحابة، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة اليمنية:

أ ـ طاووس بن كيسان:

فقيه أهل اليمن وقدوتهم، وأعلمهم بالحلال والحرام من سادات التابعين، روى عن ثلة من الصحابة الكرام، كزيد بن ثابت وأبي هريرة، وزيد بن أرقم، وابن عباس وهو معدود من كبراء أصحابه. وروى عن معاذ مرسلاً. كان من أبناء الفرس الذين جهزهم كسرى لأخذ اليمن له، كان فقيهاً جليلاً بركة لأهل اليمن. أدرك خمسين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال له عمر بن عبد العزيز في عهد سليمان: أرفع حاجتك إلى أمير المؤمنين. قال: ما لي إليه حاجة فكأن عمر عجب من ذلك. ومن أقواله: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج. وقال: البخل أن يبخل الرجل بما في يديه، والشح أن يحب أن يكون له ما في أيدي الناس. وقال عنه قيس بن سعد الطاووس فينا مثل ابن سيرين فيكم. وقال بن المديني: كان سفيان لا يعدل من أصحاب ابن عباس بطاووس أحد. وكان رحمه معتزلاً الأمراء والسلاطين إلا إذا أكره على عمل لهم، وإذا طلب أداء نصيحة فإنه لا يجامل أحداً ويصدع بالحق، توفي بمكة سنة ست ومائة للهجرة.

ب ـ وهب بن منبه:

أبو عبد الله وهب بن منبه من أبناء فارس كان ينزل ذمار. وكان ممن قرأ الكتب ولزم العبادة وواظب على العلم وتجرد للزهادة. وقال عنه الذهبي: الإمام العلامة، الأخباري القصصي. وقال العجلي: تابعي ثقة كان على قضاء صنعاء وذكره شيرازي في فقهاء التابعين باليمن. وكان صاحب حكمة وفطنة، وكان له أثر في محاربة الخوارج في اليمن

وتحذير الناس من آرائهم، وإليك حواره مع أبي شمَّر الخولاني لما دخل على وهب بن منبه برفقة داود بن قيس، وتكلم داود لوهب وقال عن صاحبه أبي شمّر الخولاني إنه من أهل القرآن والصلاح، والله أعلم بسريرته، فأخبرني أنه عرض له نفر من أهل حروراء ـ يعني الخوارج ـ فقالوا له: زكاتك التي تؤديها إلى الأمراء لا تجزئ عنك، لأنهم لا يضعونها في موضعها، فأدها إلينا، ورأيت يا أبا عبد الله أن كلامك أشفى له من كلامي، فقال: يا ذا خولان أتريد أن تكون بعد الكبر حرورياً تشهد على من هو خير منك بالضلالة؟ فماذا أنت قائل لله غداً حين يقفك الله؟ ومن شهدت عليه، فالله يشهد له بالإيمان، وأنت تشهد عليه بالكفر، والله يشهد له بالهدى وأنت عليه بالضلالة، فأين تقع إذا خالف رأيك أمر الله وشهادتك شهادة الله؟ أخبرني يا ذا خولان ماذا يقولون لك؟ فتكلم عن ذلك وقال لوهب: إنهم يأمرونني أن لا أتصدق إلا على من يرى رأيهم ولا أستغفر إلا له، فقال: صدقت، هذه محنتهم الكاذبة، فأما قولهم في الصدقة، فإنه قد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر أن امرأة من أهل اليمن دخلت النار في هرة ربطتها، أفإنسان مما يعبد الله يوحده ولا يشرك به أحب إلى الله أن يطعمه من جوع أو هرة؟ واله يقول: " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا " (الإنسان, الآية : 8). وأما قولهم لا يستغفر إلا لمن يرى رأيهم أهم خير أم الملائكة، والله يقول: " وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ " (الشورى, الآية : 5) فوالله ما فعلت الملائكة ذلك حتى أمروا به " لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ " (الأنبياء, الآية : 27). وجاء ميسراً " وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا " (غافر, الآية : 7)، واستمر معه في الحوار والنقاش إلى أن قال ذو خولان: فما تأمرني؟ قال: انظر زكاتك فأدها إلى من ولاه الله أمر هذه الأمة، وجمعهم عليهم، فإن الملك من الله وحده وبيده يؤتيه من يشاء فإذا أديتها إلى والي الأمر برئت منها، وإن كان فضل فصل به أرحامك ومواليك وجيرانك والضيف، فقال: أشهد إني نزلت عن رأي الحرورية. توفي وهب رحمه الله سنة عشر ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك, وقيل إن يوسف بن عمر والي اليمن ضربه حتى قتله، ولعل ذلك بسبب موقف وهب من جور يوسف بن عمر المشهور بعنفه وظلمه.

7ـ المدرسة المصرية:

تكونت في مصر مدرسة كان شيوخها من الصحابة الذين رحلوا إليها أيام الفتح ونزلوا في موضع الفسطاط والأسكندرية، ومن هؤلاء عمرو بن العاص، عبد الله بن عمرو بن العاص، الزبير بن العوام، وكان من أكثر الصحابة تأثيراً في مصر عقبة بن عامر رضي الله عنه، وغير ذلك من الصحابة يرجع إليهم الفضل في دعوة الناس وتوجيههم نحو دينهم، وجاءت طبقة التابعين، وكان منهم أئمة ودعاة، ومن هؤلاء:

يزيد بن أبي حبيب: الإمام الحجة، مفتي الديار المصرية أبو رجاء الأزدي كان من جلة العلماء العاملين، ارتفع بالتقوى مع كونه مولى أسود. قال عنه الليث بن سعد: يزيد بن أبي حبيب سيدنا وعالمنا. توفي سنة ثمان وعشرين ومائة.

8 ـ مدرسة شمال إفريقيا:

دخل القادة الفاتحون شمال إفريقيا وكان على رأسهم عمرو بن العاص ثم عبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنهم ثم تابع معاوية بن حديج فتح إفريقية، وولى معاوية بن أبي سفيان على مصر وإفريقية، وجاء بعده عقبة بن نافع الفهري فاختط مدينة القيروان، وسار في الناس سيرة حسنة وكان من خيار الولاة والدعاة، الذين جاهدوا ودعوا بالسيف والكلمة ثم قام على إفريقية ولاة صالحون ساروا على النهج نفسه. وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث إسماعيل بن أبي المهاجر والياً على إفريقية سنة مائة، فكان داعية إلى الإسلام بلسانه وأعماله وأخلاقه، فأحبه الناس، وأحبوا دينه، وحرص على دعوة البربر إلى الإسلام، فاستجابوا لدعوته، وأسلموا على يديه، واهتم إسماعيل بتعليم الناس أحكام الشريعة، وتفقيههم في الحلال والحرام وكان عمر بن عبد العزيز بعث معه عشرة من التابعين من أهل العلم والفضل، وأهل إفريقية يومئذ من الجهل بحيث لا يعرفون أن الخمر حرام حتى وصل هؤلاء فعلموا الناس الحلال والحرام، وسيأتي الحديث عن الفقهاء العشرة في محله بإذن الله ومن خلال ما سبق من الحديث عن المدارس العلمية يظهر أهمية توريث العلم والخبرات الدعوية عند السلف وامتداد ذلك يشمل أقاليم الدولة الإسلامية

ونستفيد أيضاً أهمية تفريغ مجموعة من أذكياء الأمة للتعلم والتعليم والافتاء والإرشاد والوعظ ونشره بين الناس.

***

نهى النبي محمد عن كتابة غير القرآن في أول الأمر؛ مخافة اختلاط غير القرآن به، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره، ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوي بتدوين الحديث الشريف فنسخ الأمر، وصار الأمر إلى الجواز. وقد ثبت أن كثيراً من الصحابة قد أباحوا تدوين الحديث وكتبوه لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصلون بكتابة الحديث وحفظه.

ويذهب بعض المحققين الى أنّ النهي عن كتابة الحديث لم يكن نهياً شرعيّاً، ولم يصح ما نُسب من الروايات ـ الناهية عن التدوين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. بل إن قرار النهي والمنع كان نابعاً من موقفٍ سياسي اتخذه الخليفة عمربن الخطاب ومِن بعده الخلفاء. ومن الطبيعي أن تنقل روايات عن رسول الله في المنع لتصحيح مواقف الخليفة. إذ لو ثبت المنع عن رسول الله وعُرف هذا بين المسلمين لما دوَّن أبوبكر خمسمائة حديث، ولما تلقّى عمّن ائتمنه ووثق به! ولما كتب إلى عمرو بن العاص وأنس بن مالك بأحاديث رسول الله في الصدقة وغيرها.

منع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب تدوين الحديث النبوي في خلافته لم يسمح بكتابته من رواة الحديث وكان التعليل لهذا المنع هو لئلا يقع الخلط بين القرأن والحديث النبوي عند المسلمين. واستمر الحكام الامويون بممارسة هذا المنع لفترة طويلة مما ولد الكثير من الشك في نسبة الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ولعل طلائع التدوين الرسمي للحديث النبوي، أي الذي قامت به جهة مسؤولة في الدولة الإسلامية، كان على يدي عبد العزيز بن مروان (والد عمر) عندما كان أميراً على مصر، بيد أن التدوين الذي آتى ثماره هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد تجلى ذلك في إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك،

فمن إرشاداته قوله: « أيها الناس، قيدوا النعم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتابة».

قام عمر في مدة خلافته القصيرة ببعض الإنجازات الإيجابية والمفيدة، منها: إنه ألغى المنع والحظر عن رواية الحديث وكتابته الذي كان عليه سلفه من الحكام، وأمر بتدوينه. فقد روى البخاري: أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن حزم الذي تقلد القضاء أن انظر ما كان من سنة أو حديث فإني خفت اندراس العلم وذهاب الحديث. يذهب بعض علماء أهل السنة الذين نقلوا رسالة عمر بن عبد العزيز المذكورة: أن تاريخ الرسالة هو تاريخ تدوين الحديث حيث بدأ التدوين منذ تاريخ أمر عمر بن عبد العزيز أي من السنة الأخيرة من القرن الأول أو السنة الأولى من القرن الثاني.

لقد تبنت حكومة عمر جمعها رسميًا، فكتب إلى الآفاق:(انظروا حديث رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فاجمعوه. وكان فيما كتب إلى أهل المدينة: انظروا حديث رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فاكتبوه، فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله).

وأصدر عمر أوامره إلى بعض الأئمة العلماء بجمع سنن وأحاديث النبي محمد، وقد حمله على ذلك ما رآه عند كثير من التابعين في إباحة كتابة الحديث، وهم قد حملوا علماً كثيراً، فخشي عمر على ضياعه، وخشي من فشوّ الوضع ودس الأحاديث المكذوبة وخلطها بالصحيح من كلام النبي محمد، بسبب الخلافات المذهبية والسياسية، وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهري: «لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبت حديثاً ولا أذنت في كتابه». ورأي الزهري هذا كان رأي كثير من أئمة ذلك العصر، حيث خافوا على الحديث النبوي من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفز العلماء على حفظ السنة بتدوينها، وجاء رأي السلطة العليا ممثلاً بالخليفة عمر بن عبد العزيز، فاتخذ خطوة حاسمة بتدوين الحديث النبوي، وجعل من مسؤوليات الدولة حفظ السنة المطهرة.

كتب عمر إلى الإمام أبي بكر بن حزم، وهو أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء، يأمره بذلك، ففي صحيح البخاري: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم:

«انظر ما كان من حديث رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حـديث النبـي صـلى اللــه عليـه وسـلم, ولتُفشـوا العلم، ولتُجلسوا حتى يعلم ما لم يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً».

وروى ابن سعد عن عبد اللـه بن دينار قال: كتب عمر بـن عبـد العزيـز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: «أن انظر ما كان من حديث رسول اللـه صلى اللــه عليه وسلم أو سنّة ماضية أو حديث عمرة بن عبد الرحمن، فاكتبه، فإني خفـت دروس العلم وذهاب أهله».

كما وجه كتاباً بهذا الشأن إلى الإمام ابن شهاب الزهري، فقـد ذكـر ابـن عبـد الـبر عن ابن شهاب قال: «أمرنا عمر بن عبد العزيـز بجمـع السـنن، فكتبناهـا دفـتراً دفـتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً».

وروى أبو عبيد أن عمر أمر ابن شهاب أن يكتب له السنّة في مصارف الزكاة الثمانية، فلبّى الزهري أمره، وكتب له كتاباً مطوّلاً يوضح ذلك بالتفصيل. ومـن هنـا قـال ابـن حجـر العسقلاني : «وأول من دوّن الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبـد العزيز، ثم كثر التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فلله الحمد».

بل إن عمر وجّـه أوامـرَه إلى أهـل المدينـة جميعـاً يـأمرهم ويحـثهم عـلى جمـع الحديث، يشارك في هذا كل من لديه علم، ولو كان بضعة أحاديث، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: «أن انظروا حديث رسول اللـه - صلى اللـه عليه وسلم - فاكتبوه، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله».

ولم يقف عمر عند ذلك، بل عمَّـمَ أوامـره إلى جميـع الأمصـار في الدولـة الإسـلامية، ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من الحديث، وروى: «انظروا حـديث رسـول اللــه صلى اللـه عليه وسلم فاجمعوه واحفظوه، فإني أخاف دروس العلم وذهاب العلماء».

فقد اختلف الصحابة رضي اللـه عنهم في جواز كتابة الحديث، فكرهها عمر وابن مسـعود وزيد بن ثابت وأبو موسى وأبو سعيد الخدري في جماعة آخرين من الصحابة، كما كرههـا بعـض التابعين. وأباحها علي وابنه الحسن وأنـس وعبـد اللــه بـن عمـرو رضي اللــه عـنهم، والحجـة

للفريق الأول ما روى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى اللـه عليه وسلم قال: "لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، ومن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه" رواه مسلم.

والحجة للفريق الثاني قصة أبي شاهٍ اليمني في التماسه من رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم أن يكتب له شيئاً سمعه في خطبته عام فتح مكة" وقوله صلى اللـه عليه وسلم " اكتبوا لأبي شاة" متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وفي البخاري من حديث أبي هريرة رضي اللـه عنه: "لم يكن أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد اللـه بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب" وفي رواية: استأذن رسول اللـه في الكتابة فأذن له. وفي السنن: أن عبد اللـه بن عمرو قال يا رسول اللـه: أكتب عنك في الرضا والغضب؟ فقال اكتب فو الذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق" وأشار بيده إلى فيه... ولعله - صلى اللـه عليه وسلم -أذن في الكتابة عنه لمن خشي عليه النسيان، ونهى عن الكتابة عنه لمن وثق بحفظه مخافة الاتكال على الكتابة، أو نهى عن كتابته حين خاف عليهم اختلاط ذلك بصحف القرآن وأذن في كتابته حين أُمِنَ من ذلك، ثم زال الاختلاف، وأجمع المسلمون على تسويغ ذلك وإباحته، ولولا تدوينه لدرس في الأعصر الأخيرة.

أما تدوين الحديث بصورة عامة، فقد همَّ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب به، واستشار الصحابة رضي اللـه عنهم فأشاروا عليه بذلك، ثم استخار اللـه شهراً، ثم قال: إني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً، فأكبوا عليها وتركوا كتاب اللـه عز وجل، وإني واللـه لا ألبس كتاب اللـه بشيء أبداً، رواه البيهقي. وفي هذا ما يؤكد أن علة نهي النبي صلى اللـه عليه وسلم عن كتابة الحديث هي ما ذكرنا قبل، من خشية أن يختلط على البعض القرآن بالسنة، لذا كان نهيه عن تدوين السنة عاماً، وإذنه كان خاصاً لظروف وملابسات معينه.

وأما تدوين السنة تدويناً عاماً، فتكاد تجمع الروايات أن أول من فعله هو الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، إذ أرسل إلى أبي بكر بن حزم عامله وقاضيه على المدينة قائلاً: "انظر ما كان من حديث رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء" وأمره أن يكتب ما عند عمرة بنت عبد الرحمن، والقاسم بن محمد. ورغب إلى محمد

بن مسلم الزهري أن يكتب بقية حديث أهل المدينة.

بل أرسل إلى ولاة الأمصار كلها وكبار علمائها يطلب منهم مثل هـذا، فقـد أخـرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان أن عمر بن عبـد العزيـز كتـب إلى أهـل الآفـاق (انظـروا إلى حديث رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسـلم فـاجمعوه) ثـم بعـد ذلـك شـاع التـدوين، وقمعت البدع. فلله الحمد والمنة أن حفظ كتابه، وهيأ رجالاً حفظـوا سـنة نبيـه صـلى الـلـه عليه وسلم.

***

لم يشأ الإسلام أن يجعل مسؤولية الفرد تجاه مجتمعه محصورة بمجتمعه المسـلم، بل جعلها مسؤولية موسعة بحيث تتوجه نحو جميع أفراد المجتمـع الواحـد، مـن أيـة ملة أو فئة كانوا، لا فرق بين المسلم وغير المسلم في المعاملة, ذلـك لأن فلسـفة الإسـلام الاجتماعية تهدف إلى إقامـة المجتمـع السـعيد المتكامـل، ليرعـى بعضـه بعضـا، ويـوفر أسباب الهناءة والطمأنينة لجميع الناس على السواء، فلا يصح من الناحيـة المنهجيـة أن يقال أن الإسلام يدعو إلى تحسين العلاقات بين المسلم والمسـلم فقـط، ويجعـل المسـلم مسؤولا عن مصلحة إخوانه في الدين فحسب.

ويؤيد هذا ما ذهب إليه رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسـلم في تعريـف المسـلم بقوله : «المسلم من سلم الناس من لسـانه ويـده »، إذ جعـل مسـؤولية الفـرد المسـلم منعكسة على جميع أفراد المجتمع، قاطعا النظر عن عقائـدهم وألـوانهم واتجاهـاتهم. على أنه يجب أن يكون حاضرا في الذهن، أن تحمل المسؤولية تجاه الآخرين مـن أبنـاء المجتمع كإحسان معاملتهم مـثلا، ومنـع الأذى عـنهم، وبـذل الخـير لهـم، لـيس معنـاه الخنوع والذل والتنازل عن الحقوق المشروعة، لأن فيه إضاعة لغايات الشرائع وإفسـادا للمجتمع نفسه.

والإسلام كدين اجتماعي من الطراز الأول، إذا كان قـد فـرض الفـرائض مـن صـلاة وزكاة، وصوم وحج، فإنما فرضها لتكون عاملا طيبـا في تزكيـة الـنفس البشريـة، وإحيـاء الضمير الإنساني، اللذين بهما يجد المجتمع ما يتطلع إليه من أمن وسلام وتعاون مثمر.

وعلى ضوء هذه النزعة الاجتماعية في الإسلام، كان من أهم أصـوله الوقـوف عـلى

حقوق الرعية ورعاية مصالحهم، وذلك وفق التوجيه النبوي..عَنْ عَبْدِ اللـهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللـهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللـهِ صلى اللـه عليه وسلم يَقُولُ: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" متفق عليه. وصاية من الحاكم على رعاية أفراد المجتمع، ومسؤولية واضحة المعالم، بها يتأكد لدى الحاكم أن المجتمع منه وهو بعضه، وأن هذه البعضية من كل الطرفين تجاه الآخر، تحمله على أن ينظر على أنه كيان هام بالنسبة إليه، لا يفرط بمصالحه، ولا يتأخر ببذل وسعه في سبيل راحته ومصلحته وسعادته.

وهذا ما ذهب إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز..قالت فاطمة بنت عبد الملك زوجته: إن عمر رحمة اللـه عليه كان قد فرَغ للمسلمين نفسه، ولأمورهم ذهنه، وكان إذا أمسي مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليلته إلى أن أمسى المساء وقد فرغ من حوائج يومه, فدعا بسراجه الذي كان من ماله الخاص، فصلى ركعتين ثم أقعى - جلس - واضعاً رأسه على يديه، تسيل دموعه على خدَّيه، يشهق الشهقةَ يكاد ينصدع لها قلبه, وتخرج له نفسه, حتى برِقَ الصُبح فأصبح صائماً، فدنوت منه وقلت له : يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان- أي صيام، وقيام، وعمل متواصل-؟ فقال : أجل يا فاطمة عليكِ بشأنكِ وخلِّيني وشأني قالت: إني أرجو أن أتعظ - أن أتعلم منك - أي ما شأنك؟ قال: إذاً أخبركِ، ما دمتِ تريدين أن تتعظي إذاً أخبرك، فقال: إني نظرت فوجدتني قد ولِّيت أمر هذه الأمة؛ أسودها وأحمرها، ثم ذكرت الفقير الجائع، والغريب الضائع، والأسير المَقْهور، وذا المال القليل والعيال الكثير، وأشباه ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن اللـه سائِلي عنهم جميعاً، وأن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم حجيجي فيهم، فخِفْت ألا يقبل اللـه مني معذرةً فيهم، وألا تقوم لي مع رسول اللـه حُجَّة، فرحمت نفسي يا فاطمة رحمةً دمعت لها عيني، ووجع لها قلبي، فأنا كلما ازددت لها ذكراً، ازددت منها خوفاً، فاتعظي إن شئت أو ذري.

كان الخليفة المؤمن وَقَّافٌ عند كتاب اللـه تعالى، دائماً يحاسب نفسه، مستشعرا

عظم المهمة، واقفا عند حدوده، يرعي مصالح أمته ويتهم نفسه بالتقصير.

فهو يرعي أمته رعاية كاملة دون نقص أو تجزئة؛ فهو يعلم أن الرعاية لا تتجزأ، وهي وحدة متكاملة، وبالتالي فهو مسئول عنها، (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ), إعلم أنك إذا حكمت بين طفلين في لعب أنت مسئول عن حكمك فيهم، فمابالك بأمة أنت مسئول عن صغيرها وكبيرها، وجائعها وفقيرها ويتيمها وأسيرها.. فالمهمة عظيمة لا يستشعرها إلا من خشي ربه.

هكذا كان عمر يستشعر المسئولية فكانت تؤرق مضجعه. إنه قد قام بأمر عظيم في نفسه وهو شعوره بالمسؤولية في ثقلها تجاه الأمة، فإنه لما ولي قال: إني أعلاج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد شب عليه الصغير، وهرم عليه الكبير، وهاجر عليه الأعرابي حتى حسبه الناس ديناً. هكذا عندما يستشعر الإنسان حجم المسؤولية فإنه يبذل لها.

لقد أوزع الله في قلب عمر الرحمة والرفق بأمته، لما كان مؤمنا حقا، والله عز وجل رفيق يحب الرفق في الأمر كله، فكلما نما الإيمان في قلب الإنسان ازداد رفقاً بمن حوله، ازداد لطفاً بمن حوله، فالقيادة ليست بالشيء السهل واليسير بل هم بالليل وهم بالنهار.

بدأ بنفسه فجردها من كل ما ليس بحق لها، ثم بأهله، فرد الأموال العظيمة إلى بيت المال، فنظرت إليه الرعية، فوجدوه قدوة يلبس مما يلبسون، ويأكل مما يأكلون، بل إنه كان حقيقة أقل من رعيته، فإنه حرم نفسه وأهل بيته من أمور كثيرة لما فيها من الشبهة عنده؛ ولأنه لا يرى لنفسه حقاً فيها، فاستطاع أن يجد الولاء من عامة الشعب كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، حتى أهل الكتاب.. لقد استمال القلوب إليه حتى واصل العطاء حتى قبض رحمه الله.

***

اهتم الخليفة العادل بكافة صور الحرية الإنسانية، فجاء مستعرضاً لأنواع وصور الحرية، فأقر ما كان فيها موافقاً لتعاليم الإسلام وأعاد ما لم يكن كذلك إلى دائرة التعاليم الإسلامية.

ومن ذلك سياسته حيال النصارى واليهود كانت تلتزم بالوفـاء بـالعهود والمواثيـق وإقامة العدل معهم ورفع الظلم وعدم التضييق عليهم في معتقـدهم وديـنهم انطلاقـاً من قوله تعالى: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" (البقرة، الآية: 256).

وكان عمر ينهج أسلوب الدعوة مع ملوك الهند، والقبائل الخارجة عن الإسلام.

وأما حرية الفكر مـن حيـث الـرأي والتعبـير، فقـد أخـذت نطاقـاً واسـعاً في إدارة الدولة، وقيادته لعماله ورعيته، فقـد أتـاح لكـل مـتظلم أن يشـكو مـن ظلمـه وأطلـق للكلمة حريتها، وترك للناس حرية أن يقول كلٌ ما يريد. وقد عبر عن هـذا القاسـم بـن محمد بن أبي بكر الصديق بقوله: اليـوم ينطـق كـل مـن كـان لا ينطـق، إذا لم يخـالف الشرع.

كما أعلن عمر استئناف الحرّية السياسية التي منحها الإسلام للمسلمين إذ لإطاعة لا مخلوق في معصية الخالق، حتى وإن كان حاكما أو والياً. فقد أعلن عمر في أول يـوم من أيام حكمـه الحريـة في الأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، وأن الإسـلام لا يـرضى السكوت عن الظلم. فقد خطـب في النـاس يومـاً فقـال: ألا لا سـلامة لامـرئ في خـلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية اللـه، ألا وإنكم تسمون الهارب مـن ظلـم إمامـه: العاصي، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم.

ومما يدل على إعطاء عمر للناس الحريـة السياسـية أن أول إجـراء اتخـذه عقـب إعلان العهد له بالخلافة تنازله في الخلافة، وطلب من النـاس أن يختـاروا خليفـة، فـإذا كانت الحريـة السياسـية تـتجلى في ممارسـتها في موضـعين: أولهـما المشـاركة في اختيـار الحاكم عن طريق أهل الحل والعقد، وبيعة المسلمين ورضاهم. وثـانيهما: إبـداء الـرأي والنصح للحكام، ونقد أعمالهم بمقاييس الإسلام فإن عمر قد مارس الحرية السياسية في هذين الموضعين فجعل لهم الخيار في توليه الخلافة قبل الوعظ والنصح.

الفصل الرابع

الإصلاح الاقتصادي والقضاء على الفساد

عرف عمر بن عبد العزيز قيمة مال الدولة؛ فلم ينفقه إلا فيما فيه نفع الأمة، وكان يكره التصرف في المال العام بلا ضابط أو رقيب، وكأنه مال خاص للخليفة أو الحاكم ينفقه كيفما شاء، ويعطيه لمن شاء؛ ولذا كان يحترز في إنفاق مال الدولة؛ لأنه أمانة يجب صيانتها، ولكل فرد في الأمة حق فيها يجب حفظه، وعمل على الإصلاح المالي والإداري في الدولة، ورسم لذلك منهجا وخطة للقضاء على كل مظاهر الفساد فيها وكان لها أثر طيب في فرض الأمن والإستقرار في ربوع البلاد، لقد أعطى عمر من نفسه القدوة والمثال في حفظ مال الدولة، فتبعه ولاته، وانتهجوا طريقته.

واكب الخليفة عمر بن عبدالعزيز المجتمع الإسلامي وهو يعج بالاضطرابات السياسية، والانقسامات الاجتماعية، وحيثما حلت الفوضى السياسية عاصرها انهدام اقتصادي، أضف إلى ذلك عامل سوء الإدارة وانحلال القيم الناهش في جسم الاقتصاد الوطني، الذي ترك حجماً هائلاً وعبئاً ثقيلاً على حركة الاقتصاد وغيرها، حتى وصفها عمر بن عبدالعزيز فقال: "الوليد بالشام، وقرة بمصر، والحجاج بالعراق، وعثمان بن حيان بالحجاز، امتلأت الأرض والله جورا"، فلذا كتب إلى بعض عماله: "أما بعد: فكن في العدل والإحسان كمن كان قبلك في الجور والظلم والعدوان".

وفي خضم هذه المتغيرات، ومن بين الركام الاقتصادي، والاضطراب السياسي، والتهافت الخارجي الطامع في مقدرات الأمة الإسلامية، ظهر عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، ذلك الفتى المنعم بأقصى درجات الرفاهية حيث قيل، "قومت ثياب عمر وهو يخطب

باثني عشر درهما وكانت حلته قبل ذلك بألف درهم لا يرضاها"، والمثقف بأعلى درجات المعرفة، قال أحمد بن حنبل: "ليس قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه"، وقال ميمون بن مهران: "كانت العلماء مع عمر بن عبدالعزيز تلامذة"، المتوازن في التسلسل المنهجي والإبداع المنطقي في التعامل مع الأحداث.

ومن بين كل ذلك نهض وأخذ يتصور الوضع المقبل لحركة المجتمع الإسلامي في الأيام القابلة، وفي زمن قياسي وضع خطة مفتوحة لبناء نظام اقتصادي تطبيقي متكامل، كفيل بترتيب الأوضاع الاقتصادية ويتجاوز كل المعوقات، ويجني اكتفاءً ذاتياً ووفراً مالياً ثابتاً، بالاعتماد على المكتسبات الثابتة والممكنات المتغيرة، ووضع نفسه في حالة طوارئ حيث وصفها لمّا بُويع بالخلافة، حين أرسل إلى نسائه: من أرادت منكن الدنيا فلتلحق بأهلها فإن عمر قد جاءه شغل شاغل، وكتب إلى الحسن البصري يقول له: "إني قد ابتليت بهذا الأمر فانظروا إليّ أعوانا يعينوني عليه"، ومع ذلك ففي عامين ونصف حقق تقدماً اقتصادياً في المجتمع الإسلامي الممتد من الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً، فكان عامه الأول عام إصلاح وترميم، وما بعد ذلك جاء الاستقرار الاقتصادي الشامل، إضافة إلى الاستقرار السياسي والاجتماعي.

لقد تنبّه إلى حاجة الدولة الاقتصادية، وأدرك أهمية الإصلاح الاقتصادي في الاستقرار العام للدولة، وأن الفساد الإداري والمالي، عامل رئيس في الانحدار الاقتصادي والتردي السياسي والاجتماعي، والمؤثر المباشر على حركة المجتمع عامة.

تتبع كل مظاهر الفساد الوظيفي والمالي، ووضع القواعد والأحكام التي تضبط العملية الاقتصادية كلها.

كما لجأ عمر إلى رفع المعاناة على الأمة وحذف كل أنواع الضرائب الزائدة واقتصر على ما يسمح به القانون وحده ولم يضعف ذلك ميزانية الدولة بل تضاعف دخلها كما تضاعت ثروة المجتمع بشكل لم يعرفه مجتمع أخر في التاريخ وهو عدم وجود عجز في الموارد الإقتصادية أو تأخر في عجلة التنمية بل قفزت كل مقدرات الدولة حتى أنه لم

يوجد فقير واحد تحل فيه الصدقة.

المنهج الذي اتبعه عمر في معالجة الأوضاع الاقتصادية لفترة خلافته، مع أنها كانت فترة وجيزة جداً إذا ما قورنت مع خطط التصحيح الاقتصادي في العصر الحديث، ومع ذلك حقق نجاحاً منقطع النظير، وحقق أهدافه التصحيحية.

عمل على معالجة الوضع القائم ووقف الهدر المالي، وحرر بيت المال من الأعباء المالية الراتبة عليه كاستحقاقات فردية للمتنفذين أوجبها لهم من سبقه من الخلفاء، وعمل على ترشيد نفقات القطاع العام والخاص، كما خطط لتوسيع موارد الدولة وبناء رأس مالها المستقل، وأعاد توزيع الدخل توزيعاً عادلاً، حتى أصبح المال في العام الثاني في متناول جميع طبقات المجتمع، فحقق بالنهج الإصلاحي الاستقرار بكل أبعاده، على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي, فقد عمل على دفع عجلة التنمية الاقتصادية من خلال المتاح من الأموال والطاقات المتيسرة، ووسع مجالات الاستثمار.

وإذا تتبعنا منهجه في الإصلاحات الاقتصادية، نجده قد تابع برنامجه الإصلاحي منذ تولي الخلافة حتى لحظات النزاع الأخير، قال مجاهد: قال لي عمر بن عبدالعزيز: ما يقول الناس فيَ- أي في مرضه الذي مات فيه - قلت: يقولون مسحور، قال: ما أنا بمسحور وإني لأعلم الساعة التي سقيت فيها، ثم دعا غلاماً له فقال: له ويحك ما حملك على أن تسقيني السم، قال ألف دينار أعطيتها، وعلى أن أعتق، قال هاتها قال فجاء بها، فألقاها في بيت المال وقال اذهب حيث لا يراك أحد، ثمن دمه وضعه في بيت مال المسلمين.

وهنا نرى أنه رضي اللـه عنه:

1) استشعر حجم الظلم والجور الذي ملأ الأرض.
2) وجه ولاته إلى العدل والإحسان.
3) استشعر حجم المسؤولية المناطة به ونهض على قدرها.
4) إصراره على متابعة الإصلاحات حتى اللحظات الأخيرة من حياته.

رتب الخليفة عمر بن عبدالعزيز أهدافه من الإصلاح الاقتصادي والمبادئ التي استند إليها, فالإنسان هو محور العملية الاقتصادية، والإسلام يدعو إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، والتي تتناول جميع طبقات المجتمع بحيث لا يستبد الغني في غناه ولا يتردى الفقير بفقره، ولكن الإسلام يدعو إلى التقارب بين هذه الطبقات، وغالبا السياسة الاقتصادية، من العوامل الرئيسة في تحقيق العدالة الاجتماعية، وعندما يفقد المجتمع الرفاه أو التقارب الطبقي دل على التيه السياسي على مستوى التنظير والتطبيق، ويقتضي ذلك التصحيح والإصلاح الاقتصادي، وحتى يتم ذلك لا بد له من مبادئ تسنده، وأهداف تحققه.

وهذا ما فعله عمر بن عبدالعزيز لما تسلم سلطات الخلافة، شرع في الإصلاح الاقتصادي الشامل ويظهر ذلك من خلال استقراء خطابه العام للمجتمع، أو الخاص للولاة وعمال الدواوين، فقد قرر بعض المبادئ التي استند إليها في تحقيق العدالة الاجتماعية، من خلال إعادة توزيع الثروة بشكل عادل وشامل، ودفع عجلة التنمية الاقتصادية، لتحقيق الرفاه الاجتماعي.

واعتمد المبادئ الإسلامية للإصلاح، وعمقها في عناصر التصحيح الاقتصادي ونشرها بين الأمصار وحمل المجتمع عليها بشتى الوسائل، ولم يتهاون فيها، لأن كل عمل لا بد له من مبادئ عامة ينطلق منها في البناء أو التصويب، فلذا كان عمر يتحري هذه المبادئ، ويبحث عنها لرسم سياسة النهج الإصلاحي بكل أبعاده السياسية والاجتماعية والاقتصادية،وأهم هذه المبادئ هي:

- العدل: عامل مهم في تحقيق الاستقرار الكامل في العملية الاقتصادية أو النهج الإصلاحي، ويظهر من سؤال عمر بن عبدالعزيز لمحمد بن كعب القرظي حيث قال: دعاني عمر بن عبدالعزيز، فقال: صف لي العدل، فقلت: بخ سألت عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك وعاقب الناس على قدر ذنوبهم، وعلى قدر أجسادهم، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتعد من العادين، ويتجلى ذلك من جوابه لما كتب بعض عماله إليه " أما

بعد: فإن مدينتنا قد خربت فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالا نرمها به- فرد عليه وقال- أما بعد: فحصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم فإنه مرمتها والسلام "، فإقامة العدل أهم من إقامة البناء، لأنه مع العدل سعة، ومع الظلم ضيق ومشقة.

- رفع الظلم: لأن عواقبه وخيمة ويثبط الهمم ويقعد المجتمع عن المشاركة الإيجابية في المحافظة على المكتسبات أو الاندماج في البناء الشامل، ويؤثر على الشعور بالانتماء إلى المجتمع، فلذا عند رفع الظلم يصبح المجتمع مشاركاً في المحافظة على المقدرات، ويدفع عجلة البناء بكل فعالية، فلذا كان من بواكير أعماله إزالة الظلم ومضانه فعمد إلى الإصلاحات الآتية في هذا الجانب:

1- تبييض السجون وإخراج جميع المساجين: فالسجن غالبا ما يكون مستقراً للمظلومين أو لمن ارتكب جرماً لا يستدعي هذه العقوبة أو فعلاً يستحق تلك العقوبة، والأغلب من هم في هذه الأوضاع قد يجد العفو عندهم أثره الأبلغ والإيجابي في الإصلاح، فلذا أخرج المساجين، قال محمد بن يزيد الأنصاري: "بعثني عمر بن عبدالعزيز حين ولي فأخرجت من في السجون من حبس سليمان، ما خلا يزيد بن أبي مسلم"، وبعد ذلك لم يحتج عمر إلى هذه السجون ولم يدخلها أحد، بل قيل لم يعاقب أحداً في عهده إلا رجلا كان يزور الدنانير.

2- من مقتضيات العدل ورفع الظلم، مراجعة الأحكام السابقة الظالمة: والتي ترتب عليها حقوق للناس، أو الفصل فيها إذا ما أثيرت من جديد، ومنها ما كتب به عمر بن عبدالعزيز " برد أحكام من أحكام الحجاج مخالفة لأحكام الناس "، ورفع الظلم لم يتوقف به عمر بن عبدالعزيز عند المسلمين، بل شمل غير المسلمين، لأنهم وحدة إيجابية في عملية التكافل والبناء الاجتماعي، قال علي بن أبي حملة: " خاصمنا عجم أهل دمشق إلى عمر بن عبدالعزيز في كنيسة كان رجل من الأمراء أقطعها لبني نصر بدمشق فأخرجنا عمر عنها وردها إلى النصارى ".

3- مراجعة القضايا الكبرى والعالقة من حيث قانونيتها أو عدمها والفصل فيها:

قال الواقدي: "لم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبدالملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبدالعزيز فحطها عنهم"، وقال أبو عبيدة وغيره: "لما استخلف عمر بن عبدالعزيز، وفد عليه قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا فإن قضى بإخراج المسلمين، أخرجوا فنصب لهم جميع بن حاضر الباجي، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء فكره أهل مدينة سمرقند الحرب وأقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم".

4- إعادة الأموال التي أخذت من أصحابها ظلماً: لأنها تبقى حائلاً دون مشاركة الأفراد في مشروعات التنمية وتطوير الأوضاع الاقتصادية، وأن هذه الأموال تبقى في ذاكرة المجتمع مؤشراً سلبياً على ثقة الناس بالمصلح، لأن رفع شعار الإصلاح الاقتصادي يتعارض مع الصورة بإبقاء الظلم، لأن من لا يصلح القديم لا يحسن في الجديد، فكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عماله في مال قبضه بعض الولاة ظلماً فأمر برده إلى أهله وتؤخذ زكاته لما مضى من السنين ثم عقب ذلك، بأن لا يؤخذ منه إلا زكاة سنة واحدة، فإنه كان ضماراً.

5- رفع الضرر عن العامة وضمان ما أتلف من أموالهم إذا ما تعارضت المصلحة العامة مع الخاصة: قد تحتاج الدولة إلى بعض الأمور والتي قد تتعارض مع المصلحة الفردية لأفراد المجتمع، تحت أي سبب أو حاجة تقتضي ذلك الاستخدام، والذي قد يلحق الضرر بمصلحة الفرد، فان الدولة تغرم هذا الإضرار قال سعيد بن عثمان عن غيلان بن ميسرة: "أن رجلا أتى عمر بن عبدالعزيز فقال: زرعت زرعا فمر به جيش من أهل الشام فأفسدوه فعوضه عشرة آلاف درهم" هذا التعويض دافع إلى الأفراد بأن يستمروا في المشاركة والتفاعل مع النهج الإصلاحي، وأنهم ينتمون إلى مجتمع يقدر الجهد المبذول.

- الاستفادة من التجارب السابقة والخبرات، لأن التطبيقات السابقة والناجحة، محطات إيجابية في عرض التاريخ إذا ما استدعاها المرء واستعملها حسب منهج

إيجابي يحاكي به لغة العصر، فبذلك يتجاوز نقطة صفر البداية، ويتم حيث انتهى الآخرون، فلذا كتب عمر بن عبدالعزيز لما ولى الخلافة إلى سالم بن عبدالله أن اكتب إليَ بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها.

- اتخاذ البطانة الصالحة والإيجابية والفعالة في البناء الإصلاحي: ويظهر ذلك من توصيته لمن حوله، قال عمرو بن مهاجر: قال عمر بن عبدالعزيز: " يا عمرو إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلابيبي ثم هزني ثم قل لي ماذا تصنع "، وبين مكانة الشخصية الإيجابية في الانتقاد البناء لأحد حاشيته، لما قضى بقضية وكان عنده ميمون بن مهران فلما قام عن مجلس الحكم قال له ميمون بن مهران: يا أمير المؤمنين إنك حكمت بكذا وكذا وليس وجه الحكم على ما حكمت. قال: فهلا نبهتني! قال: إني كرهت أن أوبخك على رؤوس الناس، قال: فهلا فعلت فإن لقائل الحق سلطاناً.

- محاربة الرشوة وإغلاق مداخلها باسم الهدية، قال: عمرو بن مهاجر اشتهى عمر بن عبدالعزيز تفاحاً، فأهدى له رجل من أهل بيته تفاحاً، فقال: ما أطيب ريحه وأحسنه ارفعه يا غلام للذي أتى به، وأقرئ فلاناً السلام، وقل له إن هديتك وقعت عندنا بحيث نحب، فقلت يا أمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك، وقد بلغك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل الهدية فقال ويحك إن الهدية كانت للنبي صلى الله عليه وسلم هدية وهي لنا اليوم رشوة.

- المحافظة على الأمن السياسي والاجتماعي: لأن الأمن الاقتصادي مرتبط بهما ويساهمان في تشكيل المناخ المناسب لاستقرار الأوضاع الاقتصادية، فقال: " قرة عين الملوك في استفاضة الأمن في البلاد، وظهور مودة الرعية لهم وحسن ثنائهم عليهم "، فكان عمر بن عبدالعزيز يشرف بنفسه على ذلك حيث خرج ومعه حرسي فدخل المسجد فمرّ في الظلمة برجل نائم فعثر به فرفع رأسه إليه فقال: أمجنون؟ قال: لا، فهم به الحرسي، فقال له عمر: " مه إنما سألني أمجنون أنت فقلت: لا ".

- العمل المتواصل وعدم تأجيل عمل اليوم إلى يوم آخر: لأن الاستمرار في العمل بنسق واحد ومستمر يؤدي إلى الغاية المنشودة، وما أنجز من العمل فإنه يأخذ دوره وأثره المباشر في حركة الإصلاح، ولا يشكل عبئاً على عناصر العمل في اليوم الآخر، فلذا لما قال ريان بن عبدالعزيز، لعمر بن عبدالعزيز يا أمير المؤمنين لو ركبت فتروحت قال عمر: فمن يجزي عمل ذلك اليوم، قال: تجزيه من الغد، قال: " لقد كدحني عمل يوم واحد فكيف إذا اجتمع علي عمل يومين في يوم واحد ".
- المرجعية الثابتة للولاة في الإصلاح: وعدم فتح مداخل الهوى أو رغبات النفوس على المنهاج الإصلاحي، لأنه بذلك ترتفع وتيرة الظلم والإفساد، قال يحيى الغساني:" لما ولاني عمر بن عبدالعزيز الموصل قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقة ونقباً فكتبت إليه أعلمه حال البلد وأسأله آخذ الناس بالظنة، وأضربهم على التهمة، أو آخذهم بالبينة، وما جرت عليه السنة، فكتب إليّ أن آخذ الناس بالبينة، وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله، قال يحيى: " ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقة ونقبا ".

ومنها ما قال السائب بن محمد: "كتب الجراح بن عبدالله إلى عمر بن عبدالعزيز إن أهل خراسان قوم ساءت رعيتهم، وإنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك"، فكتب إليه عمر: "أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر أن أهل خراسان قد ساءت رعيتهم وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط، فقد كذبت بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام"، لأن إهانة الشخصية الإنسانية وهدر كرامتها يتعارض مع المبادئ الثابتة، قال تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ" (الإسراء:70)، لأن الشخصية المقهورة أو المهانة لا تصلح في مشروعات التنمية والإصلاح أو تكون صالحة الانتماء.

- قمع محاولات التزوير أو العمل على التضخم المالي: الأصل أن يكون هناك توازن بين كثرة الأموال النقدية وحاجة السوق، لحفظ القيمة الشرائية للعملات، وزج

السيولة النقدية بغير ضبط قد يؤثر على الوضع الاقتصادي، قال الواقدي: "أتي برجل إلى عمر بن عبدالعزيز يضرب على غير سكة السلطان فعاقبه وسجنه وأخذ حديده فطرحه في النار"، كما حث على تبديل العملات المضروبة من الأسواق، قال الأوزاعي: كتب إلى خزان بيوت الأموال أن: " إذا أتاكم الضعيف بالدينار لا ينفق عنه، فأبدلوه من بيت المال ".

- العدل المالي ورفع الظلم: من خلال رؤيته الثاقبة بوجود انتهاكات في تطبيق السياسة المالية لمن سبقوه من أمراء بني أمية، من خلال قوله فيما سبق ذكره: « وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيها عليه الصلاة والسلام, ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم »، وهو ما دفعه إلى ترسيخ قيم الحق والعدل ودفع الظلم وجعلها أساسا لقيام سياسة مالية راشدة، فجميع الأهداف والوسائل التي اتبعها كانت تنسجم مع هذا الأساس، وإحقاق الحق ودفع الظلم، هو أصل من أصول الشريعة، ومقصد رئيسي من مقاصدها، قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) (الحديد: 25). يقول ابن القيم: فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة. ولقد كان عمر يرجع للحق إذا تبين له الخطأ، ويقول في ذلك: ما من طينة أهون علي فتا، ولا كتاب أيسر علي ردا من كتاب قضيت به، ثم أبصرت أن الحق في غيره ففتتها.

***

فقد تواترت النقول المفيدة أنه بلغ من حرصه على ذلك أقصى المراتب فقد استشعر عظم المسؤولية وضخامة الحمل منذ اللحظة الأولى لاستلامه الخلافة، فقال لمن سأله: مالي أراك مغتماً؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليُغتم، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إليّ فيه، ولا طالبه مني.

وقال: لست بخير من أحد منكم، ولكن أثقلكم حملاً. وكان يطالب عمّاله باختيار أصحاب الكفاءة والدين فيمن يولونه شأنا من شؤون المسلمين، فقد كتب إلى أحد عمّاله: لا تولين شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيها استرعى.

إن السعي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية مطلب مهم في حياة المجتمعات، لأن الهدف من النشاط الإنتاجي هو إشباع حاجات الإنسان بمختلف مستوياتها من ضروريات وشبه ضروريات وكماليات في حدود المباح مما أحل الله في شريعة الإسلام، ومن خلال استقراء نهج عمر بن عبدالعزيز في الإصلاح الاقتصادي نستنتج أنه كان يسعى إلى تحقيق الرفاه الاجتماعي، وقد وضع أهداف تحقيق ذلك.

والتي يمكن حصرها في هدفين:

الهدف الأول: إعادة توزيع الثروة، بشكل عادل والحد من التفاوت الطبقي.

عدالة التوزيع وهذه الحالة تقتضي إعادة توزيع الثروة، وشرع عمر بن عبدالعزيز بإعادة توزيع الثروة لما تجمعت بأيدي فئة متنفذة في المجتمع لما انتهت إليه الخلافة.

وينكر الإسلام تركز الثروات في أيدي فئة قليلة، حتى تصبح القلة تملك كل شيء والكثرة تموت تحت وطأة الفقر والحاجة، قال تعالى: (مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَاب) (الحشر: 7)، والآية تشير إلى توزيع الثروة بين طبقات المجتمع، ولا تبقى الأموال متداولة بين الأغنياء.

وعمل الخليفة العادل على تفعيل هذا المبدأ وتحقيق هذا الهدف، فتبنى - ومن اللحظات الأولى- إعادة توزيع الثروة، بحيث تشمل جميع طبقات المجتمع، حيث قال: "ليس لأحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إلى فيه ولا طالبه مني"، وفي هذا القول تصور شامل لكل المساحة الاجتماعية التي يخطط إلى وصول أفراد المجتمع

إلى حقوقهم، بل وصول الحقوق إليهم كاملة، دون تمييز فئة عن الأخرى.

ويظهر ذلك جلياً من قول وهيب بن الورد، قال: اجتمع بنو مروان إلى باب عمر بن عبدالعزيز فقالوا لابنه عبدالملك: قل لأبيك إن من كان قبله من الخلفاء كان يعطينا ويعرف لنا موضعنا وإن أباك قد حرمنا ما في يديه فدخل على أبيه فأخبره فقال لهم: إن أبي يقول لكم إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم، وبذلك أوقف التميز في الأعطيات والرواتب دون بقية أفراد المجتمع، وحرمانه لهم كان من باب العدالة في توزيع الثروة، فقالوا له: لم أما لنا قرابة أما لنا حق؟ قال: "ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندي في هذا الأمر إلا سواء"، ويعزز هذا النهج في المساواة بين الرعية وفي توزيع الدخل، على جميع طبقات المجتمع قول الأوزاعي: "لما قطع عمر بن عبدالعزيز عن أهل بيته ما كان يجري عليهم من أرزاق الخاصة، كلموه في ذلك فقال: لن يتسع مالي لكم وأما هذا المال فإنما حقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد".

وكانت عملية إعادة توزيع الثروة شاملة الصغير والكبير، ويتجلى ذلك من فعل عمر في توزيع الأعطيات والرواتب بحيث تشمل الجميع، فألحق ذراري الرجال الذين في العطايا، أقرع بينهم فمن أصابته القرعة جعله في المائة ومن لم تصبه القرعة جعله في الأربعين وقسم في فقراء أهل البصرة كل إنسان ثلاثة دراهم فأعطى الزمني خمسين خمسين قال: وأراه رزق الفطيم.

والذرية يريد به من كان ليس من أهل الديوان، ولم يبلغ الخامسة عشر من العمر، وهنا شملت عملية إعادة توزيع الثروة جميع طبقات المجتمع سواء كان مسجلاً في الديوان أم لا، حتى الأطفال والمعاقين شملتهم إعادة توزيع الثروة.

كانت مهمة عمر بن عبدالعزيز في تحقيق هذا الهدف، هدم الأفكار والمسلكيات السائدة، وإعادة صياغة التفكير الاقتصادي من جديد على ضوء الكتاب والسنة، وبالمشاركة الفعالة في تشكيل الإنتاج وتوزيعه، قال أبو عبيد: دخل عنبسة بن سعيد بن العاص على عمر بن عبدالعزيز فقال: يا أمير المؤمنين إن من كان قبلك من الخلفاء كانوا

يعطوننا عطايا فمنعتناها، ولى عيال وضيعة أفتأذن لي أن أخرج إلى ضيعتي لما يصلح عيالي؟ فقال عمر: أحبكم من كفانا مؤنته.

التفكير الاقتصادي السائد لدى عنبسة هو الاعتماد على العطاء والامتياز الخاص، وفي إعادة توزيع الثروة، أدرك أصحاب هذه الامتيازات أنه لا بد من المشاركة الفعالة في الإنتاج والاعتماد على الذات.

وهناك كثير من السبل التي سلكها عمر بن عبدالعزيز لتحقيق هذا الهدف، ما بين تصويب نهج قائم، إلى فتح مجالات متنوعة لشمول التوزيع جميع أفراده،

راع عمر بن عبد العزيز دفع عجلة التنمية الاقتصادية، والسعي لتحقيق الرفاه الاجتماعي في ربوع البلاد.

إذ أن التنمية هي عملية استخدام الموارد الاقتصادية المتاحة للمجتمع، في تحقيق زيادات مستمرة في الدخل، تفوق معدلات النمو السكاني، بما يؤدي إلى إحداث زيادات حقيقية في متوسط نصيب الفرد من الدخل، ويعني ذلك تحقيق مستويات متزايدة من الدخل، ومن عناصر القدرة الاقتصادية، إلى جانب مشاركة الدولة في إشباع الحاجات الأساسية لغير القادرين، وتوفيرها للاستقرار والأمن الداخلي والخارجي.

هدف عمر بن عبدالعزيز إلى أخذ المجتمع بمجالات التنمية الشاملة، والوصول إلى تحقيق الرفاه الاجتماعي، ويظهر ذلك من نقده للسياسة الاقتصادية السابقة والتي أهملت التنمية ونتج عنها المشكلة الاقتصادية التي عاشتها المجتمعات، في ظل الظروف السياسية السابقة، وكانت كتبه للولاة تظهر ذلك، ومنها ما كتبه إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن، واليه على الكوفة فقال: سلام عليك أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام وسنن خبيثة سنتها عليهم عمال السوء، وإن أقوم الدين العدل والإحسان، أي لا تحمل عناصر التنمية فوق طاقتهم، لأن ما زاد على طاقتهم سيكون سبباً إلى ترك مجالات التنمية، وترك الأرض.

ومظاهر حياة الرفاه في الإسلام هي مراعاة تقوى الله، مع وفرة الإنتاج، وعدالة

التوزيع، بتحقيق الكفاية لكل فرد، إلى جانب سيادة الأمن في المجتمع، قال تعالى: (وَضَرَبَ اللـهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللـهِ فَأَذَاقَهَا اللـهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ) (النحل: 112)، وإلى هذه المظاهر أشار عمر بن عبدالعزيز في خطابه السابق إلى ولاته.

وإلى هذا البعد رمى عمر بن الخطاب من ترك الأرض المفتوحة بيد أهل الذمة، قال الأوزاعي: أجمع رأي عمر وأصحاب النبي صلى اللـه عليه وسلم لما ظهروا على الشام على إقرار أهل القرى في قراهم على ما كان بأيديهم من أرضهم يعمرونها ويؤدون خراجها إلى المسلمين ويرون أنه لا يصلح لأحد من المسلمين شراء ما في أيديهم من الأرض طوعاً ولا كرهاً.

وعلى هذا النهج أعاد عمر بن عبدالعزيز التنمية إلى ما كانت عليه، وكان فعله بعد أن سأل الناس عبدالملك والوليد وسليمان أن يأذنوا لهم في شراء الأرض من أهل الذمة فأذنوا لهم، فلما ولي عمر بن عبدالعزيز، أعرض عن تلك الأشرية، وكتب كتاباً، قرئ على الناس سنة المائة، أن من اشترى شيئا بعد سنة مائة فإن بيعه مردود، حتى لا تتجمع الأرض بأيدي فئة من الأغنياء، وحتى لا يتعطل توزيع مصادر الدخل، وتتوقف مشروعات التنمية والاستثمار.

الفصل الخامس

منهج الاصلاح الاجتماعي الشامل

الإسلام أوجد وسائل كثيرة لعلاج مشكلة الفقر مثلا، ومن هذه الوسائل العمل وكفالة الأقارب، والزكاة، والصدقات التطوعية، والإحسان الفردي، ومن بيت مال المسلمين، لكنه اشترط لنجاح ذلك أن يطبق في مجتمع يأخذ الإسلام قلباً وقالباً.

وكانت منهجية عمر تصحيح الوضع القائم، بعدة وسائل تعمل على وقف الهدر المالي، وتصحيح توزيع الدخل على جميع أفراد المجتمع، وقد عمل لتحقيق هذا الأمر من الأيام الأولى لتوليه الخلافة،وذلك من خلال الأعمال والتصورات الآتية: أولا: حرر الموازنة العامة من الأعباء الراتبة والروتينية:

فكانت هناك بعض الاستحقاقات الراتبة واليومية أو المرحلية لبعض الأفراد، والتي تسبب الهدر المالي في بناء رأس مال بيت مال المسلمين، لأنها أصبحت مكسباً شخصياً وثابتاً، بغض النظر عن مستوى الوفر المالي أو العبء السالب لبيت المال، لأن هذا المكتسب يبقى ثابتاً وإن شكل عجزاً مالياً، وهو غير خاضع للتغيرات الاقتصادية للدولة، فلذا رأى عمر بن عبدالعزيز حتمية وقف هذا الهدر الاقتصادي فعمد إلى الإصلاحات الآتية:-

- مراجعة الاستحقاقات المالية لذوى الامتيازات الخاصة ووقفها، أعطت الإدارات السياسية السابقة بعض الاستحقاقات المالية، لبعض الأشخاص الذين لهم صلة بالخلافة لتغطية نفقاتهم الشخصية، بدون أن يكون هناك جهد يستدعي مثل هذه النفقات، فيعد ذلك هدراً للمال العام، بدون أن يكون هناك تغذية راجعة للموقف

المالي، فأوقف هذه الاستحقاقات، وراجعه أقرباؤه بها على أن يتغاضى عـن هـذه المعادلة، ويرجع إليهم ما كان يجري عليهم من أرزاقهم الخاصة، لكنه منعهم.

- ترشيد نفقات قطاع الخدمات، لأنـه يترتـب عـلى قطـاع الخـدمات الكثـير مـن الالتزامات المالية، خارج دائرة المساهمة في بنـاء الـوفر الاقتصـادي، فلـذا اقـتصر عمر بن عبدالعزيز على الحاجات الحقيقية في النفقات في هذا الجانب، ومنها لما قدم إليه صاحب المراكب مركب الخليفة فأبى، وقال: ائتوني ببغلتـي، لأنهـا تـؤدي الحاجة المقصودة ولا تشكل مؤشراً خدمياً زائداً على المعيار الإصلاحي، فلذا عمـد إلى معالجة هذا الوضع الزائد عن الحاجة الخدمية معالجة جذرية، قـال الحكـم بـن عمـر: شـهدت عمـر حـين جـاءه أصـحاب المراكـب يسـألونه العلوفـة ورزق خدمتها، قال: " ابعث بها إلى أمصار الشام يبيعونها فيمن يريد واجعـل أثمانهـا في مال الـلـه تكفيني بغلتي هذه الشهباء "، وبذلك حدد الكلفة المترتبـة عـلى هـذا الجانب الخدمي، الذي يعد في جانب النفقات السلبية في حركة الأمـوال، فـأعطى بذلك بعداً في حركة التصحيح.

- مصادرة الأموال التي حصل عليها بعض الأفراد بغير وجه حق وإعادتها إلى بيت مال المسلمين، كانت هذه الأموال من الأعطيات التي كـان يقـدمها الخلفـاء لهـم دون العامة، وأول ما استرجع عطاء زوجته من والدها، قـال فـرات بـن السـائب: قال عمر بن عبدالعزيز لامرأته فاطمة بنت عبدالملك - وكان عندها جـوهر أمـر لها به أبوها لم ير مثله: - "اختاري، إما أن تـردي حليـك إلى بيـت المـال، وإمـا أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد"، قالت: "لا بل اختارك عليه وعلى أضعافهط، فأمر به فحمل حتى وضع في بيت مال المسلمين.

- ضبط النفقات الخاصة، لم يسرف عمر بن عبدالعزيز في النفقات الخاصـة بـه، ولم يستغل الوظيفة باستخدام الأموال العامة، والتي إن استفاد منها هو كشخص، سوغ استخدامها لكل من استطاعت يده الوصول إليها مـن أفـراد الدولـة، عـلى مسـتوى كبار الموظفين أو غيرهم، فكل ذلـك حـتما يشـكل عبئـاً عـلى العمليـة الاقتصـادية،

فلذا كان حازماً فيه ولم يتهاون بأصغر الأمور وأدقها، ومنها، قال عطاء الخرساني: "أمر عمر غلامه أن يسخن له ماء فانطلق فسخن قمقما في مطبخ العامة فأمر عمر أن يأخذ بدرهم حطبا يضعه في المطبخ"، وبذلك فصل بين العمل العام والعمل الخاص، لأنه إذا اختلط الأمران أصبحت إمكانية الاستفادة منهما مستساغة لغيره، لذا فرق عمر في ذلك وعده استغلالاً للوظيفة.

ويظهر هذا الفصل بين الأمرين من فعله رضي الله عنه، حيث قال عمر بن مهاجر: "كان عمر يسرج عليه الشمعة ما كان في حوائج المسلمين فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها ثم أسرج عليه سراجه"، وقال سعيد بن عبدالرحمن: "إن عمر بن عبدالعزيز إذا أراد أن يكتب في حاجة المسلمين، كتب في طوامير المسلمين، وكان إذا أسرج سراجاً في حاجة المسلمين يكتب كتاباً أو غيره أسرج من بيت مال المسلمين، وإذا أراد أن يكتب في حوائجه أو في غيرها أسرج من ماله".

معالجة الفساد الإداري، فعمد إلى الإصلاح الوظيفي الذي حتماً يرتب وظيفة مالية على رأس المال، قال الحكم بن عمر: كان للخليفة ثلاثمائة حرسي وثلاثمائة شرطي، فقال عمر للحرس: إن لي عنكم بالقدر حاجزاً، وبالأجل حارساً، من أقام منكم فله عشرة دنانير، ومن شاء فليلحق بأهله"، فعندما نظر إلى هذا الكم من الحرس، وجد فيهم زيادة على الحاجة الطبيعية لهذا الأداء الوظيفي, والاستغناء عن خدماتهم فيه مضيعة اجتماعية لهم، وإبقائهم يؤثر على رأس المال، فعالج هذا الفساد معالجة كانت غاية في الدقة والعمق الإداري والنهج المثالي، فنظر إلى كلفة الحاجة الوظيفية لهذا الجانب، فقدرها بثلاثة آلاف دينار، وهذا المبلغ لا يؤثر في زيادة الإنفاق، ومن رغب بالاستمرار منهم فله ذلك وفتح المجال لمن يترك، جمعاً بين المصلحة العامة والخاصة.

---

*مفهوم الإصلاح: الإصلاح لغة: من فعل أصلح يصلح إصلاحًا, أي إزالة الفساد بين القوم، والتوفيق بينهم. وهو نقيض الفساد، فالاصلاح هو التغير الى إستقامة الحال على ما تدعو إليه الحكمة، ومن هذا التعريف يتبين أن كلمة إصلاح تطلق على ما هو مادي, وعلى ما هو معنوي، فالمقصود بالاصلاح من الناحية اللغوية، الانتقال أو التغير من حال إلى حال أحسن، أو التحول عن شيئ والانصراف عنه الى سواه. وقد ورد لفظ الاصلاح في القرآن الكريم في أكثر من سورة مثل قوله تعالى: (والله

تتمثـل المشـكلة الاقتصـادية في الإسـلام، بوجـود الفقـر ومـن مظـاهره البطالـة والتضخم وافتقار العدالة في توزيع موارد الإنتاج المتوفرة في المجتمعات، ومـن واجبـات الدولة توفير الحاجات الأساسية للفـرد والمجتمـع، وسـبب ظهـور المشـكلة الاقتصـادية، يكمن في بعد المسلمين عن تطبيق الشريعة الإسلامية في الحياة.

حتى يتمكن من وضع المعالجات لا بد من رصد مساحة الحاجـة الاقتصـادية، والتـي من خلالها يحقق الاستقرار الاقتصادي المؤثر في الحيـاة السياسـية والاجتماعيـة، فاستشـعر

يعلم المصلح من المفسد)، وقوله مخاطباً فرعون: (إنْ تريد إلا أن تكون جبـاراً في الأرض، ومـا تريـد أن تكون من المصلحين).

أما إصطلاحًا: فيعرفه قاموس "أكسفورد" الإصلاح بأنه" تغـير أوتبـديل نحـو الأفضـل في حالـة الأشـياء ذات النقائص، وخاصة في المؤسسات و الممارسات السياسية الفاسدة أو الجائرة, إزالة بعض التعسف أو الخطأ". الإصلاح يوازي فكرة التقدم، وينطوي جوهريًاعلى فكرة التغيير نحوالأفضل، وخاصة التغير الأكثر ملائمة من أجل تحقيق الأهداف الموضوعية من قبل أصحاب القرار في حقل معين من حقول (النشاط الإنساني).

ويعرف قاموس "وبستر" للمصـطلحات السياسـية (1988) الإصـلاح السـياسي بأنـه "تحسـين النظـام السياسي من أجل إزالة الفساد والاسـتبداد". ويعتـبر الإصـلاح السـياسي ركنًـا أساسـيًا مرسـخًا للحكـم الصالح, ومن مظاهره سيادة القانون و الشفافية و المشاركة الشعبية في إتخاذ القرار والعدل وفعالية الإنجاز وكفاءة الإدارة و المحاسـبة والمسـائلة والرؤيـة الإسـتراتيجية, وهـو تجديـد للحيـاة السياسـية, وتصحيح لمساراتها, ولصيغها الدستورية,والقانونية, بما يضمن توافقًا عامًا للدستور, وسـيادة للقـانون, وفصلاً للسلطات, وتحديدًا للعلاقات فيما بينها "وهو التعريـف الـذي يتبنـاه برنـامج الأمـم المتحـدة لإدارة الحكم في الدول العربية"

وعرفته الموسوعة السياسية بأنه "تعديل أو تطوير غير جذري في شكل الحكم أو العلاقات الإجتماعية دون المساس بأسسها, وهو بخلاف الثورة ليس إلا تحسين في النظام السياسي و الإجتماعي القائم دون المساس بأسس هذا النظام، أنه أشبه ما يكون بإقامة الدعائم التي تساند المبنى لـكي لا ينهـار وعـادة ما يستعمل الإصلاح لمنع الثورة من القيام أو من أجل تأخيرها" .

أن كلمة الإصلاح ليست جديدة على الفكر السياسي العربي، فقد ورد ذكرهـا في القـرآن الكـريم عـدة مرات كما أشرنا, وبالتالي فان مفهوم الإصلاح ليس جديداً في العقل العربي – الإسلامي، بل هو مفهـوم قديم لم يبدأ بظهور الأفكار والتيارات الإصلاحية في القـرن المـاضي أو المبـادرات الإصـلاحية في الوقـت الراهن، فالدعوة إلى الإصلاح بدأت قديماً في الدولة الإسلامية.

أما مفهوم الإصلاح من الناحية الإقتصادية : فهو يعـد الإصـلاح الاقتصـادي جسراً بـين الإصـلاحين السـياسي والاجتماعـي؛ إذ يخـدم الطـرفين معـاً، ويُعـرّف بـاحثون الإصـلاح الاقتصـادي بأنـه مجموعـة السياسـات التصحيحية التدرّجية التي تتبناها دولة ما لمعالجة التشوّهات والاختلالات الهيكلية في الاقتصاد، ومواجهـة الأزمات الخانقة، عبر إحداث تغييرات جوهرية في أساليب تعبئة المـوارد وتوزيعهـا وإدارة الإنفـاق، ورفـع الكفاءة الإنتاجية بغية تحقيق الاستقرار والنمو الاقتصادي، وإشباع الحاجات والوصول لمستويات معيشـية أفضل لأفراد المجتمع، في استراتيجية تستهدف تعديل بنية الاقتصاد الوطني ورفع درجة مرونته .

ويرتبط نجاح تجربة الإصلاح الاقتصادي بحضور بوصلة اجتماعية وإنسانية لدى صانع القرار، تضـمن تخفيض التكلفة الاجتماعية، وتقليل الضغط على الفئات الأكثر ضعفاً في المجتمع، والتي مـن المتوقـع تأثرها بالسياسات الإصلاحية.

هذا الموقف واستجمع دوائر الحاجات الإنفاقية الكاملة، حتى يستوعب جميع أفراد عناصر المشكلة والمساحة التي يجب أن يغطيها لأنها مرتكزات الاستقرار الاقتصادي.

فصور حجم المشكلة الاقتصادية، من خلال حديثه لفاطمة زوجته، لما دخلت عليه وهو في مصلاه تسيل دموعه على لحيته، فقالت: يا أمير المؤمنين ألشيء حدث؟ قال: يا فاطمة أني تقلدت من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أسودها وأحمرها، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربى سائلي عنهم يوم القيامة، فخشيت أن لا تثبت لي حجة فبكيت.

بهذا التصور قد استجمع الوزارات والدوائر العامة اللازمة لاستيعاب هذه المساحة الخاضعة أو المعنية بالإصلاح، لأنهم المستفيدون من مخرجات الإنتاج والمشكلون لعناصره، فلا بد من متابعة هذه العناصر حتى تحصر هذه الحاجات، فترصد الموازنة العامة على ذلك، لضمان التوازن في توزيع الدخل وتهيئة البناء الاقتصادي لتكون الحاجات في متناول الجميع، فقسم في فقراء أهل البصرة كل إنسان ثلاثة دراهم فأعطى الزمني خمسين خمسين قال: "وأراه رزق الفطيم"، عدالة اجتماعية شاملة لأفراد المجتمع.

واستحضار المؤسسات اللازمة، لمتابعة عملها في إيصال الحقوق الموكولة لها بكل أمانة وإخلاص، لتستمر عملية الاقتصاد الفعّالة، في بناء المجتمع، فمن ذلك:- قال وهيب بن الورد: أن عمر بن عبدالعزيز، اتخذ داراً لطعام المساكين والفقراء وابن السبيل، قال وتقدم إلى أهله إياكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئا من طعامها، فإنما هو للفقراء والمساكين، فجاء يوما فإذا مولاة له، معها صحفة فيها غرفة من لبن، فقال لها: ما هذا؟ قالت زوجتك حامل كما قد علمت، واشتهت غرفة من لبن، والمرأة إذا كانت حاملاً فاشتهت شيئا فلم تؤت به تخوفت على ما في بطنها، أن يسقط فأخذت هذه الغرفة من هذه الدار، فأخذ عمر بيدها فتوجه بها إلى زوجته وهو عالي الصوت، وهو يقول إن لم يمسك ما في بطنها إلا طعام المساكين والفقراء فلا أمسكه الله، فدخل على زوجته فقالت له: مالك؟، قال: تزعم هذه أنه لا يمسك ما في بطنك إلا طعام المساكين والفقراء، فإن لم

يمسكه إلا ذلك فلا أمسكه اللـه، قالت: زوجتـه رديـه، ويحـك واللـه لا أذوقـه قـال: فردته.

ومنها توزيع الخدمات العامة على المحتاج إليها، لما كتب إلى أمصار الشام: أن ارفعوا إليَ كل أعمى في الديوان، أو مقعد أو من به الفالج، أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة، فرفعوا إليه فأمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمنى بخادم، قال: وفضل من الرقيق فكتب أن ارفعوا إلي كل يتيم ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية، حل مشكلة ذوى الحاجات الخاصة، والأخذ بيدهم إلى الإسهام في مشروعات البناء حسب قدراتهم بعد إزالة العقبات.

وبذلك صحح الأخطاء الماضية، والتي تعد عائقاً للإصلاح الاقتصادي، ولا يستقيم مع وجودها الإصلاح، وبعد ذلك وظف الآثار المترتبة على تلك الأخطاء بما يتوافق مع منهجه الإصلاحي بمنتهى العدل والإحسان، فكانت معالجة وجدت قبولاً اجتماعياً.

وكان من نتائج هذه السياسة أن تدفقت الأموال إلى خزينة بيت المال من موارد الدولة المتنوعة التي حافظ الولاة عليها، ورَعَوْهَا حقَّ رعايتها، وكانت كفيلة بأن تقوم بكل مسؤوليات الدولة تجاه أفرادها، وتحسين حياتهم إلى الحد الذي جعله يكتب إلى أحد ولاته: "أن اقضوا عن الغارمين"؛ أي أدوا عنهم دَيْنَهم، فكتب إليه: "إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث"، فكتب إليه عمر: "إنه لا بد للمرء المسلم من سكن يسكنه، وخادم يعينه، وفرس يجاهد عليه.. اقضوا عنه فإنه غارم".

وبلغ من حرصه على الرفق برعيته، واحترامه لحقوق الإنسان أن جعل لكل أعمى قائدا يقوده ويخدمه، ولكل مريضين مرضًا شديدًا خادما لهما، ولكل خمسة أيتام أو من لا عائل لهم خادما يخدمهم، ويقوم على شؤونهم.

وفاضَ المال في بيت المال بفضل سياسته الحكيمة وعدله الناصع؛ فمكنه من فرض الرواتب للعلماء وطلاب العلم والمؤذنين، وفكّ رقاب الأسرى، وعالَ أسرَهُم في أثناء غيابهم، وقدم الأعطيات للسجناء مع الطعام والشراب، وحمّل بيت المال تكاليف زواج

مَن لا يملك نفقاته.

لقد قام بيت المال بكل ما يحتاجه المسلمون حتى إن المنادي لينادي في كل يـوم: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟... لقد اغتنى كل هؤلاء فلـم تعد لهم حاجة إلى المال.

ويُذكر لعمر بن عبد العزيز أنه أسقط الجزية عـن أبنـاء الـبلاد المفتوحـة الـذين دخلوا في الإسلام، وكان بعض عمال بني أمية لما أعوزهم المال بسبب الحروب واشـتعال الثورات، أبقوا الجزية على هؤلاء، وأطلق عمر صيحته المشهورة رفضًا لهذا الإجـراء: "إن الـلـه بعث محمدًا هاديًا، ولم يبعثه جابيًا".



الفصل السادس

منهج التوازن بين مصلحة الفرد والجماعة

التنمية الاقتصادية في الإسلام لها هدف أساسي، وهو تحقيق التوازن بين مصلحة الجماعة والفرد، بقصد تحقيق السعادة للإنسان في الدنيا والآخر، وتمكينه من أداء الهدف الذي خلق من أجله، قال تعالى:" وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ " (الذاريات: 56)، ولذا يجب أن تكون الوسائل الموصلة لذلك نبيلة، ولقد فشلت نماذج التنمية الشرقية والغربية، لأنها افتقدت الهدف، وجعلت الوسائل أهدافا في حد ذاتها، وإن حققت وفراً مالياً إلا أنها استعبدت الإنسان بدلاً من أن تحقق له السعادة والرفاه.

تمثل السياسة المالية أحد أهم الركائز التي تتحقق بها التنمية الاقتصادية، إذ تعتبر إحدى الوسائل المهمة لمحاربة مظاهر الفقر والتخلف، وتسعى نحو التقدم في شتى مجالات الحياة، وجدارا صلبا لمواجهة المشكلات الاقتصادية، من خلال محاربة التضخم وتحقيق الاستقرار الاقتصادي بشكل عام، والاستقرار المالي بشكل خاص، بالإضافة إلى السعي لتحقيق التوازن الاقتصادي والاجتماعي، بمحاربة مظاهر الفقر والبطالة، وتحقيق العدالة في توزيع الدخول، والإقلال من الفجوات ما بين الفئات المختلفة للمجتمع، ناهيك عن الجانب البيئي الذي هو أساس الحياة البشرية.

وإذا ما استعرضنا الأفعال أو الأعمال التي قام بها عمر بن عبدالعزيز في التنمية الاقتصادية، نجد أن نهجه كان في ذلك كالآتي:

أولا: الجد والمثابرة والابتكار الإداري في رسم السياسة الاقتصادية ومتابعة تنفيذها:

قام عمر بالكثير من الابتكارات في مشروع الإصلاحات الاقتصادية,لأن إدارة الأموال لها جانب مهم في تحقيق التنمية الاقتصادية ومنها:

أ - تنمية القيادات الإدارية، لأنهم العنصر الفعال في عجلة التنمية، ومراحل التطوير، وتنميتهم ضرورة ملحة لضمان نجاح العمل، ورفع كفاءته الإنتاجية، وكان حرص عمر واضحاً من كتبه الموجهة للولاة، ومنها ما كتبه إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن، واليه على الكوفة فقال: سلام عليك أما بعد: إن أقوم الدين العدل والإحسان، فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك أن توطنها الطاعة لله عز وجل، فإنه لا قليل من الإثم، وأمرتك ألا تطرق عليهم أرضهم وألا تحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ولا تأخذ من الخراب إلا ما يطيق ولا من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض، أي لا تحمل عناصر التنمية فوق ما استحق على عامرها المنتج، لأن ما زاد على طاقتهم سيكون سبباً إلى ترك مجالات التنمية، وترك الأرض، وفي ذلك تنمية للقيادات في أدائها الوظيفي، الداعم للتنمية إذا كان الأداء على نهج صحيح.

ب - التقسيم الإداري للأموال حسب الموارد، بنظام محاسبي يسهل عملية ضبط المقبوضات والنفقات، فجعل كل مورد مستقلاً عن الآخر، قال إسحاق بن يحيى بن طلحة: دخلت على عمر بن عبدالعزيز وقد استخلف، فوجدته قد جعل بيت مال الغنائم على حدة، وبيت مال الخراج على حدة، وبيت مال الخمس على حدة"، وهذا التقسيم تعمل به النظم المحاسبية في الصندوق، فدفتر الصندوق ينقسم إلى عدة خانات كل خانة تشير إلى مورد من موارد الصندوق أو النفقات، وبذلك يسهل تنظيم حركة المقبوضات والمصروفات وتوثيقها.

ج- تنظيم الخطط المالية السنوية، وبيان الموقف المالي لكل عام (الموازنة العامة).

من خلال النظر في مراسلات عمر لولاته نجده أشار إلى التخطيط المالي، والمتابعة

الحقيقية لحركة الأموال في الدولة، وإقرار ما كان منها منسجماً مع أهداف التنمية، وإلغاء ما كان غير ذلك، ومنها كتابه إلى عدي بن أرطاة "أن ابعث إليّ بتفصيل الأموال التي قبلك، من أين دخلت، فكتب إليه بذلك وصنفه له، فكان فيما كتب إليه من عشر الخمر أربعة آلاف درهم قال فلبثنا ما شاء الله ثم جاء جواب كتابه إنك كتبت إلي تذكر من عشور الخمر أربعة آلاف درهم وإن الخمر لا يعشرها مسلم ولا يشتريها ولا يبيعها، فإذا أتاك كتابي هذا فاطلب الرجل، فارددها عليه فهو أولى بما كان فيها، فطلب الرجل فردت عليه الأربعة الآلاف وقال: أستغفر الله إني لم أعلم".

وتظهر متابعاته للموقف المالي، وإدارة محاسبة الموازنة للولايات، مما كتبه وهب بن منبه إلى عمر بن عبدالعزيز فقال: إني فقدت من بيت مال المسلمين دينارا فكتب ردا إليه: " إني لا أتهم دينك وأمانتك، ولكن أتهم تضييعك وتفريطك، وأنا حجيج المسلمين في أموالهم، والسلام"، مع وجود الأمانة أيضا لا بد من وجود الحرص والمتابعة وعد التفريط وتضييع الأموال العامة والواجب مع الأمانة حفظها.

د- تفعيل المكتسبات الثابتة في دفع ودعم عجلة الاقتصاد، وفتح آفاق جديدة لدعم واردات الخزينة، وقد خاطب عماله بالاهتمام بهذه المجالات، فالأرض مكتسب ثابت وفعال في مشروعات التنمية، فكتب عبدالحميد بن عبدالرحمن إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز إن شاء سألوا أن يوضع عليهم الصدقة ويرفع عنهم الخراج فكتب إليه عمر إني لا أعلم شيئا أثبت لمادة الإسلام من هذه الأرض التي جعلها الله تعالى فيئاً لهم، فاسألهم فمن كان له في الأرض أهل ومسكن فأجر على كل جدول منها ما يجري على أرض الخراج، ومن لم يكن له بها أهل ولا مسكن، فارددها إلى البنك من أهلها، قال حصين: " وأصل هذا أنه من كانت في يده أرض، فرضي بأن يؤدي عنها الخراج، وإلا فليردها فيمن يؤدي عنها الخراج من أهلها"، إشارة إلى متابعة الاستثمار في الأرض الخراجية، وأن تعطيلها يؤثر على التنمية الاقتصادية، كونها مشروع تنمية ثابت العطاء، وذكر عبدالرزاق عن معمر عن سماك ابن الفضل، قال: "كتب عمر أن يؤخذ مما أنبتت الأرض من قليل أو كثير العشر".

ومن هـذه المكتسـبات الثابتـة حرمـة كنـز الـذهب، أو اسـتعماله في غـير مجالـه التنموي لأنه عنصر رئيسي في حركة الاقتصاد، والاستفادة من تحريم الشريعة الإسـلامية في استعماله غير الشرعي، قال الفقهاء: "يحرم تحلية المسجد بذهب أو فضة لأنـه سرف وتجب إزالته كسائر المنكرات وتجب زكاته إلا إذا استهلك فلـم يجتمـع منـه شيء، فـلا تجـب إزالتـه لعـدم الفائـدة فيهـا ولا زكاتـه لأن ماليتـه ذهبـت"، ولما ولي عمـر ابـن عبدالعزيز الخلافة أراد جمع ما في مسجد دمشق مما موه به من الذهب، فقيل له إنه لا يجتمع منه شيء فتركه"، وفي ذلك إصرار واضح منه عـلى مشـاركة الـذهب في حركـة الاقتصاد.

ثانيا: توسيع دائرة واردات صندوق الزكاة وعدم قصرها على المنتجات الرئيسية :

تتفاوت الولايات الإسلامية في الاشتهار بمنتج دون الآخر، فقال: بالزكاة عـلى هـذه المنتجات، واشتهر عمر في تفعيل الزكاة في هذا الجانب، وقد تفرد في بعضـها عـن غـيره من الخلفاء والفقهاء، ولما انتهت الضائقة بالأمة الإسلامية أوقف بعضها، جاء كتاب من عمر بن عبدالعزيز إلى أبي بن محمد بـن عمـرو وكـان قـاضي المدينـة وهـو بمنـى أن لا يؤخذ من العسل ولا من الخيل صدقة ومنها:

1- فرض زكاة العسل، فكتب إلى عماله على مكة والطـائف "أن في الخلايـا صـدقة فخذوها منها، قال أبو عبيد حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن الزهري قال: في كل عشرة زقاق زق، قال الحنابلة: "في العسل العشر ونصابه مائة وستون رطلا عراقية".

2- فرض زكاة العنبر، قال إبراهيم بـن مـيسرة: أن عمـر بـن عبـدالعزيز كتـب إلى عروة بن محمد أن سل من قبلك كيف كان أوائل الناس يأخذون من العنبر فكتب إليه أنه قد ثبت عندي أنه كان ينزل منزلة الغنيمة يؤخذ منه الخمس فكتب إليـه عمـر أن خذ منه الخمس وادفع ما فضل منه بعـد الخمـس إلى مـن وجـده، وبـه قـال الحسـن البصري.

قال ابن قدامة: يحكى عن عمر بن عبدالعزيز أنه أخذ من العنبر الخمس وهو قـول الحسن والزهري، خلافاً لابن عبـاس قـال: لـيس في العنـبر شيء إنمـا هـو شيء ألقـاه، فلـم

يأت فيه سنة عنه صلى اللـه عليه وسلم ولا عن أحد من خلفائه من وجه يصح ولأن الأصل عدم الوجوب فيه ولا يصح قياسه على معدن البر لأن العنبر إنما يلقيه البحر فيوجد ملقى في البر على الأرض من غير تعب فأشبه المباحات المأخوذة من البر كالمن والزنجبيل وغيرهما.

قال الشافعي: "لا زكاة في عنبر ولا لؤلؤ أخذ من البحر"، وبه قال مالك. وقال أبو يوسف: طفيهما وفي كل حلية تخرج من البحر خمس، لأن عمر أخذ الخمس من العنبر".

3- فرض زكاة السمك، قال ابن قدامة: وأما السمك فلا شيء فيه بحال في قول أهل العلم كافة، إلا شيء يروى عن عمر بن عبدالعزيز، رواه أبو عبيد عنه وقال: ليس الناس على هذا ولا نعلم أحداً يعمل به وقد روي ذلك عن أحمد أيضا، والصحيح أن هذا لا شيء فيه، لأنه صيد فلم يجب فيه زكاة، كصيد البر ولأنه لا نص ولا إجماع على الوجوب فيه، ولا يصح قياسه على ما فيه الزكاة فلا وجه لإيجابها فيه.

قال الأحناف: "ليس في السمك واللؤلؤ والعنبر يستخرج من البحر شيء، في قول أبي حنيفة رحمه اللـه تعالى"، وقال أبو يوسف: "في العنبر الخمس وكذلك في اللؤلؤ".. وقال مالك: "ليس في اللؤلؤ ولا في المسك ولا العنبر زكاة".

ثالثا: تفعيل النظام الضريبي، المناسب لجميع عناصر التنمية:

تقدم الدولة الخدمات العامة، وهذه إذا بقيت في دائرة الاستهلاك فإنها تشكل عبئاً على رأس مال الدولة العام، ولكن في توزيعها على عناصر الإنتاج المستفيدة من هذه الخدمات، يحقق هدف التنمية، ويوازن بين الخدمة العامة الاستهلاكية إلى خدمة استهلاكية إنتاجية، وكما يمنع التجاوزات التي يمكن أن تؤثر على مفَعلات الاقتصاد الوطني، ومنها ما كتبه ميمون إلى عمر بن عبدالعزيز في مسلم زارع ذميا فكتب إليه عمر " أن خذ من المسلم ما عليه من الحق في نصيبه، وخذ من النصراني ما عليه".

وفي بعض المراسلات حدد نسبة الضريبة ومعادلة حسابها، فكتب إلى عماله "أن يأخذوا مما يمر به المسلم من التجارات من كل عشرين ديناراً نصف دينار ومما يمر به الذمي يؤخذ منه من كل عشرين دينار، ديناراً ثم لا يؤخذ منه إلا بعد حول".

كما كتب إلى رزيق بن حكيم "أن انظر من مرّ بك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم من التجارات من كل أربعين ديناراً ديناراً، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرين ديناراً فإن نقصت ثلث دينار فدعها ولا تأخذ منها شيئا، واكتب لهم بما تأخذ منهم كتاباً إلى مثله من الحول".

فصلت المراسلات السابقة بين عمر وولاته كل ما يتعلق بالضريبة، من حيث من يخضع لها، وما مقدارها، والكيفية التي تؤخذ بها، وأن يعطى دافعها وصلاً مالياً لكل عام، حتى تبقى التعليمات واضحة لا غموض فيها.

رابعا: بناء المشروعات التنموية المستمرة بالعطاء

وتسهيل مهمة المستثمرين وتقديم القروض لهم، لضمان استمرار هذه المشروعات، وقد أمر عماله بذلك، عندما بقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إلى عبدالحميد واليه على العراق "أن أنظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين".

وتشير تعليمات الخليفة العادل إلى هذف التنمية المستمر، ومن ضعف ماليا عن تنمية أرضه فكلف الولاة بإعطاء القروض التي ترفع من سوية الإنتاج عند أفراد المجتمع.

وكذلك قام بالاهتمام بالمرافق العامة والخاصة التي تخدم وتدعم مشروعات الإصلاح، وتوسيع الرقعة الزراعية، ووضع بعض التعليمات التي تخدم ذلك، فقد كتب إلى عدي أن احفر، وابن السبيل أول ريان، وأن حريمها طول رشائها، ولما ولى عدي أرمينية احتفر نهراً يقال له اليوم نهر عدي.

استطاع الخليفة العادل رضي الله عنه أن يجمع شعث هذه الأمة وينهض بها من عثراتها ويقضي على الفتن التي أصابتها، وحقق نتائج أهمها:

1- ترسخت عوامل الثقة في الإصلاح الاقتصادي على مستوى الراعي والرعية، قال عمر بن أسيد: والله ما مات عمر حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول اجعلوا هذا حيث ترون فما يبرح، فيرجع بماله كله فلا يجد أين يضعه، قد أغنى عمر

الناس.

2- القضاء على جيوب الفقر والحاجة حتى قنع الناس، كان الرجل يخرج زكـاة مالـه، لا يجد أحدا يقبلها.

3- حـل مشـكلة العجـز المـالي والمديونيـة التـي كانـت تعـاني منهـا الدولـة، في عهـد عبدالملك بن مروان، وكانت تؤدي الجزية إلى ملك الروم، وقد اضطر عبدالملك إلى مصالحته على مال يؤديه إليه لشغله عن محاربته لعجز الدولة عن المواجهة.

4- حقق الرفاه الاجتماعي للمجتمع الإسلامـي، حتى فاض المال عن الحاجات الخاصة والعامـة، ويظهـر ذلـك مـن كتـاب عمـر بـن عبـدالعزيز إلى عبدالحميـد بـن عبدالرحمن وهو بالعراق، قال: أخرج للناس أعطياتهم، فكتب إليـه عبدالحميـد: إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال مال، قال فكتب إليه: أن انظر كل من استدان من غير سفه ولا سرف فاقض عنه دينه، فكتب إليه: إني قـد قضيت عنهم وبقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه: أن انظر كل بكر ليس له مال، يشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه، فكتب إليه: إني قد زوجت كـل مـن وجدت، وقد بقي في بيت مال المسلمين مال، فكتـب إليـه بعـد مخـرج هـذا، أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضـه فأسـلفه مـا يقـوى بـه عـلى عمـل أرضه فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين، تصور المراسلات السابقة حجم الوفر المالي، والرفاه الاجتماعي الذي تجاوز الوصف، ومتابعـة مشروعـات التنميـة والاسـتثمار وإزالة العوائق إذا اعترضتها وما إلى ذلك.

5- عالج مديونية الأفراد والأحوال الاجتماعية للمجتمع، من الـوفر المـالي في الموازنـة، ورتب دائرة خاصة لمتابعة هذه القضايا على المستوى المحلي لكـل ولايـة كـدائرة ثابتة للمبالغة في الاستقرار الاجتماعي، "فكان لعمر بن عبدالعزيز مناد ينادي كل يوم أين الغارمون أين الناكحون أين المساكين أين اليتامى".

6- جعل دائرة متجولة تتفقد أحوال المجتمع على مستوى الولايات، لعله يجد مـن هـو

بحاجة إلى العون، ومنها قال عبدة بن أبي لبابة إن عمر "بعث معه بخمسين ومائة يفرقها في فقراء الأمصار فأتيت الماجشون فسألته فقال: ما أعلم أن فيهم اليوم محتاجاً لقد أغناهم عمر بن عبدالعزيز، عدالة اجتماعية منقطعة النظير، إن لم يصلوا إلى حقوقهم المالية، فالدولة حملت إليهم في مدنهم وقراهم هذه الحقوق.

7- نجح في تعزيز الالتزام الطوعي لقوانين الدولة، قال مالك بلغني "أن عاملا لعمر بن عبدالعزيز كتب إليه يذكر أن رجلا منع زكاة ماله، فكتب إليه عمر أن دعه ولا تأخذ منه زكاة مع المسلمين، قال فبلغ ذلك الرجل فاشتد عليه وأدى بعد ذلك زكاة ماله، فكتب عامل عمر إليه يذكر له ذلك، فكتب إليه عمر أن خذها منه، وأوصى عماله بذلك على المناطق الحدودية، وأن يبنوا عوامل الثقة بينهم وبين التجار تعزيزا للدافع الذاتي في الالتزام بأنظمة الدولة، فكتب إلى رزيق: أن انظر من مر بك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم مما يديرون من التجارات.

8- ارتفاع مستوى الدخل للأفراد، بحيث أصبح من يملك بعض الرفاهيات، قد يكون ممن يستحق الزكاة، قال أشهب " وبلغني عن عمر بن عبدالعزيز قال: فيمن له الدار والخادم والفرس أن يعطي من الزكاة ".

9- أوقف في العام الثاني من خلافته بعض الإجراءات التي اتخذها للتصحيح الاقتصادي، في عامه الأول، ومنها استفاد من نقل الزكاة إلى الولايات المحتاجة، لحل بعض القضايا المتعلقة بالمشكلة الاقتصادية في عامه الأول وأوقفها في العام الثاني، قال مالك، كتب عمر بن عبدالعزيز إلى مصدق له، اقسم نصفها، قال أشهب: تأولنا فعل عمر أنه لم يكن بهم من الحاجة أول عام كحاجتهم في الثاني.

10- يمكن اتباع المنهج الذي اتبعه عمر بن عبدالعزيز في الإصلاح الاقتصادي في عهده في وقتنا المعاصر، بل سيحقق رفاه اجتماعياً أكثر، ووفراً مالياً متقدماً، لأن العصر الحديث يتميز بكثرة عناصر الإنتاج وتنوعها، والاستفادة من التقدم العلمي المعاصر في تطوير النهج الذي اتبعه عمر، فنقول الظروف المعاصرة ربما تكون

مواتية أكثر إذا ما كان هناك من ينهض بهذا المنهج كعمر وكرجال عمر.

ولا تزال خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية، على كل أولئك الذين يشككون في إمكانية إقامة نظام اقتصادي إسلامي كامل، وبرهاناً ساطعاً على أن الاحتكام للشريعة الربانية هو وحده الذي يكفل للناس السعادتين في الدنيا والآخرة.

وبعد ما سردناه نقلا من كتب السير والتاريخ كيف واجه الخليفة العادل المشكلات الاقتصادية التي عصفت بالبلاد قبل مجيئه وكيف قضى عليها وهو لم يلبث في الحكم غير بضع سنين (سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وتوفي وهو ابن تسع وثلاثين سنة وخمسة أشهر)، فكيف بحالنا نحتاج إلى خطط طويلة وقصيرة ونستورد شركات لكي تخطط لنا، والبطالة كالداء الذى ليس له علاج والأمور تتفاقم تزداد يوما بعد يوم..

إليك قصة عجيبة حدثت في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فوجئ أمير المؤمنين بشكاوى من كل الأمصار المفتوحة (مصر والشام وأفريقيا...)، وكانت الشكوى من عدم وجود مكان لتخزين الخير والزكاة، ويسألون: ماذا نفعل؟

فيقول عمر: أرسلوا منادياً ينادي في ديار الإسلام: أيها الناس: من كان عاملاً للدولة وليس له بيتٌ يسكنه فلْيُبْنَ له بيتٌ على حساب بيت مال المسلمين.

ياأيها الناس: من كان عاملاً للدولة وليس له مركَبٌ يركبه، فلْيُشْتَرَ له مركب على حساب بيت مال المسلمين.

ياأيها الناس: من كان عليه دينٌ لا يستطيع قضاءه، فقضاؤه على حساب بيت مال المسلمين.

ياأيها الناس: من كان في سن الزواج ولم يتزوج، فزواجه على حساب بيت مال المسلمين.

فتزوج الشباب الأعزب وانقضى الدين عن المدينين وبني بيت لمن لا بيت له وصرف مركب لمن لا مركب له.

بالـلـه علـيكم هـل سـبق وأن سـمعتم أو قـرأتم عـن حضـارة عـلى مـر العصـور والأزمنة القديمة أو المعاصرة حدث فيها مثل ما حدث في عهد الخليقـة الاسـلامي عمـر بن عبد العزيز أن الشكوى ما زالت مستمرة بعـدم وجـود أمـاكن لتخـزين الأمـوال و الخيرات!، فيرسل عمر بن عبد العزيز إلى ولاته: "عُودوا ببعض خيرنا على فقـراء اليهـود والنصـارى حتـى يسْـتَكْفُوا العزيـز"، و لكـن المفاجئـة الاكـبر في القصـة هـي فـأُعْطُوا، والشكوى ما زالت قائمة، فقال: وماذا أفعل، ذلك فضل الـلــه يؤتيـه مـن يشـاء، خـذوا بعض الحبوب وانثروها على رؤوس الجبال فتأكل منه الطير وتشبع، حتى لا يقول قائل: جاعت الطيور في بلاد المسلمين.



الفصل السابع

الحكمة والمشورة في السياسة الخارجية

كما كان لعمر بن عبد العزيز وقفته في السياسة الداخلية، ليعيد ما اعوج من الأمور إلى نصابه، ويحاول إصلاح ما رآه انحرافًا عن الجادة سواء في الناحية الإدارية أو المالية أو غيرها، كذلك كانت له وقفة مماثلة في السياسة الخارجية, فقد رأى أن مساحة الدولة قد اتسعت، وأن أطرافها قد ترامت وتباعدت، ولعل كثيرًا من المشاكل والأخطاء التي وقع فيها بعض الولاة قد نشأت عن هذا الاتساع الكبير في مساحة الدولة، فكل إقليم كان يضيف إلى مشاكل الدولة عبئًا جديدًا، فرأى أنه من الحكمة إيقاف الفتوحات، أو الحد منها على الأقل؛ لأن التوقف عند حدود ما فتح من بلاد وأقاليم، والعمل على حَلِّ مشاكلها، وعرض الإسلام عليها بأسلوب حكيم دقيق، وقدوة حسنة، سوف يكون أجدى من المضي في الفتوحات، بل ربما لا تكون هناك حاجة بعد ذلك إلى فتح جديد؛ لأن الناس سيقبلون على الإسلام من تلقاء أنفسهم، لأنهم سيجدون فيه كل ما يرضيهم، روحيًّا وماديًّا، وما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة.

عندما حض على الجهاد وأعلن النفير في صدر الإسلام وحتى تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، كانت الأمة الإسلامية كلها مقاتلة حين يدعو داعي الجهاد أو يهدد الدولة خطر خارجي أو فتنة داخلية. وكان كل قادر على حمل السلاح ومسجل في ديوان العطاء يهب للانخراط في الحملة العسكرية، ومن هنا كان أول ديوان هو (ديوان الجند)، يجري العطايا والرواتب على الجند.

وفي أثناء حصار القسطنطينية تولى الخلافة بعده عمر بن عبد العزيز بعد وفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك رحمه الله سنة 99هـ فأدرك الصعوبات التي تواجه المسلمين الذين استمر حصارهم للمدينة عامًا كاملاً 98- 99هـ وكان مما بادر إليه عمر

في هذه السنة أن بعث إلى مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين وهم بأرض الروم محاصروا القسطنطينية، وقد اشتد عليهم الحال وضاف عليهم المجال، لأنهم عسكر كثير، فكتب إليهم يأمرهم بالرجوع إلى الشام إلى منازلهم. وبعث إليهم بطعام كثير وخيول كثيرة عتاق، يقال: خمسمائة فرس، ففرح الناس بذلك.

ونظرًا لقلة ذلك العدد الذي يُكوِّنُ الجيوش الإسلامية آنذاك، ونظرًا لتعاليم الإسلام نفسه، فقد كان واضحًا أثناء الحروب مدى حرص عمر على سلامة جند الإسلام؛ فرأى من موقع مسئوليته عن سلامة المسلمين أن ينهي هذه العملية، فكتب إلى مسلمة بن عبد الملك وأمره بالرجوع بالجيش فرجع. ولكن على الرغم من فشل الحملة فإن ذلك لا يقلل من جهود الأمويين في إعلاء شأن الإسلام، والتصدي بكل حزم وعزم لأعدائه، غير مبالين بالصعوبات مهما كانت شاقة، فقد صبروا وصابروا ولم يقصروا، ويكفي أنهم أذلوا دولة كبرى عتيدة، وجعلوا قصارى جهدها أن تدافع عن عاصمتها، وجعلوا الاستيلاء على هذه العاصمة أملاً ظل حيًّا في نفوس المسلمين أكثر من سبعة قرون ونصف، حتى تحقق في النهاية على يد شعب مسلم آخر قادم من أقصى الشرق، وهم الأتراك العثمانيون، حيث فتح السلطان العثماني محمد الفاتح المدينة واستولى عليها سنة 857هـ/ 1453م، وأنهى الدولة البيزنطية من الوجود.

أصدر عمر إيقاف التوسع في المناطق النائية في أطراف الدولة، ومحاولة سحب القوات الإسلامية من مناطق القتال، وأول أعماله في هذا المضمار كان في القوات التي عُني الخليفة سليمان بحشدها وإنفاذها بقيادة أخيه مسلمة لفتح القسطنطينية، وظلت تحاصرها مدة سنتين لاقت فيها مصاعب كثيرة دون أن تفلح في تحقيق هدفها، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، كتب بقفل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية، وقد كان سليمان أغزاه إياها برّاً وبحراً، فاشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع، حتى يتنح الرجل عن دابته فتقطع بالسوق، ولجّ سليمان في أمرهم، فكان ذلك يغم عمر، فلما ولي رأى أنه لا يسعه فيها بينه وبين الله عز وجل شيء من أمور المسلمين ثم يؤخر فعله ساعة، فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب، وقد وجه عمر بن عبد

العزيز إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، فوجه إليهم خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم، فكان الذي وجه إليه الخيل العتاق فيما قيل خمسمائة رأس.

وفي الأندلس ولىّ الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، السمح بن مالك الخولاني، وعهد إليه بإخلاء الأندلس من الإسلام إشفاقاً عليهم، إذ خشي تغلّب العدو عليهم لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين. غير أن السمح لم ير الانسحاب الكامل من الأندلس، فكتب إلى الخليفة يقول: «إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها، فاضرب عن ذلك»، وأزال الأندلس عن عمالة أفريقية.

وفي المشرق، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الرحمن والي خراسان يأمره بإقفال مَن وراء النهر من المسلمين بذراريهم، فأبوا وقالوا: « لا تسعنا مرو(قاعدة خراسان) »، فكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: «اللهم إني قد قضيت الذي عليّ فلا تغزُ بالمسلمين، فحسبهم الذي فتح الله عليهم». وفي جبهة بلاد السند، كتب عمر بن عبد العزيز إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يُملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلم جيشه والملوك، وتسموا بأسماء العرب، وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر.

وفي سنة 100هـ أغارت الروم في البحر على ساحل اللاذقية، فهدموا مدينتها وسَبَوْا أهلها، فأمر ببنائها وتحصينها. وفي 101هـ أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطي، وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص، وأمر بترحيل أهل طرندة وهم كارهون، وذلك لإشفاقه عليهم من العدو. وأراد أن يهدم المصيصة لتعُّرضها لغارات الروم، ثم أمسك عن ذلك وبنى لأهلها مسجداً جامعاً من ناحية "كفربيا"، واتخذ فيه صهريجاً وكان اسمه عليه مكتوباً. وجعلها مركزاً متقدماً لدرء الخطر عن أنطاكية من غزوات الروم المتكررة.

وكان عمر حازماً شديداً في أخذ الحق والدفاع عنه، وهذا ما تشير إليه رواية ابن عبد

الحكم، حيث يذكر أنه عندما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى ملك الـروم، وقصّ عليه قصة رجل أسير في بلد الروم أجبر على ترك الإسلام واعتناق النصرانية، قائلين له: «إن لم تفعل سملت عينك»، فاختار دينه على بصره فسملت عيناه، فأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ملك الروم وقال له: «أقسم بالـلـه لأن لم ترسله إلي لأبعثن إليك من الجنود جنوداً يكون أولهم عندك وآخرهم عنـدي»، فاسـتجاب ملـك الـروم لطلبـه، وبعث بالرجل إليه.

***

وفي عهد عمـر بـن عبـد العزيـز أغـار الـترك عـلى أذربيجـان فقتلـوا جماعـة مـن المسلمين ونالوا منهم، فوجه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلي فقتـل الترك، ولم يفلت منهم إلا اليسير، وجاء على الخليفة وهو بخناصرة بخمسين أسيرًا منهم. وغزا الوليد بن هشام المعيطي وعمرو بن قيس الكندي بأهل حمـص بـلاد الـروم عـلى رأس صائفة. وقد غزا السمح بن مالك الخولاني فرنسا فـاخترق جبـال الـبرانس، وزحـف على مقاطعتي سبتمانيا وبروفـانس، ثـم أغـار عـلى أكتيانيـا وحـاصر طلوشـة (طولـوز) فخرج له دوق أكتيانيا بجيش كبير، ونشبت معركة عظيمة بين الطـرفين استُشْـهِد فيهـا السمحُ بن مالك الخولاني عام 102هـ وتولى إمرة جند المسلمين عبد الرحمن الغـافقي، فانسحب بفلول الجيش إلى ناربونة (قاعدة سبتمانيا(. وقد تحقـق مـا تصـوره في ذلـك وزادت حركة الإقبال على الإسلام في البلاد المفتوحة في عهده زيادة كبيرة وأخـذ عمـر في إرسال الدعاة من خِيرَة العلماء ليدعوا الناس إلى الإسلام، بدلاً من إرسال الجيوش للفتح، كما بدأ يرسل الكتب إلى الملوك والأمراء المعاصرين يدعوهم إلى الإسلام فأرسل إلى أمراء ما وراء النهر، وإلى ملوك السـند، يـدعوهم إلى الإسـلام والطاعـة عـلى أن يملكهـم عـلى بلادهم ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فلما وصـلتهم رسـائله وكانـت قـد بلغتهم سيرته وعدله، فقبلوا وأسلموا، وتسموا بأسماء عربيـة. كـما أرسـل إلى إمبراطـور الدولة البيزنطية يدعوه إلى الإسلام،بعد أن خشي على المسـلمين؛ فـأمر بإعـادة الجـيش الذي كان يحاصر القسطنطينية دون جدوى منذ عهد سليمان بن عبد الملك.

ولقد تمتع الخليفة عمر بن عبد العزيـز بسـمعة طيبـة، تجـاوزت حـدود الدولـة الإسلامية، فتروي المصادر التاريخيـة أنـه حيـنما وصـل الوفـد الـذين أرسـلهم عمـر إلى إمبراطور الروم لدعوته إلى الإسلام جاءت الأخبار إلى الإمبراطور من عيونه بوفـاة عمـر، فأرسل يستدعي رئيس الوفد، فلما مَثُلَ بـين يديـه سـأله الإمبراطـور: "أتـدري لم بعثـت إليك؟ قال: لا. فقال: إن صاحب مسـلحتي كتـب إليَّ أن الرجـل الصـالح عمـر بـن عبـد العزيز مات، قال: فبكيت واشتد بكائي، وارتفع صوتي، فقال لي: ما يبكيك؟ ألنفسِك تبكي أم له أم لأهل دينك؟ فقال: لكلٍّ أبكي. قال: فابكِ لنفسك، ولأهـل دينـك، أمـا عمـر فـلا تبكِ عليه، فإن اللـه لم يكن ليجمع عليـه خـوف الـدنيا وخـوف الآخـرة. ثـم قـال: مـا عجبت لهذا الراهب الذي تعبَّدَ في صومعته وترك الدنيا، ولكن عجبت لمن أتتـه الـدنيا منقادة، حتى صارت في يده ثم تخلى عنها".

ثم يضيف الإمبراطور: "ولقد بلغني من بِرِّه وفضله وصدقه ما لو كـان أحـد بعـد عيسى يحيي الموتى، لظننت أنه يحيي الموتى، ولقد كانت تأتيني أخباره باطنًا وظاهرًا،فلا أجد أمره مع ربه إلا واحدًا، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه".

ذكرت كتب السير أن أمر عمـر بـن عبـد العزيـز أهـل طرنـدة بـالقفول عنهـا إلى ملطية وطرندة وأغلة في البلاد الرومية من ملطية بثلاث مراحل وكـان عبـد اللــه ابـن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ثلاث وثمانين وملطيـة يومئـذ خـراب وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودون إلى بلادهـم فلم يزالوا كذلك إلى أن ولي عمر فأمرهم بالعود إلى ملطيـة وأخـلى طرنـدة خوفًـا عـلى المسلمين من العدو وأخرب طرندة واستعمل على ملطية جعونة بن الحارث أحـد بنـي عامر بن صعصعة.

و كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السـند يـدعوهم إلى الإسـلام عـلى أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عـلى المسـلمين وقـد كانـت سـيرته بلغـتهم فأسلم جيشه بن ذاهر والملوك تسموا له بأسماء العب وكان عمر قد استعمل عـلى ذلـك الثغر عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسلم فعزا بعـض الهنـد فظفـر وبقـي ملـوك السـند مسلمين على بلادهم أيام عمر ويزيد ابن عبـد الملـك فلـما كـان أيـام هشـام ارتـدوا عـن

الإسلام.

ولم تطل مدة خلافته إذ توفي ولم يتجاوز الأربعين من العمر، ولربما لو طالت لكثرت الفتوحات، ولانتشر الإسلام على نطاق واسع إذ لم تكن هناك أحداث داخلية تشغل الناس عن الجهاد، ولم يكن هناك عوز يجعلهم بحاجة إلى التفكير في تأمين حاجات أهليهم، والعمل لسد الضرورات في الحياة.

***

سمرقند هي تلك البلاد العظيمة تقع في شمال آسيا، صاحبة الأرض الخضراء فيها من النعيم والجبال والتلال والغابات ماتسحر بها العيون... سمرقند هي مدينة مليئة بالذهب والفضة والحرير والخزف والثروات الطبيعية، كما إنها لها جيش قوي شديد وكان أهل سمرقند وثنيين يعبدون الأصنام التي صنعوها من الأحجار المرصعة بالجواهر ثم يسجدون لها وكانت هذه الآلهة في معبد وسط الجبال ويعتبر هذا المعبد لكبار الرهبان وكانت هناك الكثير من المعابد الصغيرة المنتشرة في وسط سمرقند.

قال البلاذري في كتابه (فتوح البلدان): وقال أَبُو عُبَيْدة وغيره لما استخلف عُمَر بْن عَبْد الْعَزِيزِ وفد عَلَيْهِ قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين عَلَى غدر، فكتب عُمَر إِلَى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا، فنصب لهم جميع بْن حاضر الباجي فحكم بإخراج المسلمين عَلَى أن ينابذوهم عَلَى سواء، فكره أهل مدينة سمرقند الحرب، وأقروا المسلمين، فأقاموا بَيْنَ أظهرهم. اهـ

وكتبت عنها كتب السير والتاريخ الإسلامي: ووفاء المسلمين بالمعاهدات ـ نصّا وروحا ـ أصبح من الحقائق التاريخية التي لا يجادل فيه باحث منصف لدرجة أنه لما خالف أحد القادة الفاتحين هذه القاعدة وشذ عليها، سجل التاريخ الإسلامي تلك الحالة الوحيدة، وأزال خليفة المسلمين تلك المخالفة، والحالة هي حالة قتيبة بن مسلم، عندما دخل سمرقند على شروط معينة، ولكنه لما دخلها لم يف بالشروط، فلما جاء الخليفة عمر

بن عبد العزيز (99/ 101 هـ) رفع إليه أهل سمرقند شكواهم، وقالوا: إن قتيبة دخل مدينتهم على وعد بالخروج منها، ولكنه لم يف بوعده، أي: غدر بهم، فكتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عامله على بلاد ما وراء النهر أن ينصب لهم قاضيا ينظر في شكواهم، فإن قضى بإخراج المسلمين من المدينة أخرجوا منها، فأقام لهم الوالي القاضي حاضر بن جميع، الذي نظر في القضية، ورأى أن الحق مع أهل سمرقند ـ المغلوبين ـ فحكم بإخراج المسلمين من المدينة على أن ينابذوهم على سواء، ولكن أهل سمرقند ـ وقد أذهلهم هذا السلوك الإسلامي الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ البشري ـ كرهوا الحرب وأقروا المسلمين على الإقامة في مدينتهم.

لم ترى المواثيق أو المعاهدات الدولية أوالحقوقية حادثة ومحاكمة مثل هذه الواقعة، في خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، كان قتيبة بن مسلم الباهلي" رحمه الله " يفتح المدن والقرى ينشر دين الله في الأرض , وفتح الله على يديه مدينة سمرقند .افتتحها بدون أن يدعوَ أهلها للإسلام أو الجزية, ثم يمهلهم ثلاثاً كعادة المسلمين، ثم يبدأ القتال .

فلما علم أهل سمرقند بأن هذا الأمر مخالف للإسلام كتب كهنتها رسالة إلى سلطان المسلمين في ذلك الوقت وهو عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، أرسلوا بهذه الرسالة أحد أهل سمرقند يقول هذا الرسول:-

(أخذت أتنقّل من بلد إلى بلد أشهراً حتى وصلت إلى دمشق دار الخلافة فلما وصلت أخذت أتنقل في أحيائها وأُحدِّث نفسي بأن أسأل عن دار السلطان، فأخذت على نفسي إن نطقت باسم السلطان أن أؤخذ أخذاً فلما رأيت أعظم بناءٍ في المدينة، دخلت إليه وإذا أناس يدخلون ويخرجون ويركعون ويسجدون، وإذا بحلقات هذا البناء، فقلت لأحدهم أهذه دار الوالي؟ قال: لا، بل هذا هو المسجد. قال: صليت؟ قال: قلت: وما صليت؟، قال: وما دينك؟ قال: على دين أهل سمرقند، فجعل يحدثني عن الإسلام حتى اعتنقته وشهدت بالشهادتين ,ثم قلت له: أنا رجل غريب أريد السلطان دلّني عليه يرحمك الله؟ قال أتعني أمير المؤمنين؟ قلت: نعم

قال: اسلك ذلك الطريق حتى تصل إلى تلك الدار وأشار إلى دار من طين.

فقلت: أتهزأ بي؟قال: لا ولكن اسلك هذا الطريق فتلك دار أمير المؤمنين إن كنت تريده، قال: فذهبت واقتربت وإذا برجل يأخذ طيناً ويسدّ به ثُلمة في الدار وامرأة تناوله الطين، قال: فرجعت إلى الذي دلّني وقلت: أسألك عن دار أمير المؤمنين وتدلّني على طيّان! فقال: هو ذاك أمير المؤمنين .

قال: فطرقت الباب وذهبت المرأة وخرج الرجل فسلّم علي ورحّب بي وغسّل يديه, وقال: ما تريد؟ قلت: هذه رسالة من كهنة سمرقند فقرأها ثم قلبها فكتب على ظهرها, (من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عامله في سمرقند أن انصب قاضياً ينظر فيما ذكروا)، ثم ختمها وناولنيها.

فانطلقت أقول: فلولا أني خشيت أن يكذبني أهل سمرقند لألقيتها في الطريق ماذا تفعل هذه الورقة وهذه الكلمات في إخراج هذه الجيوش العرمرم وذلك القائد الذي دوّخ شرق الأرض برمتها.

قال: وعدت بفضل الله مسلماً كلما دخلت بلداً صليت بمسجده وأكرمني أهله , فلما وصلت إلى سمرقند وقرأ الكهنة الرسالة أظلمت عليهم الأرض وضاقت عليهم بما رحبت, ذهبوا بها إلى عامل عمر على سمرقند فنصّب لهم القاضي جُمَيْع بن حاضر الباجي لينظر في شكواهم ,ثم اجتمعوا في يوم وسألناه دعوانا فقلنا اجتاحنا قتيبة, ولم يدعنا إلى الإسلام ويمهلنا لننظر في أمرنا فقال القاضي: لخليفة قتيبة وقد مات قتيبة "رحمه الله":أنت ما تقول؟

قال: لقد كانت أرضهم خصبة وواسعة فخشي قتيبة إن أذنهم وأمهلهم أن يتحصنوا عليه .

قال القاضي: لقد خرجنا مجاهدين في سبيل الله وما خرجنا فاتحين للأرض أشراً وبطراً، ثم قضى القاضي بإخراج المسلمين على أن يؤذنهم القائد بعد ذلك وفقاً للمبادئ الإسلامية .

ما ظنّ أهل سمرقند أنّ تلك الكلمات ستفعل فعلها ما غربت شمس ذلـك اليـوم ورجل من الجيش الإسلامي في أرض سمرقند، خرج الجيش كله ودعوهم إلى الإسـلام أو الجزية أو القتال .

فلما رأى أهل سمرقند ما لا مثيل له في تاريخ البشرية من عدالة تنفذها الدولـة على جيشها وقائدها، قالوا: هذه أمة حُكمُها رحمة ونعمة، فدخل أغلبهم في دين اللـه وفُرضت الجزية على الباقين.

تقول كتب السير: وما إنْ غرُبـت شـمس ذلـك اليـوم إلا والكـلاب تتجـول بطـرق سمرقند الخالية، وصوت بكاءٍ يُسمع في كل بيتٍ على خروج تلك الأمة العادلة الرحيمة من بلدهم، ولم يتمالك الكهنـة وأهـل سـمرقند أنفسـهم لسـاعات أكـثر، حتـى خرجـوا أفواجاً وكبير الكهنة أمامهم باتجاه معسكر المسلمين وهـم يرددون شهادة أن لا إلـه إلا اللـه محمد رسول اللـه.

أنظر إلي هذه القصة التي روتها كتب السير وأجمعت عـلى صـحتها.. مـا أعظمهـا من قصة تتحدث عن عدالة أمـة يراعهـا خليفـة عـادل، ومـا أنصـعها مـن صـفحة مـن صفحات تاريخنا المشرق، أرأيتم جيشـاً يفـتح مدينـة ثـم يشـتكي أهـل المدينـة للدولـة المنتصرة، فيحكم قضاؤها على الجيش الظافر بالخروج؟.

وهذه كانت صفحة عظيمة من صفحات تاريخنا الإسلامي وتاريخ الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذي يبرهن في كل موقف، بل وفي كل يوم على عـدل الإسـلام مـع المسلمين ومع غير المسلمين، والتي تثبت لكل المشككين في عدل عمر بن عبد العزيز.

الفصل الثامن

أخلاق وفضائل الخليفة العادل

لقد شهد له رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم بأنه خير أهل زمانه، وفي ذلك قال العباس بن راشد: زار عمر بن عبد العزيز مولاي فلما أراد الرجوع قال لي: اخرج معه فشيعه، فإذا نحن بحية سوداء ميتة، فنزل عمر عن بغلته فدفنها فإذا بهاتف يهتف: يا خرقاء يا خرقاء، إني سمعت رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم يقول لهذه الحية: لتموتن بفلاة من الأرض وليدفنك خير أهل الأرض يومئذ، فقال عمر: أنشدتك اللـه إن كنت ممن يظهر إلا ظهرت لي فقال: أنا من التسعة الذين بايعوا رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم في هذا الوادي، وإني سمعته يقول لهذه الحية ذلك، قال: فبكى عمر حتى كاد يسقط عن راحلته وقال: أنشدتك اللـه ياراشد ألا تخبر بهذا أحداً حتى يواريني التراب.

كان مفتاح شخصية عمر تلك النفس التواقة التي كانت دائمة التطلع و السعي إلى أوج المكارم و الفضائل، فما تبلغ منزلة إلا تاقت إلى ما هو خير منها، وأعلى مكانا، وأحسن رئيا، ولقد عبر هو عن نفسه فقال: " كانت لي نفس تواقة، فكنت لا أنال شيئا إلا تاقت إلى ما هو أعظم منه، فلما بلغت نفسي الغاية، تاقت إلى الآخرة". وعن سعيد بن عامر عن جويرية بن أسماء قال: قال عمر: " إن نفسي هذه تواقة، لم تعط من الدنيا شيئا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه, فلما أعطيت الخلافة التي لاشيء افضل منها، تاقت إلى ما هو أفضل منها".

قال سعيد : الجنة أفضل من الخلافة.

لقد نشأ عمر نشأة طاهرة صالحة، فلما جاءه الشباب، ومن بعد الشباب الرجولة، كانت أخلاقه، و فضائله العالية قد وضع أساسها في رسوخ و ثبات على تقوى من اللـه.

وفي فترة الشباب- بما فيها من طموح- تؤثر الكفايات و المواهب أن تنطلق لتعبر عن نفسها، بعيدا عن تأثير الفضائل التي تحاول الأخذ بزمامها, وكبح جماحها. لكن ابن عبد العزيز كان من طراز فريد، فمواهبه التي تتقد في نفسه و تمور مورا، كانت في قبضة فضائله، توجهها الوجهة الصحيحة السليمة المستقيمة، ذلك أن شخصيته أسست على أصول راسخة، وتكاملت على نسق فذ. إن فضائله التي تفتحت براعمها في طفولته، أخذت الآن تغادر تلك البراعم لتفوح بعبيرها, وتملأ ساحة الشباب الواسعة العريضة، فتوسعت آفاقها و تعبيراتها و انعكاساتها في حياة الشاب و الرجل والخليفة.

وتلك الفضائل و المكارم لم تكن أسيرة جو معين موقت، ولا ردة فعل عن رغبات مكبوتة، ولا مظاهر عارضة تعصف بها عوارض الأيام، وتغشيها زخارف النعيم ومباهج الحياة؛ لا، بل إنها كانت تنبع من معين لا ينضب، وتتفجر من أصول ممتدة تتصل بابن الخطاب بسبب وثيق، وترضع من تقوى الفتاة الهلالية، وتنمو على شيخ الصحابة الأجل ابن عمر.

لقد كان رجلا فردا تكاملت فيه عناصر الرجولة الحقة، والتدين القويم، والأخلاق العالية, والتي تربت على كتاب اللـه منذ الصغر، ونهلت من معين السنة، وعاشت في كنف العلماء الأتقياء، و الزهاد العباد. فتوثقت بين عمر وبين هذه العوامل وأواصر الحب و الاقتداء، وتنامت وشائج الصلة معها؛ فجمع بين العلم و العمل.

وكان عمر يقول لجلسائه : من صحبني منكم فليصحبنى بخمس خصال: يدلنى من العدل الى ما لا أهتدى له، ويكون لى على الخير عونا، ويبلغنى حاجة من لا يستطيع إبلاغها، و لا يغتاب عندى أحدا، ويؤدى الأمانه التى حملها منى ومن الناس، فاذا كان ذلك فحى هلا به، وإلا فهو خرج من صحبتى والدخول على.

نادى رجلٌ أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي اللـه عنه:يا خليفة اللـه في الأرض! فقال له

عمر: مه، إني لما ولدت اختار لي أهلي اسمًا، فسموني عمر، فلو ناديتني: يا عمر، أجبتك. فلما كبرت اخترت لنفسي الكنى، فكنيت بأبي حفص، فلو ناديتني: يا أبا حفص، أجبتك. فلما وليتموني أموركم سميتموني أمير المؤمنين، فلو ناديتني: يا أمير المؤمنين؛ أجبتك. وأما خليفة الله في الأرض، فلست كذلك، ولكن خلفاء الله في الأرض داود النبي عليه السلام وشبهه، قال الله تبارك وتعالى: " يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ".

كان بحق إنسانا ربانيا يتبع المنهج الرباني القرآني في كل حياته، في شبابه، و كهولته، عندما كان واحدا من المسلمين, وإبان ولايته للحرمين، وحين أضحى خليفة المسلمين, وكان صارما في إتباع منهج الله تعالى، ملتزما الحق في تطبيقه على نفسه وأهله والناس أجمعين.

تلك هي الأخلاق الأصيلة التي لا تتغير بتغير الأطوار، ولا تتلون حسب الزمان والمكان، ولا تضطرب موازينها بين حين و آخر، أو موقف وآخر.

ومن أخلاقه الكرم والسخاء, فكان ينفق في ذات الله على العلماء و الفقراء، والمساكين و المحتاجين، يبتغي بذلك وجه الله، ولا يرى لنفسه في ذلك فضلا، ولا يستكثر نفقة مهما عظمت. وفي ذلك يقول " ما أعطيت أحدا مالا إلا و أنا استقله، وإني لأستحي من الله عز وجل أن اسأل الجنة لأخ من أخواني، وأبخل عليه بالدنيا فإذا كان يوم القيامة قيل لي: لو كانت الجنة بيدك كنت بها ابخل".

وكان يحرر العبيد، ومن ذلك ما يرويه ابن سعد بسنده : " احتبس عمر بن عبد العزيز غلاما له، يحتطب عليه و يلقط له البعر. فقال له الغلام: الناس كلهم بخير غيري و غيرك! فقال: فاذهب فأنت حر ".

كما كان يكرم العلماء، ويرفع منازلهم، ويعطيهم دونما مسألة منهم له فعن مجاهد قال: " قدمت على عمر بن عبد العزيز، فأعطاني ثلاثين درهما، و قال : يا مجاهد، هذه من عطائي".

ومن خلقه الكريم أنه كان تقيا، يتحرى اللقمة الحلال، ويعظ ما يقدر عليه، ويحث الناس على طاعة اللـه وحساب اليوم الآخر.

ومن شدة ورعه، كان لا يحكم على أحد متعجلا مخافة أن يظلمه، بل يتروى ثلاثة أيام قبل أن يصدر الحكم على رعيته حتى وصف بأنه هو الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد، الراشد.

وكان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين، وكان حسن الأخلاق والخُلق، كامل العقل، حسن السمت، جيِّد السياسة حريصاً على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، طاهر الذكاء والفهم، أوّاها منيباً، قانتا لله حنيفاً، زاهداً مع الخلافة ناطقاً بالحق مع قلة المعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوهُ وكرهوا محاققته لهم، ونقصه أُعطياتهم، وأخذه كثيراً مما في أيديهم مما أخذوه بغير حق.

كان وهب بن منبه الفقيه الورع مسؤولاً عن بيت مال اليمن في عهده، فكتب إلى عمر: إني فقدت منه دنانير، فأجابه: إني لا أتهم دِينكَ ولا أمانتكَ، ولكني أتهم تضييعكَ وتفريطكَ، وأنا حجيج المسلمين في أموالهم، وأمره بردّ ما فقد من المال، فردّه وهب من خاصّة ماله!.

قال دُكَيْن بن سعيد الدارمي: إنِّي امرؤ من قطن من دارم طلبت دَيني من أخي المكارم فنظر إليّ مَولاه أبو يحيى نظرة طويلة، ثم التفت إليه، وقال: يا أمير المؤمنين, إن عندي لهذا البدوي شهادةً عليك, كان أحد شهوده مولاه أبو يحيى، فقال: أعرفها، ثم التفت إليّ وقال: ادن مِني يا دُكَين، فلما صرت بين يديه مال عليّ، وقال: أتذكر ما قلته لك في المدينة: من أن نفسي ما نالَت شيئًا قط، إلا أنها تاقت إلى ما هو أعلى منه؟ فقلت: نعم، يا أمير المؤمنين، فقال: وهذا أنا ذا نلت غاية ما في الدنيا، وهو المُلك، فنفسي الآن تتوق إلى غايَة ما في الآخرة، وهي الجنَّة.

- ومرةً قال: تاقَت نفسي إلى الإمارة، فلما بلغتها، تاقَت نفسي إلى الخلافة، فلمَّا

بلغتها، تاقَت نفسي إلى الجنَّة، ولئن كان الملوكُ يجعلـون الملـك سـبيلاً لبلـوغ عـز الدنيا، فلأجعلنهُ سبيلاً إلى بلوغ عز الآخرة .

ثم قال: يا دُكَين، إني والـلـه ما رزأت - أخذت - المسـلمين في أمـوالهم درهـمًا ولا دينارًا منذ وليت هذا الأمر، وإني لا أملك إلا ألف درهمٍ، فخذ نصفها، واترك لي نصـفها، فأخذت المال الذي أعطانيه، فو الـلـه ما رأيت أعظم منه بركةً.

هذه أول صورة، شاعر أعطاه يوم كان أميرًا خمس عشرة ناقة، فلما صـار خليفـة، أعطاه خمسمئة دينار من ماله الشخصي، وهو يقسـم أنـه مـا أخـذ دينـارًا واحـدًا مـن مسلمٍ من رعِيته .

سيدنا عمر بن الخطاب قال هذا، قال: " أيهـا النـاس، لكـم عـلي خمـس خِصـال, خذوني بهن؛ لكم علي أن لا آخذ من أموالكم شيئًا إلا بِحَقها، ولكم علي أن لا أنفق هذا المال إلا بِحَقه، وإذا غبت في البعوث، فأنا أبو العيال حتى ترجعوا، ولكم عـلي أن أزيـد عطاياكم إن شاء الـلـه تعالى، ولكم عليَّ أن لا أُجمِّركم في البعوث ".

وقال: يرويها قاضي الموصِل يحيى بن يحيـى الغسـاني، يقـول: (بيـنما عمـر يطـوف ذات يومٍ في أسواق حمص، يتفقد الباعة، وليَتعرف على الأسعار، إذ قام إليـه رجـل، عليـه بردان أحمران قطريان، وقال: يا أمير المؤمنين، لقد سمعتُ أنَّك أمـرْت مـن كـان مظلومًـا أن يأتِيَك, فقال: نعم، وها أنا قد أتيتك، وها قد أتاك رجل مظلوم بعيد الدار، فقال عمـر: وأين أهلك؟ فقال: في عدن، فقال عمر: إن مكانك من مكـان عمـر لبعيـد، ثـم نـزل عـن دابته، ووقف أمامه، وقال: وما ظلامتُـكَ؟ فقـال: ضـيعة لي - بسـتان - وثـب عليهـا رجـل ممن يلوذون بك، وانتزعها مني، فكتب عمر كتبًا إلى عروة بن محمـد واليـه عـلى عـدن, يقول فيه: أما بعد، فإذا جاءك كتابي هذا, فاسمع بينة حامله، فإن ثبـت لـه حـق، فـادفع له حقه، ثم ختم الكتاب، وناولَهُ الرجل، فلما هم الرجل بـالانصراف، قـال لـه عمـر: عـلى رِسْلِك، إنَّك قد أتَيْتنا من بلدٍ بعيد، ولا ريب في أنك استنفذت في رحلتك هـذه زادًا كثـيرًا، وأخلقت ثيابًا جديدة، ولعله نفقت لك الدابـة، ثـم حسـب ذلـك كلـه, فبلـغ ذلـك أحـد

عشر دينارًا, فدفعها إليه، وقال: أَشِع هذا في الناس، قل للناس: إن عمر أعطاني نفقة السفر، حتى لا يتثاقل مظلوم عن رفع ظلامته بعد اليوم، مهما كان بعيد الدار .

وروى العابد الزاهد زِياد بن ميْسَرَة المخزومي، قائلا: (أرسلني موْلاي عبد اللـه بن عياش من المدينة إلى دمشق لِلقاء أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في حوائج له، وكانت بيني وبين عمر صِلَةٌ قديمة, ترجعُ إلى عهْد ولايتِهِ على المدينة، فدخلْت عليه, فإذا عندهُ كاتبٌ يكتب له، فلمَّا صِرْتُ في عتبة الحجرة, قلْتُ: السلام عليكم، فقال: وعليكم السلام ورحمة اللـه يا زِياد, ثمَّ مضَيْتُ نحْوهُ خَجِلاً، لأنّي لم أُسلِّمْ عليه بإمرة المؤمنين، فلمَّا انْتَهيْتُ إليه قلتُ: السَّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللـه تعالى وبركاته، عدَّلَ, فقال: يا زِياد, إنَّني لمْ أُنْكرْ عليك السَّلام الأوّل، فما الحاجة إلى الثاني؟ - المؤمن يتعلَّق بالحقائق، وبِجَوْهر الحياة. فقال: يا زِياد, إنَّني لمْ أُنْكرْ عليك السَّلام الأوّل، فما الحاجة إلى الثاني؟ فكان كاتبُهُ إذْ ذاك يقرأُ عليه مظالمَ جاءتْهُ من البصرة مع البريد، فقال لي: اِجْلسْ يا زياد حتَّى نفْرغَ لك، فجلسْتُ على خشبة الباب, والكاتب يقرأ عليه, وعمر يتنفَّس الصُّعداء من الهمّ، فلمَّا فرغَ كاتبهُ من قراءة الرِّقاع التي معه، وانطلقَ إلى شأنه، قام عمر من مجلسِهِ, ومشى إليه، حتى جلسَ بين يديّ عند الباب، ووضعَ يديْه على ركبتي، ثمَّ يقوم سيّدنا عمر بن عبد العزيز بنفسه عند هذا المولى الذي جاءهُ من المدينة، وقد أرجأهُ قليلاً, لِيَحلّ قضايا المظالم، يبدو أنَّه غفل، فقال لِزياد: هنيئًا لك يا زياد، لقد اسْتدفأْتَ بِمَدْرعتِكَ، واسْترحْتَ مِمَّا نحن فيه, الخلافة كانتْ عبئًا.

-سيّدنا عمر قال: لسْتُ خيرًا من أحدكم، ولكنَّني أثقلكم حِمْلاً، واللـه لو تعثَّرَتْ بغلةٌ في العراق, لحاسبني اللـه عنها، لِمَ لمْ تفْسِح لها الطريق ياعمر؟!.

مرَّةً حرمَ نفسهُ أكلَ اللَّحْم مدّةً طويلة، فأصبحَ في بطنهِ صوتًا، فقال: "قَرْقِرْ أيُّها البطْن أو لا تُقَرْقِرْ، فو اللـه لن تذوق اللَّحْم, حتى يشبعَ منه صِبْيَة المؤمنين".

مرَّةً دخلتْ عليه زوجتهُ فاطمة، فرأتْهُ يبكي في مُصلاَّه، قالتْ له: ما لكَ تبكي؟ فقال: دعيني وشأني، فلمَّا ألحَّتْ عليه، قال: إنِّي وُلِّيتُ هذا الأمْر، فذكَرْتُ الفقير الجائع،

والضَّعيف، وذو الحاجة، والأسير، والمظلوم، وذا العِيال، فعَلِمْتُ أنَّ اللــه سيُحاسبني عن هؤلاء جميعًا، وأنّ حجيجَهم دوني رسولُ اللـه، فلهذا أبكي، دعيني وشأني .

وكانت عليَّه مدْرعة صوف، ثمَّ طفقَ يسألني عن صُلَحاء أهل المدينة؛ رِجالهم ونسائهم واحدًا واحدًا، فما ترك منهم واحدًا إلا وسألني عنه، ثمّ سألني عن أشياء كان أمرَ بها في المدينة, حينما كان واليًا عليها، فأخبرتهُ عن كلّ ما سأل، ثمَّ تنهَّد وقال: يا زياد, ألا ترى إلى ما وقع فيه عمر؟ فقلتُ: إنِّي أرجو لك في ذلك خيرًا وأجْرًا، فقال: هيهات, ثمَّ بكى, حتى رثَيْتُ له، وقلتُ: ارْفِق بِنَفسك يا أمير المؤمنين, فإنِّي لأرجو لك خيرًا كثيرًا, فقال: ما أبْعَدَ ما ترْجوهُ يا زياد!

قال: لقد أصْبح في وُسعي أن أشْتِمَ ولا أُشْتَم، وأن أضْربَ ولا أُضرَب، وأن أوذِيَ الناس, ولا يؤذيني أحد، -مَن بإمكان مجابهة الملك؟ ومن بإمكانه أن يضربهُ؟ منْصب الملك أعلى منصب- ثمَّ بكى كرَّةً أخرى حتى جعلتُ أرثي له، ولقد أقمْت عندهُ أيامًا ثلاثة, حتى قضى ما أرسلني به مولاي، فلمَّا هممْتُ بالانصراف, زوَّدني بِكتابٍ إلى سيّدي يسألهُ فيه: أن يبيعني منه، ثمَّ أخرج من تحت فراشه عشرين دينارًا، وقال: اسْتَعِن بهذا المال على دنياك، ولو كان لك حقّ في الفيء لأعْطَيناك، فأبيْتُ أن آخذ المال منه، فقال: خُذْهُ فما هو من مال المسلمين, إنَّما هو من نفقتي، فامْتنعْتُ عن أخذه، ولكنَّه ما زال بي حتى أخذتهُ منه, ومضَيْتُ، فلمَّا بلغْت المدينة, دفعْت بكتاب أمير المؤمنين إلى مولاي، ففضَّه، وقال: إنَّما سألني أن أبيعك له لِيُعْتِقَكَ, فلِمَ لا أكون أنا المُعْتِقُ لك؟ ثمّ أعْتقَهُ).

وكان عمر حليمًا, خرج ذات ليلة إلى المسجد ومعه رجل من الحراس، فلما دخل عمر المسجد مرَّ في الظلام برجل نائم، فأخطأ عمر وداس عليه، فرفع الرجل رأسه إليه وقال أمجنون أنت؟ فقال: لا، فتضايق الحارس وهَمَّ أن يضرب الرجل النائم فمنعه عمر، وقال له: إن الرجل لم يصنع شيئًا غير أنه سألني: أمجنون أنت؟ فقلت: لا.

لقد كان همه الأول والأخير أن يعيش المسلمون في عزة وكرامة، ينعمون بالخير والأمان، كتب إلى أحد أمرائه يقول: لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه،

وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، وكان يأمر عماله بسداد الديون عن المحتاجين، وتزويج من لا يقدر على الزواج، بل إن مناديه كان ينادي في كل يوم: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى استطاع بفضل من اللـه أن يغنيهم جميعًا.

أحيانًا الإنسان, يقال له: تعال إلينا بعد يومين، لنسألك عن بعض الموضوعات، لا ينام الليل، ولا يأكل، ولا يشرب، إنسان سيسألك، وأنت بريء، ولم تقترف إثماً، ولم ترتكب جرماً، ولك صفحة بيضاء ناصعة جداً، ومع ذلك لا تنام الليل، ولا تأكل، تقول: ماذا يريدون مني؟ يا ترى ما السؤال؟ لذلك قال صلى اللـه عليه وسلم: " لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت؛ ما أكلتم طعاما على شهوة أبدا، ولا شربتم شرابا على شهوة أبدا، ولا دخلتم بيتا تستظلون به، ولمررتم إلى الصعدات تلدَمون صدوركم, وتبكون على أنفسكم ".

قال: فرحّب بي، وقال: أدنُ مني يا أبا حازم، فلما دنوتُ منه, قلت: ألستَ أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز؟ قال: بلى، -هذا يعني أنّه تَغَيَّر تغيُّرًا شديدًا، وهذا الحزن المقدس، وهذا هو القلق المقدس، وهذا هو الخوف المقدس، هناك قلق على الدنيا، وخوف من الفقر، وخوف من زوال بعض النعم، وحزن على ما فات من الدنيا.

الصديق رَضِي اللـه عَنْه, قرأت عنه كلمة لا أنساها: ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط، والنبي عليه الصلاة والسلام يعلِّمنا من خلال بعض أدعيته، أن الدنيا لا قيمة لها، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ, قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللـهِ صلى اللـه عليه وسلم: "لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللـهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ" أخرجه الترمذي في سننه

عَنْ عَبْدِ اللـهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ, عَنْ رَسُولِ اللـهِ صَلَّى اللـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: "اللـهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ, وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ, اللـهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ, اللـهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ" أخرجه الترمذي في سننه

يعني بالنهاية زوجته ليست كما يريد، وبيته ليس كما يريد، ودخله ليس كما يريد، "

وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ ".

الدنيا مشغلة، ومجبنة، ومبخلة، فربما لا تدري أن هذا الوضع المتوسط هو أنسب وضع لك أيها المؤمن، وأن هذه المشكلة هي التي دفعتك إلى اللـه، وأن هذه المصيبة هي التي حفزتك إلى باب اللـه، فلذلك أنا متأثر جداً بقول الإمام الغزالي: (ليس في الإمكان أبدع مما كان) فحينما أُخِذَ عليه هذا القولُ, فَسَّره بعضهم وقال: أيْ ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني.

ألست أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز؟ قال: بلى، فقلت: ما الذي حل بك؟ ألم يكن وجهك بهيًّا, وإهابك طريًّا, وعيشك رخيا؟ قال: بلى.

***

كان عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة على قدم الصلاح إلا أنه كان يبالغ في التنعم فكان الذي يعيبونه من حساده لا يعيبونه إلا بالإفراط في التنعم والاختيال في المشية.

ولما تلقى عمر بن عبد العزيز خبر توليته، انصدع قلبه من البكاء، وهو في الصف الأول، فأقامه العلماء على المنبر وهو يرتجف، ويرتعد، وأوقفوه أمام الناس، فأتى ليتحدث فما استطاع أن يتكلم من البكاء، قال لهم: بيعتكم بأعناقكم، لا أريد خلافتكم، فبكى الناس وقالوا: لا نريد إلا أنت، فاندفع يتحدث، فذكر الموت، وذكر لقاء اللـه، وذكر مصارع الغابرين، حتى بكى من بالمسجد.

يقول رجاء بن حيوة: واللـه لقد كنت أنظر إلى جدران مسجد بني أمية ونحن نبكي، هل تبكي معنا!! ثم نزل، فقربوا له المَراكب والموكب كما كان يفعل بسلفه، قال: لا، إنما أنا رجل من المسلمين، غير أني أكثر المسلمين حِملاً وعبئاً ومسئولية أمام اللـه، قربوا لي بغلتي فحسب، فركب بغلته، وانطلق إلى البيت، فنزل من قصره، وتصدق بأثاثه ومتاعه على فقراء المسلمين.

ثم نزل في غرفة في دمشق أمام الناس؛ ليكون قريبًا من المساكين والفقراء والأرامل، ثم استدعى زوجته فاطمة، بنت الخلفاء، أخت الخلفاء، زوجة الخليفة، فقال لها: يا

فاطمة، إني قد وليت أمر أمة محمد عليه الصلاة والسلام - وتعلمون أن الخارطة التي كان يحكمها عمر، تمتد من السند شرقًا إلى الرباط غربًا، ومن تركستان شمالاً، إلى جنوب أفريقيا جنوبًا - قال: فإن كنت تريدين الله والدار الآخرة، فسلّمي حُليّك وذهبك إلى بيت المال، وإن كنت تريدين الدنيا، فتعالي أمتعك متاعاً حسنًا، واذهبي إلى بيت أبيك، قالت: لا والله، الحياة حياتُك، والموت موتُك، وسلّمت متاعها وحليّها وذهبها، فرفَعَه إلى ميزانية المسلمين.

***

ذكر ابن سعد في الطبقات عن عمر بن عبد العزيز أنه كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب قطعه، وإذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مزقه ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي.

اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي به مرضاة الله مطالعا فيه منة الله عليه به وتوفيقه له فيه وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته، بل هو الذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن، فالذي من عليه بذلك هو الذي من عليه بالقول والفعل فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته ونظر قلبه لم يحضره العجب الذي أصله رؤية نفسه وغيبته عن شهود منة ربه وتوفيقه قلبه لم يحضره العجب الذي أصله رؤية نفسه وغيبت عن شهود منه ربه وتوفيقه وإعانته. فإذا غاب عن تلك الملاحظة وثبت النفس وقامت في مقام الدعوى، فوقع العجب ففسد عليه القول والعمل، تارة يحال بينه وبين تمامه ويقطع عليه ويكون ذلك رحمة به حتى لا يغيب عن مشاهدة المنة والتوفيق. وتارة يتم له ولكن لا يكون له ثمرة، وإن أثمر ثمرة ضعيفة غير محصلة للمقصود. وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه، ويتولد له منه مفاسد شتى بحسب غيبته عن ملاحظة التوفيق والمنة ورؤية نفسه وإن القول والفعل به.

من هذا الموضع يصلح الله سبحانه أقوال عبده وأعماله ويعظم له ثمرتها أو يفسدها عليه ويمنعه ثمرتها فلا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس، فإذا أراد الله بعبده

خيرا أشهده منته وتوفيقه وإعانته له في كل ما يقوله ويفعله فلا يعجب به. ثم أشهده تقصيره فيه وأنه لا يرضى لربه به فيتوب إليه منه ويستغفره، ويستحي أن يطلب عليه أجرا وإذا لم يشهده ذلك وغيبه عنه فرأى نفسه في العمل ورآه بعين الكمال والرضا، لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة، فالعارف يعمل العمل لوجهه مشاهدا فيه منته وفضله وتوفيقه، معتذرا منه إليهن مستحييا منه إذ لم يوفه حقه، والجاهل يعمل العمل لحظه وهواه ناظرا فيه إلى نفسه يمن به على ربه راضيا بعمله، فهذا لون وذاك لون آخر.

وعن فاطمة ابنة عبدالملك، قالت : اشتهى عمر بن عبد العزيز يومًا عسلاً, فلم يكن عندنا، فوجهنا رجلاً على دابة من دواب البريد إلى بعلبك بدينار، فأتى بعسل، فقلت: إنك ذكرت عسلاً وعندنا عسل، فهل لك فيه؟ قالت : فأتيناه به فشرب، ثم قال: من أين لكم هذا العسل؟

قالت: وجَّهنا رجلاً على دابةٍ من دواب البريد بدينار إلى بعلبكَّ, فاشترى لنا عسلاً.

فأرسل إلى الرجل، فقال : انطلق بهذا العسل إلى السوق فبعه، واردد إلينا رأس مالنا، وانظر إلى الفضل، فاجعله في علف دواب البريد، ولو كان ينفع المسلمين قيءٌ لتقيَّأتُ.

أُتِي عمر بن عبدالعزيز من الفيء ذات يوم بعنبره، وعنده ليث بن أبي رقيَّة كاتبه، فأخذها بيده فمسحها، ثم أمر بها، فرفعت حتى تباع، قال : ثم إنَّه أمرَّ يده على أنفه، فوجد ريحها، فدعا بوضوء، فتوضأ، قال: فقلت له: ما هذا الذي أصبت منها حتى تتوضَّأ؟

قال: عجبًا لك يا ليث، وهل يُنْتَفع منها إلا بالذي وجدت، أتُؤْكل؟ أو تُشرَب؟

قال: وأُتي عمر بن العزيز يومًا بمسك من الفيء، فَوُضِع بين يديه، فوجد ريحه، فوضع يده على أنفه، وقال: أخِّروه، حتى لم يجد له ريحًا.

وذكر ابن الجوزي: أُرْسِلَت لعمر بن عبدالعزيز سلَّتا رُطبٍ من الأُردن, فقال : ما هذا؟

قالوا : رطب بعث به أميـر الأردن.

قال : علامَ جيء به؟

قالوا على دواب البريد.

قال : فما جعلني اللـه أحقَّ بدواب البريد من المسلمين, أخرجـوهما, فبيعـوهما, واجعلوا ثمنهما في علف دواب البريد.

فغمزني ابن أخيه فقال لي: اذهب، فإذا قامتا على ثمن، فخذهما عليَّ.

قال: فأُخرجتا إلى السُّوق فبلغتا أربعة عشر درهـماً, فأخـذتُهما, فجئـت بــهما إلى ابن أخيه, فقال : اذهب بـهذه الواحدة إلى أمير المؤمنين.

وحبس لنفسه واحدةً، قال: فأتيته بـها، فقال: ما هذا؟

قلت: اشتراهما فلان ابن أخيك, فبعث إليك بـهذه وحبس لنفسه الأخرى.

قال: الآن طاب لي أكله.

وقال عمر لزوجته فاطمة بنت عبدالملك :

قد علمت حال هذا الجوهر - لحليها - وما صنع فيه أبوك, ومن أين أصابه, فهل لك أن أجعله في تابوت، ثم أطبع عليه , اجعله في أقصى بيت مال المسلمين، وأنفـق مـا دونه، فإن خلصت إليه أنفقته، وإن مت قبل ذلك ليرُدُّنـَّـه إليك؟

قالت له: افعل ما شئت.

ففعل ذلك، فمات رضي اللـه عنه، ولم يصل إليه، فردّ ذلك عليها أخوها يزيد بـن عبدالملك، فامتنعت من أخذه، وقالت: ما كنت لأتركه ثم آخذه.

فقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه.

وأتت عمَّةُ عمر بن عبدالعزيز إلى امرأته فاطمة، فقالت:

إنِّي أُريد كلام أميـر المؤمنين، قالت لها: اجلسي حتى يفرُغ.

فجلست، فإذا بغلام قد أتى، فأخذ سراجًا.

فقالت لها فاطمة: إن كنت تريدينه فالآن، إذا كان في حوائج العامَّة كتب على الشمع، وإذا صار في حاجة نفسه دعا بسراجه.

فقامت، فدخلت عليه، فإذا بين يديه أقراصٌ وشيء من ملح، وزيت، وهو يتعشى، فقالت: يا أمير المؤمنين، أتيت بحاجة لي، ثم رأيت أن أبدأ بك قبل حاجتي.

قال: وما ذاك يا عمَّة؟

قالت: لو اتخذت لك طعامًا ألينَ من هذا.

قال: ليس عندي يا عمَّه، ولو كان عندي لفعلت.

قالت: يا أمير المؤمنين، كان عمك عبدالملك يُجرِي عليَّ كذا وكذا, ثمَّ كان أخوك الوليد فزادني, ثم وُلِّيت أنت فقطعته عني.

قال: يا عمَّة، إن عمي عبدالملك، وأخي الوليد، وأخي سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين، وليس ذلك لي، فأعطيَكِه، ولكني أعطيك مالي إن شئت.

قالت: وما ذاك، يا أمير المؤمنين؟

قال: عطائي مائتا دينار, فهل لك؟

قالت: وما يبلغ مني عطاؤك؟

قال: فليس أملك غيره يا عمَّة.

قالت: فانصرفت عنه.

قال الأوزاعي رحمه الله: كان عمر بن عبد العزيز يصوم ويفطر على البقل وكان في غالب أوقاته يغمس الخبز بالدقيق ويأكله، وأُهدي إليه طبق فيه تفاح فردّه ولم يأكل منه شيئا، فقيل له ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية؟! قال بلى ولكن الهدية لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية ولنا رشوة.

أدرك عمر عظم المهمة التي حملها فكان بعد رجوعه من جنازة سليمان مغتمًا فسأله مولاه : مالي أراك مغتمًا؟ قال : لمثل ما أنا فيه فليغتم، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إلى فيه ولا طالبه مني .

عن عطاء بن رباح قال: حدثتني فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز: أنها دخلت عليه فإذا هو في مصلاه، سائلة دموعه... فقلت: يا أمير المؤمنين، ألشيء حدث؟.

قال: يا فاطمة إني تقلدت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، و المظلوم المقهور، والغريب المأسور، وذي العيال في اقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد صلى الله عليه وسلم, فخشيت أن لا تثبت لي حجة عن خصومته، فرحمت نفسي فبكيت.

قال ابن عبد الحكم: "لما ولي عمر بن عبد العزيز زهد في الدنيا، ورفض ما كان فيه، وترك ألوان الطعام"، فكان لا يهمه من الأكل إلا ما يسد جوعه، ويقيم صلبه، وكانت نفقته وعياله في اليوم درهمين، كما في الأثر عن سالم بن زياد قال: "كان عمر ينفق على أهله في غدائه وعشائه كل يوم درهمين"، وكان لا يلبس من الثياب إلا الخشن، وترك مظاهر البذخ والإسراف التي سادت قبله وأمر ببيعها وأدخل أثمانها في بيت مال المسلمين، بل إنه في مرض موته لم يكن له إلا ثوب واحد؛ فعن مسلمة بن عبد الملك قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه فإذا عليه قميص وسخ, فقلت لفاطمة بنت عبد الملك "زوجة عمر": - يا فاطمة اغسلي قميص أمير المؤمنين. قالت: نفعل إن شاء الله. ثم عدت فإذا القميص على حاله, فقلت: يا فاطمة ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين؟! قالت: والله ما له قميص غيره ".

قال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: " قال لي رجاء بن حيوة: ما رأيت أكرم أدبا ولا أكرم عشرة من أبيك، سمرت عنده ليلة، فبينا نحن كذلك إذ عشى المصباح ونام الغلام، فقلت: يا أمير المؤمنين قد عشى المصباح ونام الغلام فلو أذنت لي أصلحه، فقال: «إنه ليس من مروءة الرجل أن يستخدم ضيفه»، ثم حط رداءه عن منكبيه وقام

إلى الدبة، فصب من الزيت في المصباح وأشخص الفتيلة ثم رجع، وأخذ رداءه وقال: «قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر".

ومر يوم العيد، بعد أن صلى بالمسلمين، وهو على بغلته، مرَّ بالمقابر، فقال: انتظروني قليلاً - ذكر ذلك ابن كثير - انتظروني قليلاً فوقف الوزراء، والصلحاء، والأمراء، والناس، ونزل عن بغلته، فوقف على المقبرة، التي فيها الخلفاء من بني أمية، والتي فيها الأغنياء، وقال:

أتيت القبب،ورَ فناديتها ... أين المعظّم والمحتقر

تفانوا جميعًا فما مخبرٌ ... وماتوا جميعًا ومات الخبر

فيا سائلي عن أناس مضَوْا ... أمالَك فيما مضى معتبر

ثم وقف على طرف المقبرة وقال: يا موت، ماذا فعلت بالأحبة؟ يا موت ماذا فعلت بالأحبة؟ ثم بكى وجلس ينتحب، حتى كادت أضلاعه أن تختلف، ثم عاد إلى الناس، وقال: أتدرون ماذا قال الموت؟ قالوا: ما ندري. قال: يقول بدأت بالحدَقتين، وأكلت العينين، وفصَلت الكفين من الساعدين، والساعدين من العضدين، والعضدين من الكتفين، وفصلت القدمين من الساقين، والساقين من الركبتين، والركبتين من الفخذين.

باتوا على قُلَلِ الآمال تحرسهم ... غُلبُ الرجالِ فما أغنتهم القُلَلُ

واستُنْزِلوا بعد عزٍّ من مساكنهم ... إلى مقابرهم يا بئس ما نزلوا

عاد عمر بن عبدالعزيز يومًا إلى داره بعد صلاة العِشاء، ولمح بناته الصغار، فسلم عليهن كعادته، وبدلاً من أن يسارعن نحوه بالتحية كعادتهن، رحن يتبادرن الباب ويغطين أفواههن بأكفهن، فسأل: ما شأنهن؟ فأجيب بأنه لم يكن لديهن ما يَتعشين به سوى عدس وبصل، فكرهن أن يشم من أفواههن ريح البصل، فتحاشينه لهذا، فبكى أمير المؤمنين، وقال يخاطبهن: يا بناتي، ما ينفعكن أن تعشن الألوان والأطايب، ثم يُذهب بأبيكن إلى النار.

وكان من زهده أنه كانت إذا جاءته الأموال يقسمها على الناس ولا يأخذ منها

شيئاً؛ فعن الفهري عن أبيه، قال: كان عمر بن عبد العزيز يقسم الفيء فتناول ابـن لـه صغير تفاحة، فانتزعها من فيه، فأوجعه فسـعى إلى أمـه مسـتعبراً -يـبكي- فأرسـلت إلى السوق فاشترت له تفاحاً، فلما رجع عمر وجد ريح التفاح، فقال: يا فاطمـة هـل أتيـت شيئاً من هذا الفيء؟ قالت: لا. وقصت عليه القصة، فقال: والـلـه لقد انتزعها من ابني لكأنما نزعتها من قلبي، ولكن كرهتُ أن أضيع نصيبي من الـلـه -عز وجل- بتفاحة من فيء المسلمين.

وكان عمر بن عبد العزيز كثير التضرع والدعاء، فقد كـان يقـول: يـا رب خلقتنـي ونهيتني ووعدتني بثواب ما أمرتني، ورهبتني عقاب ما نهيتني عنه وسلطت علي عدواً أسكنته صدري وأجريته مجـرى دمـي، إن أهـمّ بفاحشـة شـجعني وإن أهـم بصـالحة ثبطني، لا يغفل إن غفلت، ولا ينسى إن نسيت، ينصب لي في الشهوات، ويتعـرض لي في الشبهات، وإلا تصرف عني كيده يستذلني، الـلـهم فأقهر سلطانه علي بسـلطانك عليـه حتى أحبسه بكثرة ذكري لك فأكون مع المعصـومين بـك، ولا حـول ولا قـوة إلا بالـلـه، وكان يقول: الـلـهم أصلح صلاح أمة محمد صلى الـلـه عليه وسلم, الـلـهم أهلـك مـن كان في هلاكه صلاح أمة محمد صلى الـلـه عليه وسلم.

وقال مرة: إن نفسي هذه نفس تواقة – أي عنده طموح – وإنها لم تعـط شـيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، فلما أعطيت الذي لا شيء أفضل منـه في الـدنيا يعنـي مـن ناحية الرتبة، أي الخلافة تاقت إلى ما هو أفضل من ذلك يعني الجنة.

قالت له فاطمة امرأته مرة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيـت؟ قـال: ذكـرت يـا فاطمة منصرف القوم من بين يدي الـلـه عز وجل – يعني يوم القيامة إذا انفـض ذلـك اليوم – انفض الناس فريق في الجنة وفريق في السعير.

وكان شديد التأثر أن يرى أحداً من المساكين فيبكي لحاله ويأمر له بما يصلحه، يتـورع عن أموال المسلمين، عن كل درهم منها؛ لأنه أمانة في عنقه. كان يحـرس أمـوال المسـلمين، وقـد أنشـأ لهـم مطبخـاً يطـبخ منـه لفقـرائهم وإطعـامهم، فمـرة أراد أن يغتسـل والجـو

بارد فلم يوجد في ذلك اليوم يوم الجمعة في يوم زمهرير، لم يوجد في بيته حطب لتسخين الماء فأخذوا الماء إلى مطبخ المسلمين لتسخينه، فلما جيء بالماء سأل: ليس عندكم حطب لعلكم ذهبتم به إلى المطبخ؟ فجيء بصاحب المطبخ، فقال له: قمقم أمير المؤمنين فأوقدت تحته؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما أوقدت تحته عوداً، ما استعملت حطباً جديداً ولكن جمر لو تركته لصار رماداً، قال: بكم أخذت الحطب قال: بكذا، فجاء إليه بثمنه، وكان إذا أراد أن يأكل مع المسلمين في مطبخ المسلمين جعل مالاً في نفقة ذلك المطبخ مع أنه واحد منهم. وقال ابن القيم في مدارج السالكين:

"وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتما بألف درهم فكتب إليه: إنه بلغني أنك اشتريت خاتما بألف درهم فبعه وأطعم منه ألف جائع واشتر خاتما من حديد بدرهم واكتب عليه (رحم الله أمرأ عرف قدر نفسه) ". والله أعلم.

عن مغيرة بن حكيم قالت فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز حدثنا مغيرة أنه يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصياما من عمر بن عبد العزيز وما رأيت أحدا أشد فرقا من ربه منه كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده ثم يرفع يديه فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه ثم يتنبه فلا يزال يدعو رافعا يديه يبكي حتى تغلبه عينه يفعل ذلك ليله أجمع ابن المبارك عن هشام بن الغاز عن مكحول لو حلفت لصدقت ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز.

كان وكان وقافاً عند كتاب الله، شديد التأثر بالقرآن، رؤي يتلو على المنبر مرة: " وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ" (الأنبياء: 47)، حتى ختم الآية فمال على أحد شقيه حتى كاد يسقط - أي من تأثره -.

وقرأ عنده رجل مرة: " وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا "، (الفرقان: 13)، فبكى عمر حتى غلبه البكاء وعلا نشيجه وقام من مجلسه فدخل بيته وتفرق الناس.

كان إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله، وانتفض انتفاضة الطير، وبكى حتى تجري دموعه على لحيته، ولما رفع رأسه من السجود خلف المقام مرة، نظروا إلى موضع سجوده مبتلاً من دموع عينيه.

وعن عطاء قال كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ويبكون وقيل كتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل إنك إن استشعرت ذكر الموت في ليلك ونهارك بغض إليك كل فان وحبب إليك كل باق والسلام.

ومن تواضعه أنه كان يطلب من العلماء توجيهه نحو ما ينفع الأمة، فقد شهد عهده أكبر عدد من الرسائل التوجيهية وجهت إليه، وهي:

- موعظة العالم الجليل محمد بن كعب القرظي قال له: (يا أمير المؤمنين افتح الأبواب، وسهل الحجّاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم).

- وموعظة العالم القاسم بن مخيمرة قال له: (بلغنا أن من ولي على الناس فاحتجب عن فاقتهم وحاجتهم احتجب الله عن فاقته وحاجته يوم يلقاه، قال عمر: فما تقول: ثم أطرق طويلاً وبرز للناس).

- وموعظة العالم الرباني الحسن البصري) أما بعد: يا أمير المؤمنين، فكن للمثل أخاً وللكبير ابناً وللصغير أباً، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتدخل النار).

- وموعظة العالم سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (... فإنه كان قبلك رجال سدوا على الناس أبواب الرخاء، فلم يسدوا منها باباً إلاَّ فتح الله عليهم باب بلاء، فإن استطعت – ولا قوة إلاَّ بالله – أن تفتح على الناس أبواب الرخاء فافعل، فإنك لن تفتح باباً إلاَّ سد الله الكريم عنك باب بلاء يمنعك من نزع عامل أن تقول لا أحد يكفيني عمله، فإنك إن كنت تنزع لله وتستعمل لله أتاح الله لك أعواناً فأتاك بهم) وجاء فيها أيضاً: (فمن بعثت من عمالك إلى العراق فانهه نهياً شديداً بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلاَّ بحقها، المال المال يا عمر والدم فإنه لا

نجاة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه ثم لم تغيره).

وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر إلى القبور, فقال لي : يا أبـا أيـوب، هـذه قبور آبائي بني أمية, كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم، أما تراهم صرعـى قد خلت فيهم المثلات، واستحكم فيهم البلاء؟ ثم بكى حتى غشي عليه، ثم أفاق، فقـال : انطلقوا بنا فوالـلـه لا أعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور, وقد أمن من عذاب الـلـه.

وقال غيره : خرج عمر بن عبد العزيز في جنازة، فلما دفنـت قـال لأصحابه: قفـوا حتى آتي قبور الأحبة. فأتاهم فجعل يبكي ويدعو، إذ هتف به التراب، فقال: يا عمـر ألا تسألني ما فعلت في الأحبة؟ قال: قلت: وما فعلت بهم؟ قال: مزقـت الأكفـان، وأكلـت اللحوم، وشدخت المقلتين، وأكلت الحدقتين، ونزعت الكفين من الساعدين، والساعدين من العضدين، والعضدين من المنكبين، والمنكبين من الصـلب، والقـدمين مـن السـاقين، والساقين من الفخذين، والفخذين من الورك، والورك من الصلب وعمر يبكي. فلـما أراد أن يذهب قال له : يا عمر، ألا أدلك على أكفان لا تـبلى؟ قـال: ومـا هـي؟ قـال: تقـوى الـلـه، والعمل الصالح.

وقـال مـرة لرجـل مـن جلسـائه : لقـد أرقـت الليلـة مفكـرا. قـال : وفـيم يـا أمـير : المـؤمنين؟ قـال : في القـبر وسـاكنه، إنـك لـو رأيـت الميـت بعـد ثالثـة في قـبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك بناحيته، ولرأيـت بيتـا تجـول فيـه الهـوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان، مع تغير الريح، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئـة، وطيب الريح، ونقاء الثوب. قال : ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه.

وقال مقاتل بن حيان : صـليت وراء عمـر بـن عبـد العزيـز فقـرأ وقفـوهم إنهـم مسئولون فجعل يكررها وما يستطيع أن يجاوزها.

وقالت امرأته فاطمة: ما رأيت أحدا أكثر صلاة وصياما منه، ولا أحدا أشـد فرقـا مـن ربه منه, كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عينه، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عينه. قالت : ولقـد كـان يكـون معـي في الفـراش فيـذكر الشيء مـن أمـر الآخـرة ;

فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء, ويجلس يبكي, فأطرح عليه اللحاف رحمة له, وأنا أقول : يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين, فوالله ما رأينا سرورا منذ دخلنا فيها.

وقال علي بن زيد : ما رأيت رجلين كأن النار لم تخلق إلا لهما مثل الحسن, وعمر بن عبد العزيز . وقال بعضهم : رأيته يبكي حتى بكى دما. قالوا : وكان إذا أوى إلى فراشه قرأ" إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام" (الأعراف : 54) ويقرأ " : أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون " (الأعراف : 97)، ونحو هذه الآيات، وكان يجتمع كل ليلة إليه أصحابه من الفقهاء فلا يذكرون إلا الموت والآخرة, ثم يبكون حتى كأن بينهم جنازة.

وقال أبو بكر الصولي عن المبرد كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بقول الشاعر :

فما تزود مما كان يجمعه	سوى حنوط غداة البين في خرق
وغير نفحة أعواد تشب له	وقل ذلك من زاد لمنطلق
بأيما بلد كانت منيته	إن لا يسر طائعا في قصدها يسق]

ونظر عمر بن عبد العزيز وهو في جنازة، إلى قوم قد تلثموا من الغبار والشمس، وانحازوا إلى الظل، فبكى وأنشد :

من كان حين تصيب الشمس جبهته	أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته	فسوف يسكن يوما راغما جدثا
في قعر مظلمة غبراء موحشة	يطيل في قعرها تحت الثرى لبثا
تجهزي بجهاز تبلغين به	يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثا

وقال المفضل بن غسان الغلابي : كان عمر بن عبد العزيز لا يجف فوه من هذا البيت :

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له	من الله في دار القرار نصيب

وزاد غيره معه بيتا حسنا, وهو قوله :

فـإن تعجـب الـدنيا أناسـا فإنهـا ... متـاع قليـل والـزوال قريـب

ومن شعره الذي أنشده ابن الجوزي :

أنـا ميـت وعـز مـن لا يمـوت ... قـد تيقنـت أننـي سـأموت

لـيس ملـك يزيلـه المـوت ملكـا ... إنمـا الملـك ملـك مـن لا يمـوت

وقال عبد اللـه بن المبارك : كان عمر بن عبد العزيز يقول :

تسر بمـا يـبلى وتفـرح بـالمنى ... كـما اغـتر باللـذات في النـوم حـالم

نهـارك يـا مغـرور سـهو وغفلـة ... وليلـك نـوم والـردى لـك لازم

وسـعيك فـيما سـوف تكـره غبـه ... كـذلك في الـدنيا تعـيش البهـائم

وقال محمد بن كثير : قال عمر بن عبد العزيز يلوم نفسه ويعاتبها :

أيقظـان أنـت اليـوم أم أنـت نـائم ... وكيـف يطيـق النـوم حـيران هـائم

فلـو كنـت يقظـان الغـداة لحرقـت ... مـدامع عينيـك الـدموع السـواجم

نهـارك يـا مغـرور سـهو وغفلـة ... وليلـك نـوم والـردى لـك لازم

بل اصبحت في النـوم الطويل وقـد دنـت ... إليـك أمـور مفظعـات عظـائم

وشـغلك فـيما سـوف تكـره غبـه ... كـذلك في الـدنيا تعـيش البهـائم

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن فاطمة بنت عبـد الملـك، قالـت: انتبـه عمـر ذات ليلة، وهو يقول: لقد رأيت رؤيا معجبة. فقلت: أخبرني بهـا. فقـال: حتـى نصـبح. فلـما صلى الصبح بالمسلمين دخل فسـألته عنهـا، فقـال: رأيـت كـأني دفعـت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر، وإذا فيها قصر كأنه الفضة, فخرج منـه خـارج فنـادى : أيـن محمد بن عبد اللـه؟ أين رسول اللـه صلى اللـه عليـه وسـلم؟ إذ أقبـل رسـول اللـه صلى اللـه عليه وسلم حتى دخل ذلـك الـقصر، ثـم خـرج آخـر فنـادى: أيـن أبـو بكـر الصديق؟ فأقبل فدخل، ثم خرج آخر فنادى: أين عمر بن الخطاب؟ فأقبل فـدخل، ثـم

خرج آخر فنادى: أين عثمان بن عفان؟ فأقبل فدخل، ثم خرج آخر فنادى : أين علي بن أبي طالب؟ فأقبل فدخل، ثم خرج آخر فنادى: أين عمر بن عبد العزيز؟ فقمت - فدخلت فجلست إلى جانب أبي عمر بن الخطاب، وهو عن يسار رسول الله صلى الله عليه وسلم, وأبو بكر عن يمينه، وبينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل, فقلت لأبي: من هذا؟ قال: هذا عيسى بن مريم. ثم سمعت هاتفا يهتف، بيني وبينه نور لا أراه، وهو يقول: يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه، واثبت على ما أنت عليه.

قال: ثم كأنه أذن لي في الخروج فخرجت، فالتفت فإذا عثمان بن عفان وهو خارج من القصر، وهو يقول: الحمد لله الذي نصرني ربي، وإذا علي في إثره، وهو يقول: الحمد لله الذي غفر لي ربي.

روي أن فاطمة بنت عبد الملك: " دخلت على عمر، فإذا هو في مصلاه، واضعاً رأسه على يديه، تسيل دموعه على خديه، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها، فما زال كذلك حتى أصبح، فقلت: يا أمير المؤمنين! ألشيء حدث؟! قال: يا فاطمة، إني نظرت فوجدتُني قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها، ثم ذكرت الفقير الجائع، والغريب الضائع، والعاري المجهود، والأسير المقهور، وذا المال القليل والعيال الكثير، فعلمت أن الله سائلي عنهم، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حجيجي فيهم، فخفت أن لا يقبل الله تعالى مني معذرة فيهم، ولا تقوم لي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة، فرحمت نفسي يا فاطمة".

***

كان أول مرسوم اتخذه، عزل الوزراء الخونة الظلمة الغشمة، الذين كانوا في عهد سليمان، استدعاهم أمامه وقال لشريك بن عرضاء: اغرُب عني يا ظالم رأيتك تُجلس الناس في الشمس، وتجلد أبشارهم بالسياط، وتُجوّعهم وأنت في الخيام والاستبرق .

وفي أحد المواقف كتب إليه واليه على خراسان واسمه الجراح بن عبد الله يقول: إن أهل خراسان قوم ساءت رعيتهم وإنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك فكتب إليه عمر: أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر أن أهل خراسان قد ساءت رعيتهم وإنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط فقد كذبت بل

يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام.

وذكر ابن الجوزي صور أخرى لعدل عمـر بـن عبـد العزيـز.بيـنما عمـر بـن عبـد العزيز يطوف ذات يوم في أسواق " حمص " ليتفقد الباعـة ويتعـرَّف عـلى الأسـعار، إذ قام إليه رجلٌ عليه بُرْدان أحمران قطريان

وقال:يا أمير المؤمنين.. لقد سمعت أنك أمرت من كان مظلومًا أن يأتيك .

فقال: نعم .

فقال: وها قد أتاك رجلٌ مظلومٌ بعيدُ الدَّار .

فقال عمر: وأين أهلك؟

فقال الرجل: في "عدن "

فقال عُمر: والـلـه، إن مكانك من مكان عمر لبعيد.

ثم نزل عن دابّته، ووقف أمامه وقال : ما ظلامتُك؟

فقال: ضيعةٌ لي وثب عليها رجلٌ ممن يلوذون بك وانتزعها مني .

فكتب عمر كتابًا إلى "عروة بن محمد " واليه على "عدن" يقول فيه: أمَّا بعد: فإذا جاءك كتابي هذا فاسمع بيِّنة حامله، فإن ثبت له حقٌّ، فادفع إليه حقَّهُ.ثم ختم الكتاب وناوله للرجل .

فلما هم الرجل بالانصراف قال له عمر: على رسلك.. إنك قد أتيتنا من بلدٍ بعيـدٍ.. ولا ريب في أنك استنفدت في رحلتك هذه زادًا كثيرًا..

وأخلقت ثيابًا جديدة .ولعلَّه نفقت لك دابةٌ.

ثم حسب ذلك كله، فبلغ أحد عشر دينارًا، فدفعها إليه وقال: أشع ذلك في النـاس حتى لا يتثاقل مظلومٌ عن رفع ظُلامتِهِ بعد اليوم مهما كان بعيد الدَّار.

يقول الناس انه في عهد عمر بن عبدالعزيز ان الذئب يسرح مع الغنم فـلا يأكلهـا من عدل عمر, إنه رد جميع المظالم إلى أهلها, وكانوا يطوفون بالزكاة فـلا يجـدون مـن

يحتاجها , وعم الرخاء والخير على المسلمين , حتى إنهم يرون الذئب يسرح مع الغنم , فلا هي تجفل منه ولا هو يأكلها , وذات يوم جفلت الغنم وعلا غبارها وكثر ثغاؤها , وكانت هناك عجوز جالسه بظل بيتها فقالت ماذا حدث؟ فقالوا لها الذئب هجم على الغنم وأخذ واحدة , فقالت ورب الكعبة لقد مات الاشج فحفظوا تلك اليوم والساعه , فإذا هي ساعة موت ابن عبدالعزيز.

وقف الباحثون عند نقطةُ التحول في حياة عمر بن عبدالعزيز يوم أن فُتِحَتْ زخارف الدنيا كلُّها بين يديه، يأخذ ما يشاء ولا يحاسبه أحدٌ إلا اللـه، هذه اللحظة التي تضعُف فيها النفوس كانت نقطة الاستفاقة في حياة عمر، فخاف أعظم ما يكون الخوف، وعدل أحسن ما يكون العدل، لقد خاف عمر ولم يكن خوفه إلا من اللـه، فلم يكن بينه وبين اللـه أحدٌ من الخَلْق يخشاه.

لذلك عندما وصل نبأُ موتِ الخليفة "عمر بن عبدالعزيز إلى إمبراطور الروم الذي كان خَصمًا عنيدًا لدولة الإسلام، بكى بكاءً شديدًا أذهل حاشيته، فسألوه عن ذلك، فأجابهم بكلمات تُعتبر من أصدق وأجمع ما قِيل في تأبين الخليفة أمير المؤمنين حيث قال: ماتَ واللـه رجلٌ عادلٌ، ليس لعدله مثيلٌ، وليس ينبغي أنْ يَعجبَ الناس لراهبٍ ترك الدنيا؛ ليعبدَ اللـه في صومعته، إنما العجبُ لهذا الذي أتته الدنيا حتى أناختْ عند قدمه، فأعرض عنها.

جاء في كتب السير: " خرج عمر راكبًا ليعرف أخبار البلاد، فقابله رجل من المدينة المنورة فسأله عن حال المدينة، فقال: إن الظالم فيها مهزوم، والمظلوم فيها ينصره الجميع، وإن الأغنياء كثيرون، والفقراء يأخذون حقوقهم من الأغنياء، ففرح عمر فرحًا شديدًا وحمد اللـه، وهكذا رجل من ولد (زيد بن الخطاب) يقول: (إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفًا، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، يبحث عمن يعطيه فما يجد، فيرجع بماله، قد أغنى اللـه الناس على يد عمر) ".

الفصل التاسع

الحالة الإجتماعية لخليفة المسلمين

أشرف عمر بن عبد العزيز على تربية وتعليم أولاده بنفسه ولم تشغله مسئولياته عن تنشئتهم التنشئة الصالحة، المستمدة من تعاليم الدين الإسلامي ونستشف ذلك من خلال رسائله لهم، ولمن أوكل إليه تأديبهم إلى معلمهم ومؤدبهم مولاه سهل بن صدقة.

كان عمر يحرص على تنمية الأخلاق الفاضلة عند أولاده ويتحين الفرص لتحقيق ذلك ما استطاع، ففي سياق رسالته إلى ولده عبد الملك، وهو في المدينة ينهاه عن التفاخر والمباهاة في الكلام، والإعجاب بالنفس، والغرور والتعالي على الناس، فيقول له:.. وإياك أن تفخر بقولك، وأن تعجب بنفسك أو يخيل إليك إن ما رزقته لكرامة لك على ربك، وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك.

أولى عمر تعليم وتأديب أولاده جانباً من الاهتمام، إذ اتبع إجراءات تعليمية جعل منها منهجاً جديراً يلبي حاجات الناشئ المسلم،ليكون موحد الذات والأهداف، غير منقسم على نفسه بين القول والعمل، أو بين الواقع والمثال، حيث تتضح معالم ذلك المنهج في رسالته إلى معلمهم.

فقد قال: من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى سهل مولاه. أما بعد: فإني اخترتك على علم منيّ بك لتأديب ولدي، فصرفتهم إليك من غيرك من مواليّ وذوي الخاصة بي، فحدثهم بالجفاء، فهو أمعن لإقدامهم، وترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة، وقلة الضحك، فإن كثرته يميت القلب، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم، أن حضور المعازف واستماع الأغاني، واللهج بها ينبت النفاق في القلب، كما ينبت العشْبَ

الماء ولعمري لتوقي ذلك، بترك حضور تلك المواطن، أيسر على ذي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه، وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء مما ينتفع به، وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يثبت في قراءته، فإذا فرغ، تناول قوسه ونبله وخرج إلى الغرض حافياً، فرمى سبعة أرشاق, ثم أنصرف إلى القائلة.

كان لعمر بن عبد العزيز أربعة عشر ذكراً منهم: عبد الملك وعبد العزيز وعبد اللـه وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وبكر والوليد وموسى وعاصم ويزيد وزبان وعبد اللـه وبنات ثلاث: أمينة، وأم عمار، وأم عبد اللـه، وقد اختلفت الروايات عن عدد أولاد وبنات عمر بن عبد العزيز، فبعض الروايات تذكر أنهم أربعة عشر ذكراً كما ذكره ابن قتيبة، وبعض الروايات تذكر أن عدد الذكور اثنا عشر، وعدد الإناث ست كما ذكره ابن الجوزي والمتفق عليه من الذكور اثنا عشر، وحينما توفي عمر بن عبد العزيز لم يترك لأولاده مالاً إلا الشيء اليسير، وقد أصاب الذكر من أولاده من التركة تسعة عشر درهماً فقط، بينما أصاب الذكر من أولاد هشام بن عبد الملك ألف ألف (مليون)، وما هي إلا سنوات قليلة حتى كان أحد أبناء عمر بن عبد العزيز يحمل على مائة فرس في سبيل اللـه في يوم واحد، وقد رأى بعض الناس رجلاً من أولاد هشام يتصدق عليه.

***

نشأ عمر بالمدينة، وتخلّق بأخلاق أهلها، وتأثّر بعلمائها، وأكبّ على أخذ العلم من شيوخها، وكان يقعد مع مشايخ قريش، ويتجنب شبابهم، ومازال ذلك دأبه حتى اشتهر، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده، وقدّمه على كثير منهم، وزوّجه، ابنته فاطمة بنت عبد الملك, وهي امرأة صالحة تأثّرت بعمر بن عبد العزيز، وآثرت ما عند اللـه على متاع الدنيا، وهي التي قال فيها الشاعر:

أخت الخلائف والخليفة زوجها ... بنت الخليفة والخليفة جدها

ومعنى هذا البيت أنها بنت الخليفة عبد الملك بن مروان، والخليفة جدها مروان بن الحكم، وأخت الخلائف فهي أخت الخلفاء الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك

ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، والخليفة زوجها فهو عمر بـن عبـد العزيـز رضي اللـه عنه، حتى قيل عنها: لا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سـواها وقـد ولدت لعمر بن عبد العزيز إسحاق ويعقوب وموسى، ومن زوجاته لميس بنت علي بـن الحارث، وقد ولدت له عبد اللـه وبكر وأم عمار، ومن زوجاته أم عثمان بنـت شـعيب بن زيان، وقد ولدت له إبراهيم. وأمّا أولاده: عبد الملك والوليـد وعاصـم ويزيـد وعبـد اللـه وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد اللـه فأمهم: أم ولد.

***

عندما تولَّى عمر الخلافة نَظَرَ في بيت مال المسلمين، ثـم نظـر إلى مـا في يـده، ثـم نظر إلى ما في يد أمراء بني أُميَّة، فماذا فعل يا تُرى؟

بدأ بنفسه، فدعا زوجه فاطمة ابنةَ الخليفة عبدالملك بن مروان، وزوجةَ الخليفـة عمر بن عبد العزيز، وأختَ الخلفاء الأربعـة: الوليـد، وسـليمان، ويَزِيـد، وهشـام، هـم خلفاء بحكم الوراثة، فسألها عمر سؤالاً، قـال لهـا: اختـاري يـا فاطمـة، قالـت: أيَّ شيءٍ اختار يا أمير المؤمنين؟

قال لها: إما أن تختاري الذهب والجواهر والزُّمُرُّد ومتاع الـدنيا، وإمـا أن تختـاري عمر بن عبدالعزيز، نَعَمْ، خَيَّرَها عمر بين نفسه وبين ما تملك من زينة زُفَّـتْ بهـا؛ لأنهـا بنت الخليفة.

قالت فاطمة: واللـه لا أختار عليك أحدًا يا أمير المؤمنين، هذا ذهبي، وتلك ثياب زفافي المرصَّعة بالماس والزُّمُـرُّد، ثـم قالـت: إلى أيـن تريـد الـذهاب بهـا يـا عمـر؟ قـال: سأذهب بها إلى بيت مال المسلمين؛ لتكون للفقراء والمساكين!

وعندما مات عمر، وتولَّى الخلافة بعده "يزيد بن عبدالملك" أخو فاطمة، فقال لها: يا فاطمة، أنا أعلم أنَّ عمر أَخَذَ مالـك كلَّـه، ووضـعه في بيـت المـال، أتـأذنين أنْ أعيـدَه إليك؟ فقالت : ماذا تقـول يـا يَزِيـد؟! أتريـد أن آخـذَ شـيئًا وضـعه عمـر في بيـت مـال المسلمين؟! فو اللـه الذي لا إله إلا هو، لن أعطيه حيًّا وأغضبه ميِّتًا أبدًا، ومـا غـادرتْ بيتها قط بعد عمر، حتى وافتها المنيَّة - رضي اللـه عنها.

***

كان الحجاج بن يوسف الثقفي يرى أن الأمويين أصحاب كفاية فى الحكم، وأنهم الأجدر والأولى بسياسة أمور الناس.

وقد لا يستغرب هذا من الرجل الذي وجد لنفسه مكانا ومكانة في تلك الدولة، وتولى في عهدها ولاية العراق التي كانت مركز المشرق كله، ليكون حاكم البقاع الممتدة ما بين العراق ونهايات الثغور في أسيا الوسطي.

وكان الحجاج في ولايته يعرف بأنه طاغية، وضاق الناس به وبقسوته ذرعا، غير أن خلفاء بنى أمية، عبد الملك بن مروان وابنه الوليد عبد الملك كانوا يرون فيه المدافع الأول عن توطيد سلطانهم، فأطلقوا له العنان وأعطوه كافة الصلاحيات بطريقة لم تتح لغيره من الولاة. وفي ظل غياب الرقابة والمحاسبة، طغى الحجاج واستبد وأخذ الناس بالشبهات، وأعمل السيف فى كل من تسول له نفسه الخروج على حكم الأمويين أو الاعتراض على سلوكياته هو شخصيا.

وبسبب سياسات الحجاج القمعية والظالمة والمتجاوزة لكافة تعاليم السماء وقيم المواطنة وحقوق الإنسان، كانت الكراهية والجفوة بينه وبين الرجل الصالح في العائلة الأموية، عمر بن عبد العزيز.

لقد كان الحجاج يخشى من ظهور أشج بني أمية الذي يعدل، ولما تأكد له أنه عمر بن عبد العزيز حقد عليه حقدا شديدا، وصار يتحين الفرصة المناسبة للإيقاع به عند الخليفة، وقد واتته تلك الفرصة، وذلك أنه بعد زيارة الوليد للمدينة غضب أهلها عليه لأسباب كثيرة منها: أنه جرهم وراءه مشيا لدعوتهم إلى الفداء بذي خشب، ومنها أنه أراد إخلاء المسجد من الناس حتى يكون له وحده ساعة دخوله، ومنها أنه وزع الأموال على الأغنياء وترك الفقراء, فعندما علم أهل العراق بغضب أهل المدينة لجئوا إليهم فارين من ظلم الحجاج بن يوسف الثقفي، وزاد الأمور تعقيدا أن الوليد جعل الحجاج أميرا على الحج فكان لا بد من مروره على المدينة وأهل المدينة لا يحتملون رؤيته ففزعوا إلى عمر في ذلك, فكتب إلى الوليد بتنحية الحجاج عن طريق المدينة وعدم مروره عليها فقبل الوليد خوفا من ثورة الناس.

فكانت فرصة الحجاج بأن كتب إلى الوليد بعد ذلك أن كثيرا من أهل العراق ومُرّاقيه قد لجئوا إلى المدينة ومكة وأن ذلك وهن وضعف، وما زال الحجاج بالوليد حتى أوغر صدره على عمر فقرر عزله عن إمارة المدينة.

جاءه خبر عزله عن المدينة وأقبل الوالي الجديد الذي سيلي المدينة بعده وهو عثمان بن حيان المري وهو يتهددهم ويتوعدهم وأرسل حراسه يبحثون عن العراقيين ويسوقونهم إلى السجن، أما عمر فقد خرج ليلا من المدينة هو ومزاحم خفية عن أعين الناس وتذكر حين خروجه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفس محمد بيده ما خرج أحد من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيرا منه أو ماله "، وتذكر أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: " المدينة تنفي خبثها "، فاضطرب وقال: يا مزاحم: نخاف أن نكون ممن نفت المدينة.

قال عمر بن عبد العزيز : لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم.

وواصل عمر بن عبد العزيز رحلته حتى وصل قرب دمشق وأقام بالسويداء بمقاطعة له بعيدا عن الضوضاء.

وذكر ابن الجوزي أن عمر بن عبد العزيز قد استعفى من المدينة كما مرّ ذكره، ولكن ذكر غيره أنه عُزِل عنها، ففي سنة 92هـ عقد الخليفة الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف الثقفي ليكون أميراً على الحج، ولما علم عمر بن عبد العزيز بذلك، كتب رحمه الله تعالى إلى الخليفة يستعفيه أن يمرَّ عليه الحجاج بالمدينة المنورة؛ لأن عمر بن عبد العزيز كان يكره الحجّاج، ولا يطيق أن يراه، لما هو عليه من الظلم، فامتثل الوليد لرغبة عمر، وكتب إلى الحجّاج: إن عمر بن عبد العزيز كتب إليَّ يستعفيني من ممرك عليه، فلا عليك ألاّ تمر بمن كرهك فتنحّ عن المدينة، وقد كتب عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة إلى الوليد بن عبد الملك يخبره عما وصل إليه حال العراق من الظلم والضيم والضيق بسبب ظلم الحجّاج وغشمه، مما جعل الحجّاج يحاول الانتقام من عمر لاسيما وقد أصبح الحجاز ملاذاً للفارين من عسف الحجاج وظلمه؛ إذ كتب الحجّاج إلى الوليد: إن من قبلي من مراق أهل العراق وأهل الثقاف قد جلوا عن العراق، ولجؤوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن. فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حبان، وخالد بن عبد الله القسري،

وعزل عمر عبد العزيز, وقد كان ميل الوليد لسياسة الحجّاج واضحاً، وكان يظن بأن سياسة الشدة والعسف هي السبيل الوحيد لتوطيد أركان الدولة، وهذا ما حال بينه وبين الأخذ بآراء عمر بن عبد العزيز ونصائحه، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن ما كان يراه عمر أفضل مما كان يسير عليه الوليد، وذلك بعد تولي عمر الخلافة وتطبيقه لما كان يشير به.

فقال له عمر بن العزيز: يكفيني أن الحجاج بن يوسف كان عنك راضياً!!

وكمعلم من معالم رفض عمر بن عبد العزيز للحكم الأموي من قبله هو موقفه من اهم وابرز رموز هذا النظام وهو الحجاج بن يوسف الثقفي. وكان معروفاً بالظلم وسفك الدماء وانتقاص السلف وتعدي حرمات الله بأدنى شبهة، وقد أطبق أهل العلم بالتاريخ والسير على أنه كان من أشد الناس ظلما، وأسرعهم للدم الحرام سفكا، ولم يحفظ حرمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أهل بيته أو أصحابه، ولا في أهل العلم والفضل والصلاح من أتباع أصحابه.

قال ابن كثير رحمه الله: كان جبارا عنيدا، مقداما على سفك الدماء بأدنى شبهة. وروى الترمذي في سننه عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانَ قَالَ: " أَحْصَوْا مَا قَتَلَ الْحَجَّاجُ صَبْرًا فَبَلَغَ مِائَةَ أَلْفٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ قَتِيلٍ ".

كان تقييم عمر بن عبد العزيز تقييما سيئا إلى أقصى درجة بالحجاج فقد روي عنه انه قال: لو تخابثت الأمم وجئتنا بالحجاج لغلبناهم، وما كان يصلح لدنيا ولا لآخرة.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: بلغني أنك تستن بسنن الحجاج، فلا تستن بسننه، فإنه كان يصلي الصلاة لغير وقتها، ويأخذ الزكاة من غير حقها، وكان لما سوى ذلك أضيع ".

لقد فرح المسلمون بموت الحجاج بن يوسف الثقفي، ونقلت لنا كتب التاريخ قصة سجود الحسن البصري وعمر بن عبدالعزيز شكراً لله على موته، ولما أُخبر إبراهيم النخعي بموته بكى من الفرح، ولما بُشِّر طاووس بموته فرح وتلا قول الله تعالى: " فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين " وما كانوا يدرون من يحكمهم بعده. أ.هـ مع العلم بأن الإمام الحسن البصري رحمه الله كان ممن يُشدد في عدم الخروج علي الحكام.

ابن الجوزي قال: لو أن الأمم تخابثت فجاءوا بأخبثها رجلا، وجئنا بالحجاج، لظننا أنا سنغلبهم، وفي رواية: "إذا أتت قوم فارس بأكاسرتها والروم بقياصرتها أتينا بالحجاج فكان عدلا بهم" وإني لأظن كلمة تنجيه عندي قوله عند الموت: رب اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تغفر لي.

وقال: حدثنا... عن إبراهيم بن هشام، قال: حدثني أبي، عن جدي، قال: - يعني عمر بن عبد العزيز- ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله، وقوله حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل وفي رواية عند ابن عساكر عن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه قال: قال لي عمر بن عبد العزيز لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بأبي محمد لفتناهم فقال رجل من آل أبي معيط لا تقل ذلك فوالله إن وطأ لكم هذا الأمر الذي أصبحتم فيه غرة فقال عمر: أتحب أن يدخلك الله مدخل الحجاج؟ قال إي والله إني لأحب أن يدخلني الله مد خلا ولا يدخلني مدخلك فقال عمر: أمنوا اللهم أدخله مدخل الحجاج .

وكان أول ما فعله الخليفة عمر بن عبد العزيز حين توليه الخلافة هو عزل كل القضاة الذي كانوا في عهد الحجاج بن يوسف وقام بتعيينهم.

---

* أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي(40 95 – هـ/ 660 ـ 714 م)، قائد في العهد الأموي، ولد ونشأ في الطائف وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره.

أمره عبد الملك بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير وقتل عبد الله وفرق جموعه، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى الكوفة في ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة.

بنى مدينة واسط. ومات بها، وأجري على قبره الماء، فاندرس. وكان سفاكا سفاحا مرعبا باتفاق معظم المؤرخين. عُرف بالمبير أي المبيد. أصيب الحجاج في آخر عمره بما يظهر أنه سرطان المعدة. وتوفي بمدينة واسط في العشر الأخير من رمضان 95 هـ (714 م)، قال محمد بن المنكدر: كان عمر بن عبد العزيز يبغض الحجاج فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت: «اللهم اغفر لي فإنهم زعموا أنك لا تفعل». وروى الغساني (لم أعرفه) عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: «ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على: حبه القرآن وإعطائه أهله عليه، وقوله حين حضرته الوفاة: "اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل"». وقال الأصمعي: لما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ يقول:

يَا رَبِّ قَدْ حَلَفَ الأَعْدَاءُ وَاجْتَهَدُوا بِأَنَّنِي رَجُلٌ مِنْ سَاكِنِي النَّارِ

أَيَحْلِفُونَ عَلَى عَمْيَاءَ؟ وَيْحَهُمُ ما عِلْمُهُمْ بكريم العَفْوِ غَفَّارِ؟

الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز هذا الرجل الذي ملأ الدنيا عدلا، كانت له سياسته الخاصة وأسلوبه الحكيم في اصلاح المجتمع وتفكيك جذور التطرف والإرهاب والإنحراف الفكري واحدا تلو الآخر رغم قصر فترة خلافته التي استمرت قرابة السنتين والخمسة شهور.

لقد رأى عمر في استبعاد منطق القوة والقهر والإستبداد في إصلاح المجتمع واستقراره مع معارضيه في مقابل استخدام لغة الحوار والإقناع ورفع الغطاء عن البخار المحبوس قبل أن يتحول إلى قذائف وأعمال إجرامية يمطر بها المجتمع هنا وهناك, الدرب الأمثل في استيعاب الخارجين عن القانون والمروعين لأهل البلاد.

من معالم حكم هذا الخليفة إنه اعتمد الحوار منهجا مع الخصوم. وكان يومذاك الخوارج أخطر الخصوم للدولة لأنهم يتساهلون بالتكفير وسفك الدماء ويمتازون بالشجاعة والإقدام والتسرع في إعلان الثورات. حاول هذا الرجل أن يفتح معهم صفحة حوار حقنا للدماء.

تجربته مع إرهاب الخوارج وانحراف فكرهم الذين عاثوا في الأرض فسادا منذ مقتل الخليفة الراشد علي على أيديهم، كانت تجربة فريدة أفضت عن ذكاء خارق ومعرفة دقيقة بطبيعة النفس البشرية، أدت إلى أن يضع الخوارج أسلحتهم للمرة الأولى في عهده بينما استعصوا على خلفاء بني أمية الذين سبقوه في الحكم، فكان انتصارا سجله التاريخ لهذا الخليفة العادل.

خرجت إحدى فرق الخوارج في الأيام الأولى لخلافته مستأنفة تمردها المسلح, فأرسل إلى زعيمها كتابا يقول فيه: " أما بعد فقد بلغني أنك خرجت غضبا لله ورسوله.. ولست أولى بذلك مني.. فهلم أناظرك.. فإن يكن الحق معنا، تدخل فيه، وإن يكن الحق

قال ابن كثير فيه:"كان فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق (الهلاك والظلم)، وكان يغضب غضب الملوكِ...وقال أيضاً: وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باق في عهدتها ولكن يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه...،وكان يكثر تلاوه القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء. فلا نكفر الحجاج، ولا نمدحه، ولا نسبه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله واحكامه، وأمره إلى الله".

معك، نراجع أنفسنا وننظر في أمرنا.

فما لبث الزعيم الثائر بعد أن قرأ رسالة الخليفة إلا أن شعر بالخجل من نفسه أمام منطق الخليفة الجديد، فأرسل وفدا يفاوض الخليفة، فكانت النتيجة أن ألقت هذه المجموعة أسلحتها، وتراجعت عن فكرها وعادت لتمارس حياتها الطبيعية بين أفراد المجتمع بكل رغبة واقتناع. لا شك أنه منطق العدل الذي جبلت الفطرة البشرية على الميل إليه، والالتفاف حول كل من يرفعه شعارا.

ومع مجموعة أخرى من الخوارج ساحت في الأرض تنشر أفكارها وآرائها الفاسدة تسمى "حرورية الموصل"، أرسل إليه حاكم الموصل يستأذنه في قمعها وإسكاتها، فأرسل الخليفة عمر للوالي كتابا يقول فيه: " إذا رأو أن يسيحوا في البلاد في غير أذى لأهل الذمة.. وفي غير أذى للأمة.. فليذهبوا حيث شاءوا, وإن نالوا أحدا من المسلمين, أو من أهل الذمة بسوء, فحاكمهم إلى الله".

هكذا كان يرى الخليفة أن لا حق له في الحجر على آراء الآخرين ولا الوصاية عليها رغم المقدرة على ذلك فهو كان ينظر إلى حلول جذرية تنهي أساس المشكلة بدلا من الوقوف عند حلول آنية هي أشبه بالمسكنات, وهذا هو المنهج الشورى والحوار الراشد الذي كان يتبناه عمر بن عبد العزيز, وكلما طولب باستخدام القوة كمنهج سريع لقطع دابر الفكر الإرهابي في البلاد كان رده من القرآن الكريم أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) وقوله تعالى: "وما أنت عليهم بجبار" وقوله تعالى:"إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر".

كان عمر بن عبد العزير يدرك تماما أن آخر الدواء هو الكي, ولكن ليس هو أوله على الاطلاق, فقدم رحمه الله منطق التعامل بالعدل والحرية في التعبير والشورى والإقناع حتى مع خصومه. كتب له والي خراسان يستأذنه في أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها قائلا في رسالته للخليفة:" إنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط". فكان رده التقي الحازم المبني على فهم دقيق للأسلوب الأمثل في التعامل مع إرهاب

الفرد والجماعة:" كذبت بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم, واعلم أن اللـه لا يصلح عمل المفسدين"، فهذا منهج وفقه عمر بن عبد العزيز في التعامل مع المعارضين من الخوارج..

رحم اللـه عمر بن عبد العزيز فقد أتعب من بعده من حكام المسلمين, ولقد كان قربه من كتاب اللـه وهدي نبيه وتربيته الصالحة سببا في نجاحه الباهر في إدارة دولة خلت من الإرهاب وغدا فيها العدل والخير والحق ملكا للجميع.

فبالإضافة إلى الموقف الذي مرّ ذكره آنفاً ـ وردت روايات توضّح الموقف نفسه، فعن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخبره أن الوليد أرسل إليه بالظهيرة، فوجده قاطباً بين عينيه، قال: فجلست وليس عنده إلا ابن الريان، قائم بسيفه، فقال: ما تقول فيمن يسب الخلفاء؟ أترى أن يقتل؟ فسكت، فانتهرني، وقال: مالك؟ فسكت، فعاد لمثلها، فقلت: أقتَلَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكنه سب الخلفاء قلت: فإني أرى أن ينكّل، فرفع رأسه إلى ابن الريان، فقال الوليد: إنه فيهم لتائه.

وعن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه في الخوارج : إنْ كان مِن رأي القوم أن يسيحوا في الأرض من غير فساد على الأئمة، ولا على أحد من أهل الذمة، ولا يتناولون أحداً، ولا قطع سبيل من سبل المسلمين، فليذهبوا حيث شاؤوا، وإنْ كان رأيهم القتال فواللـه لو أن أبكاري مِن ولدي خرجوا رغبة عن جماعة المسلمين لأرقت دماءهم ألتمس بذلك وجه اللـه والدار الآخرة.

قال ابن عبد الحكم: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الخوارج: من عبد اللـه عمر أمير المؤمنين إلى هذه العصابة، أما بعد: أوصيكم بتقوى اللـه فإنه "وَمَنْ يَتَّقِ اللـهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ * وَمَنْ يَتَوكّلْ عَلَى اللـه فَهَوَ حَسَبُه إِنَّ اللـهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللـهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا"(الطلاق: 3،2). أما بعد: فقد بلغني كتابكم والذي كتبتم فيه إلى يحي بن يحي، وسليمان بن داود الذي أتى إليهما وإن اللـه تبارك وتعالى يقول: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللـهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللـهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

"(الصف: 7)، وقال تعالى: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ "(النحل: 125)، وقال تعالى:" فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ "(محمد: 35)، وإني أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وادعوكم أن تدعو ما كانت تهراق عليه الدماء قبل يومكم هذا بغير قوة ولا تشنيع، وأذكركم بالله أن تشبهوا علينا كتاب الله وسنة نبيه، ونحن ندعوكم إليهما،هذه نصيحة منا نصحنا لكم فإن تقبلوها فذلك بغيتنا، وإن تردوها على من جاء بها فقديماً ما استغش الناصحون، ثم لم نر ذلك وضع شيئاً من حق الله قال العبد الصالح لقومه:" وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ " (هود:3).

وقال الله عز وجل:" قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " (يوسف: 108).

عن ابن سعد قال: قال عمر بن عبد العزيز في كلام له: "فلو كان كل بدعة يميتها الله على يدي وكل سنة ينعشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيرا.

وهنا يتبين من الآثار الواردة أن عمر بن عبد العزيز كان حريصا على رد البدع كلها، حتى ولو أدى ذلك إلى أن يضحي بأعضائه كلها، وقد بين في تلك الآثار القول الصحيح في الإيمان وأنه يشمل العبادات كلها. وأولى عناية خاصة بشعبه، ووعد بأنه إن عاش فسيحمل رعيته عليها، ففي هذا المأثور عنه بيان للقول الصحيح في الإيمان كما أن فيه الرد على بدعة الإرجاء, لأن إحقاق الحق إبطال للباطل, وهذا المأثور عنه هو الحق الثابت عنه في مسألة الإيمان.

ومن الآثار أيضا عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، التي تعد ردودا عامة على الجهمية وغيرها من الفرق الضالة التي شذت عن عقيدة أهل السنة والجماعة وقد أوردها علماء

السلف ضمن ردودهم عليهم كالإمام أحمد، والدارمي، وغيرهما من علماء السلف وهي كما يلي:

عن الفريابي قال: جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فسأله عن بعض الأهواء فقال: انظر دين الأعرابي والغلام في الكتاب فاتبعه واله عما سوى ذلك.

وعن ابن عبد الحكم قال: قال عمر بن عبد العزيز: سن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -وولاة الأمر من بعده سننا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا.

فكان نهجه مع الخوارج فإنه سار معهم سبل السلام وفتح لهم سبل حرية الرأي وإقناعهم بقوة البراهين والحجج، فحدث حوار وتفاوض بينه وبين الخوارج إلى الحد النهائي فشهد أحد الخوارج بأن على الحق بعد ما جرى بينهم وبينه في نقاط مناقشات لهدف الصلاح والإرضاء، وهذه كانت من ضمن السياسات الحكيمة والأساليب القيمة لدى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز التي كان يتبعها لاسترجاع قلوب مناوئي الدولة، فتعلقت به قلوبهم وأسكت أصواتهم الثورية طيلة عصره.

سياسات عمر بن عبد العزيز الحكيمة الوحيدة حيال الناس جميعاء، بأنهم راضون عن حكمه وعدل خلافته، ولم تخرج عليه طائفة من الناس إلاَّ سار معهم بحسن السير من غير المجابهة بالسيف وقوة السلاح الذي اعتاد عليه السابقون، وقد بلغت الدولة الأموية في عهده أوج التمدن ونمو الحضارة، فضلا عن كونهم على أجواء الإستقرار والأمن في ظل الخليفة الراشد الخامس، بالرغم أن مدة خلافته قصيرة حوالي سنتين وبضعة أشهر.

استطاع عمر بن عبد العزيز استرجاع توحيد الأمة بعد أن كان مفترقا، حتى الخوارج انضموا تحت لواء قيادة هذا الخليفة ولم يخالفوه وهم أكبر المخالفين كما يقولون: "ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل" يعني عمر بن عبد العزيز،

فقد لعب عمر بن عبد العزيز دورا سياسيا هاما في توحيد الناس على كلمة واحدة.أما الآثار الواردة عنه في هذا الشأن عامة كما أوردها علماء السلف في ردهم على الجهمية، ولاشك أنها تعتبر ردا على جميع المبتدعة، وذلك في أمره بالتمسك بما تدل عليه الفطرة من إثبات ما للخالق من صفات الكمال ونعوت الجلال، كإثبات الفوقية والعلو، وغير ذلك مما تدل عليه الفطرة السليمة. وكذلك أمره بالنهي عن الخصومات في الدين بغير علم، ولم يقع جهم فيما وقع فيه إلا بسبب الخصومات فيما لا علم له به، فضل وأضل.

---

*الخوارج هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب وهم جماعة سياسية دينية قامت في وجه السلطة القائمة من أجل الدين كما فهموه، وهم لا يعدون أنفسهم خارجين عن الدين بل خارجين من أجل الدين، ومن أجل إقامة شرع الله، غير مبالين بما يحدثه ذلك الخروج من فرقة وانقسام وأحداث دامية، وهم مجاهرون بدعوتهم، متمسكين بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، غير مبالين بما يؤدي إليه تطبيق هذا المبدأ، من قتل المخالفين سراً أو علناً، ولقد تشبثوا بهذا المبدأ وتطبيقه، حتى أصبح علامة من علاماتهم، وراموا إلى إقامة دولة إسلامية تقوم على الدين وأحكامه. ولقد أطلقت عليهم عدة أسماء وألقاب، منها: خوراج، وحرورية، وشراة، ومارقة، ومحكّمة، والسبب الذي من أجله سموا خوارج لأنهم لم يرجعوا مع علي إلى الكوفة واعتزلوا صفوفه ونزلوا بحروراء في أول أمرهم، وسموا شراة لأنهم قالوا شرينا أنفسنا في طاعة الله، أي بعناها بالجنة، وسموا مارقة، وذلك للحديث النبوي الذي أنبأ بأنه سيوجد مارقة من الدين كما يمرق السهم من الرمية، إلا أنهم لا يرضون بهذا اللقب، وسموا محكمة لإنكارهم الحَكَمين)عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري(و قالوا لا حكم إلا لله. ولقد توالت الأحداث بعد ذلك بين علي والذين خرجوا عليه، ومحاولته إقناعهم بالحجة، ولكنهم لم يستجيبوا، ثم قيام الحرب وهزيمتهم وهروبهم إلى سجستان واليمن، وبعثهم من جديد وتكوين فرق كانت لها صولات وجولات من حين لآخر على السلطة القائمة.

*الحرورية فرقة إسلامية ظهرت واشتد أمرها في عهد علي بن أبي طالب. سموا الحرورية نسبة إلى بلدة حروراء في الكوفة وكانت مركز خروجهم، على علي بن أبي طالب.

غلت الحرورية في إثبات الوعيد والخوف على المؤمنين التخليد في النار مع وجود الإيمان، هم أحد فروع الخوارج، مضادون للمرجئة في النفي والإثبات والوعد والوعيد، ومن مفرداتهم أن من ارتكب كبيرة فهو مشرك ومذهب عامة الخوارج أنه كافر وليس بمشرك.

*المرجئة هم فرقة كلامية تنتسب إلى الإسلام، خالفوا رأي الخوارج وكذلك أهل السنة في مرتكب الكبيرة وغيرها من الأمور العقدية، وقالوا بأن كل من آمن بوحدانية الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر، لأن الحكم عليه موكول إلى الله تعالى وحده يوم القيامة، مهما كانت الذنوب التي اقترفها. وهم يستندون في اعتقادهم إلى قوله تعالى (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللـهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) الآية 106 سورة التوبة والعقيدة الأساسية عندهم عدم تكفير أي إنسان، أيا كان، ما دام قد اعتنق الإسلام ونطق بالشهادتين، مهما ارتكب من المعاصي، تاركين الفصل في أمره إلى الله تعالى وحده، لذلك كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

* المعتزلة فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي، وقد لعبت دوراً رئيسياً سواء على المستوى الديني والسياسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة مما أدى إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنة والجماعة. وقد أطلق عليها أسماء مختلفة منها: المعتزلة والقدرية والعدلية وأهل العدل والتوحيد والمقتصدة والوعيدية، وتم تأسيسها على يد واصل بن عطاء، ومن أبرز مفكريها: أبو الهذيل حمدان بن الهذيل العلاف (135- 226 هـ) مولى عبد القيس وشيخ المعتزلة والمناظر عنها.

أتى عمر بـن عبـدالعزيز في أعقـاب فـترة ضـمرت فيهـا الرؤيـة الإسـلامية للشـعر، ففرطت طائفة من الشعراء في حق الكلمة، وأمانة القول؛ لأنهم لم يجدوا مَن يأخذ على أَيديهم بحزم، ويكفهم عن السفه والعبث بالقِيَم والأخـلاق؛ بـل وجـدوا في أحيـان مـن يضحك لسفههم وعبثهم؛ بل يُكافئهم على هذا السفه، وهذا العبث، وجاء عمـر فكـان طرازا من الناس فريدا، ترسم مراسم الراشدين، فكان بحـق أحـدهم في القـول والعلـم، حتى عد خامس الخلفاء الراشدين.

نظر الخلفاء الأمويون في أمر الشعر روايـة و استنشـاداً ونقـداً، وكـانوا يثيبـون أو يحرمون، ولا سيما معاوية وعبد الملك، فقد ولي كل منهما الخلافة قرابـة عشريـن سـنة استقرت بهـما الحـال فـازدهرت المجـالس الأدبيـة في عهـديهما،وكثيراً مـا مزجـت تلـك المجالس الأدب بالسياسة والخلافة، فقامت الأحكام والمفاضلات بين الشعراء على ضوئها أو لخدمتها, وكان للمعارضة ونشاطها الدور في إذكاء النشاط النقدي والأدبي فيها حيث تقوم المنافسة على زعامة الرواية والأدب قيامها على الزعامة والخلافة.

أما عهد عمر بن عبد العزيز خفتـت فيـه حـدة المعارضـة، ولم يكـن الخليفـة يعبأ بشعر المديح وعقد مجالس للشـعر والشـعراء، أقبـل الشـعراء عـلى عمـر بـن عبدالعزيز عند توليه الخلافة، وهم يظنون الرجل مثـل غـيره، عاشـق مـدح وثنـاء، يستأكل بالنفخ والإطراء، يعطيهم مِن مال المسلمين، وإن كانوا ممـن لا يجـوز فيـه العطاء، إذ اهتم بأمر الرعية وبتنظيم بيت المال ما ينفق منه وما يرد إليـه، وأجهـد نفسه في إعادة التوازن الـذي اختـل بـين الـدنيا والآخـرة فـأكثر مـن تزهيـد النـاس ونفسه أولاً بالدنيا والترغيب بالآخرة وحث الناس على القناعة بما في أيديهم وشرع أولاً بأقاربه وأهل بيته فأعاد أموالاً طائلة منهم إلى بيت المال سماه(المظـالم) وشرح لعمتـه فاطمـة بنـت مـروان نهجـه الاقتصـادي بقولـه:" إن اللـــه تبـارك وتعـالى

بعث محمداً صلى اللـه عليه وسلم رحمة، لم يبعثه عذاباً، إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده فقبضه إليه، وترك لهم نهراً شربهم فيه سواء، ثم قام أبو بكر فترك النهـر عـلى حاله، ثم ولي عمر فعمل على عمل صاحبه فلما ولي عثمان اشتق من ذلـك النهـر نهـراً ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار، ثم لم يزل ذلك النهر يشق منـه يزيـد ومـروان وعبـد الملك والوليـد وسـليمان حتـى أفضى الأمـر إلي وقـد يـبس النهـر الأعظـم، و لـن يـروي أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه.

ومن هذه النظرة إلى مال المسلمين انصرف عن المـديح وشـعرائه، فحجـب نفسـه وعطاءه عنهم حتى قال مسلمة بن عبد الملك لوفود الشعراء:" أما علمتم أن إمامكم لا يعطي الشعراء شيئاً ".

حفاظاً على النهر الأعظم الذي صرح للشعراء بأنـه لـن ينفـق منـه إلاّ عـلى وفـق قوله تعالى : " إنما الصدقاتُ للفقـراء والمسـاكين والعـاملينَ عليهـا والمؤلفـةِ قلـوبهم وفي الرقابِ والغارمينَ وفي سبيل اللـهِ وابن السبيل فريضةً من اللـه واللـه عليم حكيم ".

ولا عجب في هذه السياسة تجاه شعراء المديح وحجب نفسه عنهم فهـي سياسـة جده الفاروق بل هي سياسة الراشدين جميعاً .

وعلى نحو ما أعاد المظالم إلى بيت المـال، حـاول إعـادة الشـعر والشـعراء إلى نهـر العقيدة ليردوا عذبه فيصدروا عنه بقيم تنسجم مع ما أحدثه الإسلام في نفسه ونفـوس المؤمنين ليعيد الموازنة بين الدنيا والآخرة,قال لدُكَين الراجز:"إن نفسي لم تنـل شـيئاً قـط إلا تاقت لما هو فوقه، وقد نلت غاية الدنيا(يعني الخلافة) فنفسي تتوق إلى الآخرة ".

ولقد أدرك الشعراء ذلك منه فقال كثير عزة بعد أن حجب من الدخول عليه:

لو أتيت المسجد يوم الجمعة فتحفظت من كلام عمر شيئاً فسمعت خطبة له يقـول فيها": لكلِ سفرٍ زادٌ لا محالةَ, فتزودوا من الدنيا إلى الآخرة التقوى,وكونوا كمن عاين ما أعدّ اللـه له من ثوابه وعقابه طلباً لهذا وخوفاً من هذا,لا يطولنَّ عليكمُ الأمدُ فتقسوَ قلوبكم، وتنقادوا لعـدوكم,واعلمـوا أنـه إنمـا يطمـئنُ بالـدنيا مـن وثـق بالنجـاة مـن عـذاب اللـه

في الآخرة, فأما من لا يداوي جرحاً إلاّ أصابهُ جرحٌ من ناحية أُخرى فكيف يطمئن بالدنيا !أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى نفسي عنه فتخسر صفقتي، وتبدو عيْلتي، وتظهر مسكنتي يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق".

وأدرك بعد سماعه الخطبة أن ما أعده من شعر على غرار ما كان يعده للخلفاء السابقين لن يجد أذناً صاغية من الخليفة الزاهد,فقال للأحوص الأنصاري ونصيب بن رباح: " جددا لعمر من الشعر غير ما أعددناه,فليس الرجل بدنيوي".

مِن أكثر خلفاء بني أمية، الذين أُثِرَتْ عنهم أقوال ومواقف، تتعلق بالشِّعر والشُّعراء: عبدالملك، ومعاوية، ثم عمر بن عبدالعزيز، وقد ترك عمر آراء، وكانت له وقفات مع أرباب الكلمة، تدل على بصر بفن القول، وقدرة على النفاذ إلى أسراره ودقائقه، وتدل على إحساس الخليفة العادل رحمه الله بدور الشعر، وما يمكن أن يكونَ لأربابِ البيان مِن أثر إيجابي أو سلبي.

أتى عمر بن عبدالعزيز في أعقاب فترة عجت فيه الاضطرابات ربوع البلاد وكثرت فيها الفتن وضمرت فيها الرؤية الإسلامية للشعر، ففرطت طائفة من الشعراء في حق الكلمة، وأمانة القول؛ لأنهم لم يجدوا من يأخذ على أيديهم بحزم، ويكفهم عن السفه والعبث بالقيم والأخلاق؛ بل وجدوا في أحيان من يضحك لسفههم وعبثهم؛ بل يكافئهم على هذا السفه، وهذا العبث، وجاء عمر فكان طرازا من النَاس فريدا، ترسم مراسم الراشدين، فكان بحق أحدهم في القول والعلم، حتى عُدَّ خامس الخلفاء الراشدين.ذكر بهاء الدين الأبشيهي في كتابه (المستطرف فى كل فن مستظرف): أقبَل الشعراء على عمر بن عبدالعزيز عند توليه الخلافة، وهم يظنون الرجل مثل غيره، عاشق مدح وثناء، فمنعهم الدخول وأبقاهم شهرًا، لا يأذن لهم، ثم سأل عنهم واحدًا واحدًا،روى ابن الكلبي قال: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم في الدخول حتى قدم عدي بن أرطأة عليه وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال:

يــا أيهــا الرجــل المزجــى مطيتــه ... هـــذا زمانـــك إني قـــد خـــلا زمنـــي
أبلـــغ خليفتنـــا إن كنـــت لاقيـــه ... أني لـــدى البـــاب كالمشـــدود في قـــرن
لا تـــنس حاجتنـــا لاقيـــت مغفـــرة ... قـد طـال مكثـي عـن أهـلي وعـن وطنـي

فقال: نعم يا أبا عبد الـلـه، فلما دخل عـلى عمـر بـن عبـد العزيـز قـال: يـا أمـير المؤمنين الشعراء ببابك، وألسنتهم مسـمومة، وسـهامهم صـائبة،فقال عمـر رضي الـلـه عنه: ما لي وللشعراء !!

فقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم مدح فـأعطى، وفيـه أسوة لكل مسلم.

قال: صدقت، فمن بالباب منهم؟

قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي

قال: لا قرب الـلـه قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القائل:

ألا ليتنـــي في يـــوم تـــدنو منيتـــي ... شـممت الـذي مـا بـين عينيـك والفـم
وليـــت طهـــوري كـــان ريقـــك كلـــه ... وليـت حنـوطي مـن مشاشـك والـدم
ويـا ليـت سـلمى في القبـور ضـجيعتي ... هنالـــــك أو في جنـــــة أو جهـــــنم

فليته عدو الـلـه تمنى لقاءها في الدنيا، ثم يعمل عمـلاً صـالحاً، والـلـه لا يـدخل علي أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟

قال جميل بن معمر العذري

قال: أليس هو القائل:

ألا ليتنـــا نحيـــا جميعـــاً فـــإن تمـــت ... يـــوافى لـــدى المـــوتى ضريحـــي ضريحهـــا
فـــما أنـــا في طـــول الحيـــاة براغـــب ... إذا قيـــل قـــد ســـوي عليهـــا صـــفيحها
أظـــل نهـــاري لا أراهـــا وتلتقـــي ... مـــع الليـــل روحـــي في المنـــام وروحهـــا

والـلـه لا يدخل علي أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟

قال: كثير عزة

قال: أليس هو القائل:

رهبـــان مـــدين والـــذين عهـــدتهم   يبكـــون مـــن حـــذر الفـــراق قعـــودا

لـــو يســـمعون كـــما ســـمعت حـــديثها   خـــــروا لعـــــزة ركعـــــاً وســـــجودا

أبعده اللـه، فو اللـه لا يدخل علي أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟

قال: الأحوص الأنصاري

قال: أبعده اللـه، واللـه لا يدخل علي أبداً، أليس هـو القائـل؟ وقـد أفسـد عـلى رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه:

اللـــــه بينـــــي وبـــــين ســـــيدها   يفـــــر منـــــي بهـــــا واتبعـــــه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟

قال: همام بن غالب الفرزدق.

قال: أليس هو القائل يفتخر بالزنا في قوله:

هـــما دليـــاني مـــن ثمـــانين قامـــة   كـما انقـض بـاز لـين الـريش كـاسره

فلـــما اســـتوت رجـــلاي في الأرض قالتـــا   أحـــي فيرجـــى أم قتيـــل نحـــاذره

فقلـت ارفعـوا الأجـراس لا يفطنـوا بنـا   ووليـــت في أعقـــاب ليـــل أبـــادره

واللـه لا دخل علي أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟

قال: الأخطل التغلبي. قال: أليس هو القائل:

ولســـت بصـــائم رمضـــان عمـــري   ولســـــت بآكـــــل لحـــــم الأضـــــاحي

ولســـت بزاجـــر عيســـاً بكـــوراً   إلى أطـــــــلال مكـــــــة بالنجـــــــاح

ولســـت بقـــائم كالعبـــد يـــدعو   قبيـــل الصـــبح حـــي عـــلى الفـــلاح

ولكنـــــي ســـــأشربها شـــــمولاً   وأســـجد عنـــد منـــبلج الصـــباح

أبعده اللـه عني، فو اللـه لا دخل علي أبداً، ولا وطىء لي بساطاً، وهو كافر، فمـن

بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت؟

قال: جرير.

قال: أليس هو القائل:

طرقتـك صـائدة القلـوب ولـيس ذا   وقـــت الزيـــارة فـــارجعي بســـلام

فـإن كـان ولا بـد، فهـذا، فـأذن لـه   قـال عـدي بـن أرطـأة: فخرجـت فقلـت

ادخل يا جرير، فدخل وهو يقول:

إن الـــذي بعـــث النبـــي محمـــداً   جعـــل الخلافـــة في الإمـــام العـــادل

وســـع الخلائـــق عدلـــه ووقـــاره   حتـــى ارعـــووا وأقـــام ميـــل المائـــل

إني لأرجـــو منـــه خـــيراً عـــاجلاً   والـــنفس مولعـــة بحـــب العاجـــل

واللــــه أنــــزل في الكتــــاب فريضــــة   لابـــن الســـبيل وللفقـــير العائـــل

فلما مثل بين يديه قال: يا جرير اتق اللـه ولا تقل إلا حقاً، فأنشأ يقول:

كـم باليمامـة مـن شـعثاء أرملـة   ومـــن يتـــيم ضـــعيف الصـــوت والنظـــر

ممـن بعـدلك يكفـي فقـد والـده   كـــالفرخ في العـــش لم يـــدرج ولم يطـــر

أأذكـر الجهـد والبلـوى التـي نزلـت   أم قـــد كفـــاني مـــا بلغـــت مـــن خـــبري

إنـا نرجـو إذا مـا الغيـث أخلفنـا   مـــن الخليفـــة مـــا نرجـــو مـــن المطـــر

إن الخلافـة جاءتـه عـلى قـدر   كـــما أتى ربـــه مـــوسى عـــلى قـــدر

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها   فمـــن لحاجـــة هـــذا الأرمـــل الـــذكر

الخـير مـا دلـت حيـا لا يفارقنـا   بوركـــت يـــا عمـــر الخـــيرات مـــن عمـــر

فقال: واللـه يا جرير لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين ديناراً فعشرة أخذها عبد اللـه ابني، وعشرة أخذتها أم عبد اللـه، ثم قال لخادمه: ادفع إليه العشرة الثالثة.

فقال: واللـه يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك يا جرير؟ فقال: ورائي ما يسوءكم خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع

الشعراء، وإنني عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقيا..

هكذا راح يذكر نماذج مِن شِعْره، أقل ما فيها - على رَأْي السيوطي - أنَّها تُشْعر بِرِقَّة الدِّين، ثم رَخَّص لِجرير؛ لأنَّه كان أَعَفَّهم وأَتْقاهم، وقال: "إن كان ولابدَّ فهو"، وأدخله، فلمَّا مَثُل بين يديه ذَكَّره حق الكلمة قائلاً: "ويحكَ يا جريرُ، اتَّقِ اللـه، ولا تَقُل إلاَّ حقًّا"، وعندما أنشده جرير قصيدةً ذكر فيها ضَرَّاء مَسَّته، وضَرَّاء مَسَّتِ المُسلمينَ جميعًا؛ بسبب شِدَّةٍ أصابَتْهم، تَرَقْرَقَتْ عينا عمر بالدَّمع، وجَهَّزَ إلى الحجاز عيرًا تحمل الطَّعام، والكُسَى، والعطاء يبثُّ في فقرائهم، وأبى أن يعطي جريرًا على شعره من بيت مال المسلمين، وذَكَّره أنه لا حَقَّ له، فهو ليس واحدًا من فئات المسلمين، الذين تَجُوز فيهم الزَّكاة أو الصَّدقة، وأعطاه - اتِّقاء لِلِسَانه - عشرين دينارًا فضلت من عطائه، فخرج جرير - وقد لَمَس مِن عمر ما لمس مِن صِدْق وإخلاصٍ - راضيًا، وقال للشُّعراء الذين احْتَشَدوا يسألون عنِ الخبر.

وَجَدْتُ رُقَى الشَّيْطَانِ لاَ تَسْتَفِزُّهُ وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الجِنِّ رَاقِيَا

واستقبل عمر منَ الشعراء مَن يعظه لا مَن يمدحه، دخل عليه خالد بن صفوان، فقال: "يا أميرَ المؤمنينَ، أتحب أن تُطْرى؟ قال: لا، قال: أَفَتُحِبُّ أن تَوعَظَ؟ قال: نعم".

وَمَثَّلَ ما تَرَكَه عمر منَ الآراء والمواقف النَّقديَّة التَّصَوُّرَ الإسلامي للأدب، ومُحَاولة لترسيخ الرُّؤية العقديَّة له، وراح - وهو وَلِي الأمر المسؤول - يدل أصحاب الكلمة على الطَّريق الصحيحة، ويُحَاسبهم على الجموح والانحراف، ويعلمهم كيف يكونون سُفَراء خير وإصلاح، لا أصحاب مُتَاجَرة وارْتِزَاق، وكيف يَصُونُونَ الكلمة فلا يَطْرَحُونها في مواطن السَّفَهِ والانحراف.

وقد أَوْصَل عمر هذه الرسالة التي يُريدها مِن أصحاب الكلمة منذ تَوَلَّى خِلافة المسلمينَ، إذ صَعِد المنبر، فكان في أول خطبة خطبها قوله: "أيُّها الناس، مَن صَحبَنا فَلْيَصْحبْنا بِخَمْس، وإلاَّ فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة مَن لا يستطيع رَفْعها، ويعيننا على

الخير بِجَهده، ويدلنا منَ الخير على ما لا نَهْتَدِي إليه، ولا يَغْتَابن عندنا الرَّعيَّة، ولا يعترض فيما لا يعنيه، فانْقَشَع عنه الشعراء والخُطَباء، وثبت الفقهاء والزُّهَّاد، وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل، حتى يخالف فِعْلُه قَوْلَه".

كان سابقُ البَرْبري، الشَّاعر الفَقِيه الزاهد واحدًا مِن هؤلاءِ، كان كثيرَ الدُّخول على عمر، إذ كان يُؤَدّي في مَجْلِسه حق الشِّعر، فكان يَسْتمع إليه، ويستنشده، وَيَتَأَثّر بِمَواعظه وحِكَمه حتى يسقط مغشيًّا عليه.

روى ميمون بن مهران قال: دَخَلْتُ على عمر بن عبدالعزيز يومًا، وعنده سابق البربري ينشده شعرًا، فكان مما حفظتُ:

فَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ بَاتَ لِلْمَوْتِ آمنًا ... أَتَتْهُ المَنَايَا بَغْتَةً بَعْدَمَا هَجَعْ

فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِذْ جَاءَهُ المَوْتُ بَغْتَةً ... فِرَارًا وَلا مِنْه بِحِيلَته امْتَنَع

وَلاَ يَتْرُكُ المَوْتُ الغَنِيَّ لِمَالِه ... وَلاَ مُعْدَمًا فِي المَالِ ذَا حَاجَةٍ يَدَعْ

فلم يزل عمر يبكي ويضطرب، حتى غشي عليه.وإذا كان رفض عمر استقبال مَن عُرف بِقِلَّة الورع منَ الشعراء في مجالسه، إعلانًا رسميًّا عن السّخط، وضربًا منَ الرَّدْع، وتَقْليم الأظفار، فإن عمر راع ومسئوول عن رعيته.

صدر الخليفة العادل في جميع أقواله ومواقفه منَ الشِّعر والشعراء عن معيار عَقَدي مُلتزم، يرى الكلمة مسؤوليَّة وأمانة، فمضى يُحَذِّر مِن جموحها، ويدعو إلى السَّيْطرة عليها، كان يقول: "المحظوظ مَن يلجم لسانه"، وخوف مِن فتنتها، وأن تكونَ بديلاً للفعل أو تناقضه، فقال: "إنَّ للكلام فتنةً، وإن الفِعَال أولى بالمؤمن منَ القول"، وقال: "مَن لم يَعُدَّ كلامه من عمله، كَثُرَتْ ذُنُوبُه".

القصيدة التي أبكت الخليفة عمر بن عبد العزيز لسابق البربري والتي كان ينصح ويعظ الخليفة العادل. يقول رحمه الله:

بسم الذي أنزلت من عنده السور ... والحمد لله أما بعد يا عمر

إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر ... فكن على حذر قد ينفع الحذر

واستخبر الناس عما أنت جاهله ... إذا عميت فقد يجلوا العمى الخبر

واصبر على القدر المقدور وارض به ... وإن أتاك بما لا تشتهي القدر

فما صفى لامرئ عيش يسر به ... إلا وأعقب يوم صفوه كدر

قد يرعوي المرء يوما بعد هفوته ... وتحكم الجاهل الأيام والعبر

إن التقى خير زاد أنت حامله ... والبر أفضل شيء ناله بشر

من يطلب الجور لا يظفر بحاجته ... وطالب العدل قد يهدى له الظفر

وفي الهدى عبر تشفى القلوب بها ... كالغيث يحيى به من بعد موته الشجر

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ما له بصر

والذكر فيه حياة للقلوب كما ... تحيا البلاد إذا ما جاءها المطر

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يُجَلِّي سواد الظلمة القمر

لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً ... وهل يلين لقول الواعظ الحجر

ما يلبث المرء أن يبلى إذا اختلفت ... يوما على نفسه الروحات والبكر

والمرء يصعد ريعان الشباب به ... وكل مصعدة يوما ستنحدر

وكل بيت سيبلى بعد جدته ... ومن وراء الشباب الموت والكبر

والموت جسر لمن يمشي على قدم ... إلى الأمور التي تخشى وتنتظر

فهم يمرون أفواجا وتجمعهم ... دار يصير إليها البدو والحضر

كم جمع قوم أشتَّ الدهر شملهم ... وكل شمل جميع سوف ينتثر

ورب أصيد سام الطرف معتصباً ... بالتاج نيرانه للحرب تستعر

يظل مفترش الديباج محتجباً ... عليه تبنى قباب الملك والحجر

قد غدرته المنايا وهو مستلب ... مجندلٌ تاربُ الخدين منعفر

إلى الفناء وإن طالت سلامتهم ... مصير كل بني أنثى وإن كبروا

إذا قضت زمرٌ آجالها نزلت ... على منازلها من بعدها زمرُ

أصبحتم جزراً للموت يأخذكم … كما البهائم في الدنيا لكم جزرُ
فبعد آدم ترجون البقاءَ وهل … تبقى فروعٌ لأصل حين ينهصرُ
وليس يزجركم ما توعظون به … والبهم يزجرها الراعي فتنزجر
لا تبطروا واهجروا الدنيا فإن لها … غبا وخيماً وكفر النعمة البطر
ثم اقتدوا بالألى كانوا لكم غرراً … وليس من أمة إلا لها غررُ
متى تكونوا على منهاج أولكم … وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا
ما لي أرى الناس والدنيا مولية … وكل حبل عليها سوف ينبتر
لا يشعرون بما في دينهم نقصوا … جهلاً وإن نقصت دنياهم شعروا
حتى متى آن في الدنيا أخو كلف … في الخد منها إلى لذاتها صعروا
ولا أرى أثراً للذكر في جسدي … والحبل في الحجر القاسي له أثر
لو كان يسهر عيني ذكر آخرتي … كما يؤرقني للعاجل السهرُ
إذاً لداويتُ قلباً قد أضر به … طول السقامي وكسر العظم ينجبرُ
ثم الصلاة على المختار سيدنا … ما هبت الريح واهتزت بها الشجر

يلاحظ بأن القصيدة قد خلت من أي عبارة ثناء ومديح للخليفة عمر بن عبدالعزيز فقد كانت حقا خالصة لوجه الله.

***

عن عمرو بن مهاجر قال: بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان بن مسلم يقول في القدر، فبعث إليه فحجبه أياماً، ثم أدخله عليه فقال: غيلان ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال عمرو بن مهاجر. فأشرت إليه أن لا يقول شيئاً، قال: فقال: نعم يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال: " هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا, إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيراً، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا " (الإنسان : 1 ـ 3).

قال إقرأ آخر السورة " وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا *

يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا " (الإنسان: 30- 31) ثم قال: ما تقول يا غيلان؟ قال: أقول: قد كنت أعمى فبصرتني وأصم فأسمعتني وضالاً فهديتني. وفي رواية: دعا عمر بن عبد العزيز غيلان فقال: يا غيلان بلغني أنك تتكلم في القدر فقال: يا أمير المؤمنين إنهم يكذبون علي؟ فقال يا غيلان إقرأ أول (يس) فقرأ " يس والقرآن الحكيم " حتى قول: " إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ " (يس: 1- 10).

فقال غيلان: يا أمير المؤمنين، والله لكأني لم أقرأها قط قبل اليوم أشهدك يا أمير المؤمنين أني تائب مما كنت أقول فقال عمر: اللهم إن كان صادقاً فثبته وإن كان كاذباً فاجعله آية للمؤمنين، وجاءت روايات كثيرة في محاورة عمر بن عبد العزيز لغيلان الثقفي وكان له حديث طويل في معتقد أهل السنة في مسالة الإيمان بالقدر، وقد ناقش عمر بن عبد العزيز القدرية وسألهم عن العلم وذلك بسؤالهم عن علم الله، فإذا أقروا به خصموا وإن جحدوا كفروا فقال لغيلان الدمشقي: ما تقول في العلم. قال: قد نفد العلم. قال: فأنت مخصوم اذهب الآن فقل ما شئت ويحك يا غيلان إنك إن أقررت بالعلم خصمت وإن جحدته كفرت، إن تقر به فتخصم خير لك من أن تجحده فتكفر.

ولعل عمر بن عبد العزيز أول من نهج هذا النهج في سؤال القدرية عن العلم، ثم صار هذا المنهج منهجاً لأهل السنة بعده، وقد استدل رحمه الله في ردوده على غيلان بآيات صريحة في الرد على المكذبين بالقدر كما جاء في بعض الروايات ـ وهي قوله تعالى: " فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ " (الصافات: 161 ـ 163).

قال ابن حجر رحمه الله في تفسير هذه الآيات: يقول تعالى: فإنكم أيها المشركون بالله وما تعبدون من الآلهة والأوثان ما أنتم عليه بفاتنين أي بمضلين أحداً إلا من سبق في علمي أنه صال الجحيم. وقد بين عمر في خطبه ورسائله أن الله تبارك وتعالى هو الهادي وهو المضل، وهذا ما جاء في الكتاب العزيز قال تعالى: " مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ

يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " (الأنعام: 39). وغيرها من الآيات وقد كانت القدرية تنكر أن يكون اللـه تعالى هو الهادي وهو الفاتن. وإنما العبد هو الذي يهدي نفسه إذا شاء ويضلها إذا شاء فلعل رسائل عمر وخطبه في الجمع من الردود على هؤلاء المبتدعة وسواء قصدهم عمر بخطبه أو ألقاها بدون قصد الرد عليهم تبقى ردوداً قوية على كل من انحرف في باب القدر عن منهج الكتاب والسنة، وقد بين عمر بن عبد العزيز أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى مقدرة له مكتوبة على عباده، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: " وَاللـهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ " (الصافات: 96).

وقال - صلى اللـه عليه وسلم -: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس.

وقد بين عمر بن عبد العزيز ـ كما جاء في خطبه ـ أن العبد إذا أذنب فعليه أن يتوب ويستغفر اللـه تعالى ولا يحتج على اللـه بالقدر ولا يقول أي ذنب لي وقد قدر علي هذا الذنب، بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب وإن كان ذلك كله بقضاء اللـه وقدره ومشيئته، إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته وخلقه، كما رد عمر على القدرية القائلين بأن العبد له مشيئة مستقلة يستطيع بها رد علم اللـه فبين أن العبد له قدرة ومشيئة ولكنها تابعة لمشيئة اللـه تعالى.

وقد جاءت عن عمر آثار خاصة تدل على زيادة الإيمان وإدخال الأعمال فيه. وهذه الآثار رد على المرجئة ولاسيما وأن أهل العلم قد ذكروا هذه الآثار في معرض ردودهم على المرجئة. كما ورد عنه أيضا التحذير عن البدع كلها ولا بدعة أظهر من بدعة الإرجاء، وهاهي الآثار الواردة عنه في هذا المبحث، فقد مرّ معنا قوله: إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان فإن أعشى أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن مت فما أنا على صحبتكم بحريص.

وقال: لا عذر لأحد بعد السنة في ضلالة ركبها يحسب أنها هدى.

وقال: فلو كان كل بدعة يميتها اللـه على يدي وكل سنة ينعشها اللـه على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في اللـه يسيرا.

يتبين مما سبق أن عمر بن عبد العزيز كان حريصاً على رد البدع كلها. حتى ولو أدى ذلك إلى أن يضحي بنفسه وتبين الآثار الواردة عنه القول الصحيح في الإيمان وأنه يشمل العبادات كلها وأولى عناية خاصة بشعبه، ووعد بأنه إن عاش فسيحمل رعيته عليها، ففي هذا المأثور عنه بيان للقول الصحيح في الإيمان، وقد وضحت مفهومه للإيمان عند الحديث عن اهتمامه بعقائد أهل السنة، كما أن فيه الرد على بدعة الإرجاء لأن إحقاق الحق إبطال للباطل، وهذا المأثور عنه هو الحق الثابت عنه في مسألة الإيمان.

***

اهتم عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة وحرص على تعلمها وتعليمها وبثها بين الناس، ودافع عنها، وتناثرت أقواله في عقائد أهل السنة ومن أهم الجوانب العقائدية التي تحدث فيه عمر بن عبد العزيز رحمه الله:عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه أنه قال: لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما أحب أن أصحاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لم يختلفوا؛ لأنه لو كان قولاً واحدًا كان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يُقتدى بهم، ولو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة.. قال أبو عمر رحمه الله: هذا فيما كان طريقه الاجتهاد .

سئل عمر بن عبد العزيز عن علي وعثمان وصفين وما كان بينهم؟ فقال: تلك دماء كف الله يدَيَّ عنها وأنا أكره أن أغمس لساني فيها وعن محمد بن النضر قال: ذكروا اختلاف أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عند عمر بن عبد العزيز فقال: أمرٌ أخرج الله أيديَكم منه، فلِمَ تعملون ألسنتكم فيه؟، وعمر بن عبد العزيز كغيره من علماء السلف الصالح حريصٌ على إبراز فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم, ولم لا يكون كذلك وقد قال الله تعالى: " لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا "(الفتح: 18).

ومن معتقد أهل السنة والجماعة أن لا يُذكر أحد من صحابة الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسنُ المخارج

ويظن بهم أحسن المذاهب، وقال ابن حجر: واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة؛ بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحقُّ منهم؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجرًا واحدًا، وأن المصيب يؤجر أجرين، ومضمون الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز توضح معتقده في الصحابة وهو معتقد أهل السنة والجماعة.

يقول ابن مسعود :" إن الله نظر في قلوب العباد, فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد, فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئا فهو عند الله سيئ " رواه أحمد.

قال الطحاوي – في بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة" : ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم, ولا نفرط في حب أحد منهم, ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان". وقد بلّغ الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بعثه الله به من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمها، فكان لهم الأجر العظيم، لصحبتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد معه في سبيل الله، وأعمالهم الجليلة في نشر الإسلام، ولهم مثل أجور من بعدهم؛ لأنهم الواسطة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه.

وقد أثنى الله عليهم في كتابه العزيز، وأثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم, وحسبهم ذلك فضلاً وشرفاً.

قال تعالى: " وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم " (التوبة:100).

وقال تعالى: " مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللـهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللـهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللـهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" (محمد:29).

وفي قوله - سبحانه - في حق الصحابة الكرام رضي اللـه عنهم "لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ" أخطرُ حكمٍ، وأغلظ تهديد، وأشد وعيد في حق من غِيظ بأصحاب رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم أو كان في قلبه غل لهم.

وقال تعالى: " لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللـهُ الْحُسْنَى وَاللـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير " (الحديد:10).

وقال تعالى في بيان مصارف الفيء: " لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللـهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللـهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون * وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون * وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ " (الحشر:8 -10).

هذه ثلاث آيات من سورة الحشر، الأولى منها في المهاجرين، والثانية في الأنصار، والثالثة في الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار مستغفرين لهم سائلين اللـه تعالى أن لا يجعل في قلوبهم غلاًّ لهم وليس وراء هذه الأصناف الثلاثة إلّا الخذلان، والوقوع في حبائل الشيطان.

وقال ابن كثير رحمه اللـه في تفسير هذه الآية: (وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه اللـه من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء

نصيب؛ لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: " رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيم ".

وقال صلى الله عليه وسلم: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عمران بن حصين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم.

وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» والله أعلم ذكر الثالث أم لا.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم ».

ومن عقائد أهل السنة والجماعة وجوب محبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمهم وتوقيرهم وتكريمهم والاحتجاج بإجماعهم والاقتداء بهم، والأخذ بآثارهم، وحرمة بغض أحد منهم لما شرفهم الله به من صحبة رسوله صلى الله عليه وسلم والجهاد معه لنصرة دين الإسلام، وصبرهم على أذى المشركين والمنافقين، والهجرة عن أوطانهم وأموالهم وتقديم حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك كله، وقد دلت النصوص الكثيرة على وجوب حب الصحابة رضي الله عنهم جميعاً، وقد فهم أهل السنة والجماعة ما دلت عليه النصوص في هذا واعتقدوا ما تضمنته مما يجب لهم من المحبة على وجه العموم رضي الله عنهم وأرضاهم، قال تعالى: " وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ " (الحشر: 10).

هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة لأنه جعل لمن بعدهم حظاً في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وأن من سبهم أو واحداً منهم أو اعتقد فيه

شراً أنه لا حق له في الفيء، روي ذلك عن مالك وغيره، قال مالك: " من كان يبغض أحداً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ الآية ".

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: أهل السنَّة والجماعة لا يعتقدون أن كل واحدٍ من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل تجُوز عليهم الذنوبُ في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم، إن صدر، حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم مِن الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم، وقد ثبَت بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(إنهم خير القرون)، وإن المُدَّ من أحدهم إذا تصدق به كان أفضلَ من جبل أحدٍ ذهَبًا ممن بعدهم، ثم إذا كان قد صدَر مِن أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غُفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمدٍ صلى الله عليه وسلم, الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتُلي ببلاء في الدنيا كُفِّر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين: إن أصابوا فلهم أجرانِ، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور لهم؟ ثم القَدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نَزْر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم؛ من الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة والنصرة، والعلم النافع والعمل الصالح، ومَن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرةٍ وما منَّ الله به عليهم من الفضائل، علِم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى.ويتبين أن هناك إجماع واتفاق بين علماء المسلمين بالإمساك عن ماشجر بين الصحابة وتخطئة المخطئ.

ذَكَرَ ابْنُ وَهْبٍ, عَنْ نَافِعِ بْنِ أَبِي نُعَيْمٍ, عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ, عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ قَالَ: لَقَدْ أَعْجَبَنِي قَوْلُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: " مَا أُحِبُّ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَمْ يَخْتَلِفُوا؛ لأَنَّهُ لَوْ كَانُوا قَوْلا وَاحِدًا كَانَ النَّاسُ فِي ضِيقٍ وَإِنَّهُمْ أَئِمَّةٌ يُقْتَدَى بِهِمْ وَلَوْ أَخَذَ رَجُلٌ بِقَوْلِ أَحَدِهِمْ كَانَ فِي سَعَةٍ " .

" فضيلة الإمساك عما شجر بين الصحابة" أجمع أهـل السـنة قاطبـة عـلى الكـف والإمساك عما شجر بين الصحابة والسكوت عما حصل بينهم من قتال وحـروب، وعـدم البحث والتنقيب عن أخبارهم أو نشرها بين العامة لما لها من أثر سيئ في إثـارة الفتنـة والضغائن وإيغار الصدور عليهم، وسوء الظن بهم، مما يقلل الثقة بهم.

والواجب على المسلم أن يسلك في اعتقاده فيما حصل بين الصحابة الكرام مسـلك الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة، وهو الإمساك عما حصل بينهم.

وكُتُبُ أهل السنة مملوءة ببيان عقيدتهم الصافية في حق الصـحابة الكـرام، وقـد حددوا موقفهم من تلك الحرب التي وقعت بينهم في أقوالهم الحسنة التي منها: سُـئل عمر بن عبد العزيز عن القتال الذي حصل بين الصحابة، فقال: تلك دمـاء طهّـر اللـــه يدي منها؛ أفلا أُطهـر منهـا لسـاني؟ مَثَـلُ أصـحاب رسـول اللـــه- مَثَـلُ العيـون؛ ودواء العيون ترك مسها.

وسئل الحسن البصري عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال: قتـال شـهده أصـحاب محمد- وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا .

وقال الإمام أحمد بعد أن قيل له: ما تقول فيما كان بين علي ومعاويـة؟ قـال: مـا أقول فيهم إلاّ الحسنى .

وقال ابن أبي زيد القيرواني في صدد بيان ما يجب أن يعتقـده المسـلم في أصـحاب رسول اللـه- وما ينبغي أن يُذكروا به فقال: " وإن لا يُذكر أحد من صـحابة الرسـول إلاّ بأحسن ذكر، والإمساك عمّا شـجر بيـنهم، وأنهـم أحـق النـاس أن يلـتمس لهـم أحسـن المخارج، ويُظن بهم أحسن المذاهب ".

وقال أبو عبد اللـه بن بطة أثناء عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعـة: "ومـن بعـد ذلك نكفّ عما شجر بين أصحاب رسول اللـه- وقد شهدوا المشاهد معه، وسـبقوا النـاس بالفضل؛ فقد غفر اللـه لهم، وأمرك بالاستغفار لهم، والتقرب إليه بمحبتهم، وفـرض ذلـك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم أنهم سيقتتلون؛ وإنما فُضلوا على سائر الخلـق؛

لأن الخطأ العمد قد وُضِعَ عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم). وقال أبو عثمان الصابوني في صدد عقيدة السلف وأصحاب الحديث: (ويرون الكف عمّا شجر بين أصحاب رسول الله - وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيباً لهم ونقصاً فيهم، ويرون الترحم على جميعهم والموالاة لكافتهم".

وقال القرطبي : لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به؛ إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأراد الله عز وجل. وهم كلهم لنا أئمة، وقد تُعبّدنا بالكف عمّا شجر بينهم، وألاّ نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمة الصحبة، ولنهي النبي- عن سبهم، وأن الله غفر لهم وأخبر بالرضى عنهم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة: " ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص، وغُيّر عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون ".

وقال ابن بطة: " ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد شهدوا المشاهد معه، وسبقوا الناس بالفضل، فقد غفر الله لهم وأمر بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم، وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتتلون، وإنما فُضِّلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وُضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم ".

فإذا تبين لنا أن الإجماع قد وقع من علماء المسلمين على السكوت عما شجر بين الصحابة، وعدم التنقيب عما حصل بينهم من حروب وقتال؛ ولو حسنت نية المتكلم أو السامع، كان من المناسب أن نعرف معنى السكوت نحوهم.

وقال ابن أبي زيد القيرواني المالكي في مقدمة رسالته المشهورة وهو يبين عقيدة أهل السنة: " وإن خير القرون الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ رضي الله عنهم أجمعين، وأن لا يُذكر أحد من صحابة

رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم إلَّا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بيـنهم، وأنهـم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب ".

وقال الإمام أحمد بن حنبل: " ومن السّنّة ذكر محاسن أصحاب رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم كلهم أجمعين والكف عـن الـذي جـرى بيـنهم، فمَـن سـبّ أصحاب رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسـلم أو واحـداً مـنهم فهـو مبتـدع رافضي، حـبهم سـنّة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة".

وقال: "لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساويهم، ولا يطعن على أحد منهم؛ فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، وليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ثم يستتيبه فإن تاب قبل منه، وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة، وخلده في الحبس حتـى يتوب ويراجع ".

و من أصول أهل السنة و الجماعـة سـلامة قلـوبهم و ألسـنتهم لأصحاب رسـول الـلـه كما وصفهم الـلـه به في قوله تعالى: " والَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَـانِ وَ لا تَجْعَـلْ فِي قُلُوبِنَـا غِـلًّا لِلَّـذِينَ آمَنُـو رَبَّنَـا إِنَّـكَ رَءُوفٌ رَحِيم " و يقبلون ما جاء به الكتاب و السنة و الإجماع من فضائلهم و مراتبهم.

قال الإمام مالك رحمه الـلـه عن هؤلاء الذين يسبون الصحابة: إنما هـؤلاء اقـوام أرادوا القدح في النبي - صلى الـلـه عليه وسلم -، فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في اصحابه، حتى يقال رجل سوء ولو كان رجلا صالحا لكان أصحابه صالحون.

وقال ابن كثير عند قوله وتعالى: " مُحَمَّدٌ رَسُولُ الـلـهِ وَالَّـذِينَ مَعَـهُ أَشِـدَّاءُ عَـلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُـونَ فَضْـلاً مِـنْ الـلـهِ وَرِضْـوَاناً سِـيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْـرَجَ شَـطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ " (الفتح:29).

قال: " ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الـلـه عليه في رواية عنه بتكفير الـروافض الـذين يبغضون الصحابة رضي الـلـه عنهم قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة رضي الـلـه عـنهم فهـو

كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء رضي اللـه عنهم على ذلك ".

وقد أجمع أهل السنة والجماعة على ما تواتر به النقل عن علي وغيره أن خيرَ هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر ثم عمر، واختلفوا في عثمان وعلي: أيُهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي، وقدم قوم عليا، وقوم توقفوا، وأشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللـه إلى ترجيح الرأي الأول وهو تقديم عثمان على عَلِي في الأَفضلية.

يتبين من الآثار السابقة المأثورة عن عمر النهي عن اتباع الهوى والابتداع في الدين واتباع منهج وعقيدة أهل السنة والجماعة وهو ما جاءت بالنصوص الصحيحة وأقوال السلف رحمهم اللـه قال تعالى: "فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ".

لقد حظي عمر بن عبد العزيز بمكانة سامقة بين علماء الأمة، عندما نأي بنفسه عن تلك الخصومات، لأن الخصومات مدعاة للفرقة والفتنة، ومجلبة للتعصب واتباع الهوى، ومطية للانتصار للنفس، والتشفي من الآخرين وذريعة للقول على اللـه بلا علم. ولما كان هذا شأن الجدل والخصومات ابتعد عنها السلف الصالح، وحذروا منها، وورد عنهم آثار كثيرة في ذلك. وأخرج أن عمر بن عبد العزيز قال: " من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل ".

رأى عمر بن عبد العزيز التزام منهج أهل السنة والجماعة في معتقدهم، فأهل السنة قد يختلفون في بعض المسائل الاجتهادية، مع بقاء الألفة والمحبة والمودة فيما بينهم، ومن الأمثلة الرائعة ما أسنده ابن عبد البر إلى العباس بن عبد الملك العظيم العنبري أحد الثقات الحفاظ الكبار، وممن روى عن الإمام أحمد وشاركه في الرواية عن بعض شيوخه، قال :"كنت عند أحمد بن حنبل وجاءه علي المديني راكباً على دابة, فناظر في الشهادة – يريد الشهادة بالجنة للعشرة المبشرين بها – وارتفعت أصواتهما حتى خفت أن يقع بينهما جفا، وكان أحمد يرى الشهادة وعلي يأبى ويدفع، فلما أراد علي الانصراف قام أحمد فأخذ بركابه ".

وقد يحتاجون إلى الرد على بعض، ولكن في حدود الأدب واللياقة, بعيداً عن

الإسفاف والصفاقة أو التنقص والغيبة، لأن الله -عز وجل- أمرنا ألا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، فما الشأن مع المسلمين؟! بل مع خاصة المسلمين من العلماء والدعاة والمصلحين؟! فهم يدينون لله تعالى بسلامة قلوبهم وألسنتهم لإخوانهم المسلمين.

قال الذهبي رحمه الله عن الإمام الشافعي رحمه الله: "ما رأيت أعقل من الشافعي! ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً, وإن لم نتفق في مسألة!"

هذا هو منهج أهل السنة والجماعة في الخلاف، لا كما يفعله بعض من خالف منهجهم ممن يمتحن أتباعه بأن يكون لهم موقف معادٍ مع من خالفه، فإن لم يوافقه بدع وهجر.

وليس لأحد أن ينسب إلى أهل السنة مثل هذه الفوضى في التبديع والهجر، وليس لأحد أيضاً أن يصف من لا يسلك هذا المسلك الفوضوي بأنه مميع لمنهج أهل السلف، وفي مجموع الفتاوى لابن تيمية رحمه الله تعالى في جوابه لأهل البحرين: "كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله في قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً " (النساء:59)، وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين، نعم من خالف الكتاب المستبين، والسنة المستفيضة، أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافا لا يعذر فيه، فهذا يعامل معاملة أهل البدع ".

فقد حرص على وحدة المسلمين، وتوحيد كلمتهم على الحق، وإزالة أسباب النزاع والفرقة بينهم، لعلمه أن الاجتماع رحمة والفرقة عذاب، ولأن الله -عز وجل- أمر بالائتلاف، ونهى عن الاختلاف كما في قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ

تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ *وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللـهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ " (آل عمران:102-103)، بخلاف الذين يسعون للفرقة بين المسلمين، ويبذرون بذور الشقاق في صفوفهم، ويحزبونهم ويصنفون ويؤلبون بعضهم على بعض بدعاوى وأوهام بعيدة عن الحقائق، وخالية من التثبت.

***

كلمة الشيعة في اللغة يراد بها: الاتباع، والأنصار، والأعوان، والخاصة.وفي الاصطلاح هو اسم لكل من فضل عليًّا على الخلفاء الراشدين قبله رضي اللـه عنهم جميعا ورأى أن أهل بيته أحق بالخلافة من سائر الصحابة رضي اللـه عنهم أجمعين.

وقد ظهرت فرقة الشيعة بعد معركة صفين حين انشق الخوارج وتحزبوا في النهروان فظهر في مقابلهم اتباع وأنصار علي حيث بدأت فكرة التشيع تشتد شيئاً فشيئًا.

وللشيعة أسماء عدة كالرافضة والزيدية إضافة إلى الاسم العلم لهم، الشيعة. هذا بغض النظر عن صدق هذا الاسم عليهم أو عدم صدقه لأنه لا تأثير للأسماء في الحقيقة والواقع.

والشيعة فرق عديدة منهم الغلاة الذين خرجوا عن الإسلام وهم يدعونه ويدعون التشيع، ومنهم دون ذلك ومؤسس مذهبهم هذا هو عبد اللـه بن سبأ كان يهوديا من اليمن فادعى الإسلام.

وأهم فرقهم هي: الكيسانية، والسبئية، والزيدية، والرافضة (الإثنى عشرية).

إن مما أنعم اللـه به على عمر بن عبد العزيز بُعد النظر،والإصابة في القول، فأقواله تنم عن هبة خصه اللـه بها، فقوله إذا رأيت القوم يتناجون في دينهم بشيء دون العامة فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة، يُعتبر قاعدة تدلنا على أخص سمة يتميز بها أهل الأهواء والبدع، وهي التناجي في أمور الدين بخفية، والخروج عن جماعة المسلمين الذين هم سلف هذه الأمة. وقد حاز الشيعة قصب السبق في هذا الجانب حيث وجد عندهم من البدع ما لم يوجد عند غيرهم من الفرق المنتسبة إلى الإسلام.

علم عمر بن عبد العزيز فرق الشيعة، وقام بزجرهم بخطبه ورسائله محذرا عـن الفرقة، والخروج عـما كـان عليـه الصحابة وآمـرا بالاعتصـام بالكتـاب والسـنة، ولـزوم الجماعة، وترك الابتداع في الدين الذي هو أبرز سمات شعار فرقة الشـيعة الرافضـة إلى أن أتاه أجله فرحمه اللـه رحمة واسعة.

وقد كان عمر يعرف معتقدات هذه الفرقة الضالة، التي تكـتم عقيـدتها بالتقيـة، حيث تتظاهر بأنها تنقاد للأئمة وتؤدي الواجبـات في الظـاهر، بيـنما تعتقـد في البـاطن خلاف ذلك ومن العجيب أن يوجد بين المسلمين الـذين يؤمنـون بـالقرآن مـن يـرى أن هناك من يرجع من الأموات قبل يوم القيامة كـما هـو معتقـد فرقـة مـن فـرق الغـلاة الشيعة الذين يـرون أنـه لا يجـوز القتـال بالسـيوف وغيرهـا مـن الأسـلحة الفتاكـة إلا معوجود الإمام المعصوم.

أما في حال غيبته فيقتصرون على القتال بالخشب فقط. ومـن خـلال أفـراد هـذه الفرقة عرف عمر بن عبد العزيز أن من تحبه من بني هاشـم فهـو فاسـد لأن أفرادهـا وعوامها لا يحبون إلا من يوافقهم في ضلالاتهم وأهـوائهم، وأمـا مـن تكرهـه مـن بنـي هاشم فهو صالح لأنه لا يمكن للمسلم العاقل أن يعتقد مثل هذه الاعتقادات الباطلـة، وقد بين الأشعري رحمه اللـه أن هذا المعتقد كان يقول به عبد اللـه بن سـبأ مؤسـس معتقد الغلاة فقال رحمه اللـه الصنف الرابع عشر من أصناف الغاليـة وهـم السـبئية أصحاب عبد اللـه بن سبأ يزعمون أن عليـا لم يمـت، وأنـه يرجـع إلى الـدنيا قبـل يـوم القيامة، فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وذكروا عنه أنه قال لعلي رضي اللــه تعـالى عنه: أنت أنت! والسبئية يقولون بالرجعة وأن الأموات يرجعون إلى الدنيا... ".

ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد: قال أتى عمر بن عبد العزيز كتـاب مـن عاملـه على الكوفة يخبره بسوء طاعة أهلها فوقع عليها عمر "لا تطلب طاعة مـن خـذل عليـا رضي اللـه عنه وكان إماما مرضيا".

ولكن الشيعة الإثنا عشرية ترى أن عمر بن عبد العزيز (كغيره من الخلفاء) قـد تبـوّأ منصب الخلافة بغير حق، إذ هو منصب مقصـور عـلى أصحابه الشرعيـين مـن أئمـة أهـل

البيت حسب عقيدة الشيعة الإثنا عشرية، « فالجلوس في هذا المكان بحد ذاته يعد ذنباً عظيماً وإثماً كبيراً تهون عنده الذنوب الأخرى جميعها، بل يعد اغتصاب الخلافة الشرعية من أصحابها الشرعيين أس الذنوب الذي دارت عليه رحى الكبائر والموبقات إلى يوم القيامة، إلاّ ان لعمر بن عبد العزيز بعض المواقف التي كانت موضع التقدير، وأمّا من يعتبره خليفة راشداً عادلاً فهو لا يكون إلاّ بحسب مبانيه في الخلافة التي تخالف مباني الشيعة الإمامية في الموضوع «.

إلا أن بعض الشيعة يرون أن عهد عمر على قصر مدته كان متنفساً للمسلمين من اضطهاد قومه بني أمية، وأن هناك نقاط إيجابية من عصره، وأنه لما استخلف قال: " يا أيها الناس، إني قد رددت عليكم مظالمكم، وأول ما أرد منها ما كان في يدي، وقد رددت فدك على ولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وولد علي بن أبي طالب"، فكان أول من ردها.

وأنه ألغى مرسوم معاوية يلعن " علي بن أبي طالب" في صلاة الجمعة وقد أنكر أهل السنة هذا المرسوم من أساسه، قال اليعقوبي: " وترك لعن علي بن أبي طالب على المنبر، وكتب بذلك إلى الآفاق... وأعطى بني هاشم الخمس، ورد فدكاً وكان معاوية أقطعها مروان فوهبها لابنه عبد العزيز فورثها عمر منه فردها على ولد فاطمة، فلم تزل في أيديهم حتى ولي يزيد بن عبد الملك فقبضها".

***

* الشيعة هو اسم يطلق على ثاني أكبر طائفة من المسلمين، وهم الذين عرفوا تاريخيًا بـ"شيعة علي" أو "أتباع علي"، وغالبًا ما يشير مصطلح الشيعة إلى الشيعة الاثنا عشرية لأنها الفرقة الأكثر عددًا. يرى الشيعة أن عليًا بن أبي طالب هو وأحد عشر إمامًا من ولده (من زوجته فاطمة بنت النبي محمد) هم أئمة مفترضو الطاعة بالنص السماوي وهم المرجع الرئيسي للمسلمين بعد وفاة النبي، ويطلقون عليهم اسم الأئمَّة أو الخُلفاء الذين يجب اتِّباعهم دون غيرهم طبقًا لأمر من النبي محمد في بعض الأحاديث مثل حديث المنزلة، وحديث الغدير، وحديث الخلفاء القرشيين الاثنا عشر، وحديث الثقلين المنقولة عن النبي محمد بنصوص مختلفة والذي يستدلّون به على غيرهم من خلال وجوده في بعض كتب بعض الطوائف الإسلامية التي تنكر الإمامة وهو كالتالي :«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما».

محبة أهل بيت رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم من العبادات التي يتقرب بها المسلم لربه سبحانه وتعالى، قال الـلـه تعالى: " قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـرًا إِلَّا الْمَـوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى " (الشورى: 23) والمعنى أن تودوني في قرابتي، أي تحسنوا إليهم وتبروهم، وهذا قولسعيد بن جبير وهو أحد الأقوال في تفسير الآية.

وقد أوصى النبي صلى الـلـه عليه وسلم في عدة أحاديث بأهل بيته، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه أن النبي صلى الـلـه عليه وسـلم قـال: وأنـا تـارك فـيكم ثقلـين، أولهما: كتاب الـلـه، فحث على كتاب الـلـه ورغب فيه، ثم قال : وأهـل بيتـي، أذكـركم الـلـه في أهل بيتي.. الحديث. وروى البخاري في صحيحه عن أبي بكر أنه قـال : والـذي نفسي بيده لقرابة رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم أحـب إلي أن أصـل مـن قرابتـي. وروي عنه أيضا أنـه قـال : ارقبـوا محمـدا صـلى الـلــه عليـه وسـلم في أهـل بيتـه. أي احفظوه فيهم فلا تؤذوهم ولا تسيئوا إليهم, وقد نص أهل العلم عـلى أن مـن عقيـدة أهل السنة والجماعة محبة أهل البيت وتعظيمهم من غير غلو، قال شيخ الإسـلام ابـن تيميةفي العقيدة الواسطية في بيان عقيدة أهل السـنة والجماعـة: ويحبـون أهـل بيـت رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم.

فمحبة أهل بيت رسول الـلـه صلى الـلـه عليـه وسـلم مـن صـميم عقيـدة أهـل السنة والجماعة، وهي من حقوقهم علينا، كما أن من حقهم علينـا نصرتهـم وإكـرامهم والذب عنهم سواء الأحياء منهم والأموات، ويستحب الصلاة عليهم في التشهد؛ كما أمـر النبي صلى الـلـه عليه وسلم بذلك، فيقول المصلي في تشهده: الـلـهم صل عـلى محمـد وعلى آل محمد

ولكن ينبغي للمسلم أن يحذر مـن أن يقـع في الغلـو في محبـتهم؛ كـما وقـع لـبعض المبتدعة الذين عبدوهم مع الـلـه ورفعوهم فوق منزلتهم التي أنـزلهم الـلــه إياهـا، فـآل البيت بشر من البشر لا يملكون نفعا ولا ضرا، وهذا رسول الـلــه صـلى الـلــه عليـه وسـلم أمره ربه أن يعلنها صريحة للناس فقال: " قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا " (الجن: 21) وقال: " قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ الـلـهُ " (يونس: 49) فغيره صلى الـلــه عليه وسلم من باب أولى، فمحبة آل البيت عبادة مشروعة، والغلو فيهم بدعة ممنوعة.

عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه أنه قال:: لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما أحب أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا لأنه لو كان قولاً واحداً كان الناس في ضيق وإنهم أئمة يقتدى بهم ولو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة. قال أبو عمر رحمه الله هذا فيما كان طريقه الاجتهاد، وسئل عمر بن عبد العزيز عن علي وعثمان وصفين وما كان بينهم فقال: تلك دماء كف الله يدي عنها وأنا أكره أن أغمس لساني فيها وعن محمد بن النضر قال: ذكروا اختلاف أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عند عمر بن عبد العزيز فقال: أمر أخرج الله أيديكم منه ما تعملون ألسنتكم فيه. وعمر بن عبد العزيز كغيره من علماء السلف الصالح حريص على إبراز فضائل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -ولم لا يكون ذلك وقد قال الله تعالى: " لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيباً" (الفتح, الآية : 18).

ومعتقد أهل السنة: بأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب، وقال ابن حجر: واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً وأن المصيب يؤجر أجرين، ومضمون الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز توضح معتقده في الصحابة وهو معتقد أهل السنة والجماعة.

قال د. محمد بيومي في كتابه (في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين): الذي اشتهر بحب آل البيت، والذي قال لعبد الله بن الحسن المثنى، حفيد الإمام علي، " والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إلي منكم ولأنتم أحب إلي من أهل بيتي ". وحين ذكر الزهاد عنده قال: " أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب".

قالت عائشة رضي الله عنها: " أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فسبوهم " صحيح مسلم .

وعن مجاهد، عن ابن عباس، قال: " لا تسبوا أصحاب محمد، فإن اللـه قد أمر بالاستغفار لهم، وقد علم أنهم سيقتتلون ".

قال ابن قدامة المقدسي رحمه اللـه: و من السنة تولي أصحاب رسول اللـه - صلى اللـه عليه وسلم -، و محبتهم و ذكر محاسنهم و الترحم عليهم و الاستغفار لهم, والكف عن ذكر مساوئهم و ما شجر بينهم, و اعتقاد فضلهم و معرفة سابقتهم, قال اللـه تعالى: " والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا و لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا" (الحشر:10) و قال تعالى: "محمد رسول اللـه و الذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم " (الفتح: 29) و قال النبي صلى اللـه عليه وسلم: " لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " رواه البخاري.

قال ابن تيميه رحمه اللـه: سائر اهل السنه والجماعه وائمه الدين لا يعتقدون عصمة أحد من الصحابة ولا القرابة ولا السابقين بل يجوز عندهم وقوع الذنوب منهم واللـه تعالى يغفر لهم بالتوبة ويرفع بها درجاتهم ويغفر لهم بحسنات ماحية أو بغير ذلك من الأسباب.

قال الإمام الذهبي رحمه اللـه : " كما تقرر الكف عن كثير مما شجر بينهم وقتالهم - رضي اللـه عنهم - أجمعين وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف وبعضه كذب ".

قال ابن بطة: « ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول اللـه - صلى اللـه عليه وسلم - فقد شهدوا المشاهد معه، وسبقوا الناس بالفضل فقد غفر اللـه لهم وأمرك بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتتلون وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم ولا تنظر في كتاب صفين والجمل ووقعة الدار وسائر المنازعات التي جرت بينهم ولا تكتبه لنفسك ولا لغيرك ولا تروه عن أحد ولا تقرأه على غيرك ولا تسمعه ممن يرويه فعلى ذلك اتفق سادات علماء هذه الأمة من النهي عما وصفناه منهم: حماد بن زيد ويونس بن عبيد وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وعبداللـه بن

إدريس ومالك بن أنس وابن أبي ذئب وابن المنكدر وابن المبارك وشعيب بن حرب وأبو إسحاق الفزاري ويوسف بن أسباط وأحمد بن حنبل وبشر بن الحارث وعبدالوهاب الوراق.كل هؤلاء قد رأوا: النهي عنها والنظر فيها والاستماع إليها وحذروا من طلبها والاهتمام بجمعها.

وقد أجمع السلف على عدم الخوض فيما شجر بينهم رضي الله عنهم أجمعين روى الخطابي عن حمزة بن الحارث الدهان قال: حدثنا عبدالله بن روح المدائني قال: حدثنا يحيى بن الصامت قال: حدثنا أبو إسحاق الفزاري عن الأعمش عن أبي راشد قال: جاء رجل من أهل البصرة إلى عبيد الله بن عمر فقال: إن رسول إخوانك من أهل البصرة إليك فإنهم يقرءونك السلام ويسألونك عن أمر هذين الرجلين علي وعثمان وما قولك فيهما. فقال: هل غير. قال: لا. قال: جهزوا الرجل فلما فرغ من جهازه.

قال: أقرأ - عليهم السلام - وأخبرهم أن قولي فيهم: " تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ".

وروى الخطابي عن يونس بن عبد الأعلى يقول: حدثنا الشافعي قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: ما تقول في أهل صفين. فقال: تلك دماء طهر الله يدي منها فلا أحب أن أخضب لساني بها. وسنده منقطع. ورواه ابن سعد خالد بن يزيد بن بشر عن أبيه قال: سئل عمر بن عبد العزيز عن علي وعثمان والجمل صفين وما كان بينهم فقال: تلك دماء كف الله يدي عنها وأنا أكره أنا أطره أن أعمس لساني فيها.

كان عمر بن عبد العزيز سباقا لوأد الفتنة؛ إذ أنه يعتقد باعتقاد أهل السنة والجماعة ويقول بقولهم: أن ما شجر بينهم من خلاف فقد كانوا رضي الله عنهم يطلبون فيه الحق و يدافعون فيه عن الحق، فاختلفت فيه اجتهاداتهم، ولكنهم عند الله عز وجل من العدول المرضي عنهم، و من هنا كان منهج أهل السنة والجماعة هو حفظ اللسان عما شجر بينهم، فلا نقول عنهم إلا خيراً و نتأول و نحاول أن نجد الأعذار للمخطئ منهم و لا نطعن في نيّاتهم فهي عند الله، و قد أفضوا إلى ما قدموا، فنترضى عنهم جميعاً و نترحم عليهم و نحرص

على أن تكون القلوب سليمة تجاههم .

***

تعني الذمة في اللغة: العهد والأمان والضمان، وأهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين، وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم؛ فإن تعاليم الإسلام كانت تقضي بأنه إذا أراد المسلمون فتح إقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الإسلام، فمن استجاب منهم طُبِّقت عليه أحكام المسلمين، ومن امتنع أُخذت منه الجزية.

قد سبق أن ذكرنا موقف عمر بن عبد العزيز من أهل الأهواء والبدع، وسنذكر الآن موقفه من أهل الذمة وهم:- أهل الأديان الأخرى غير الإسلام المعاهدين على دفع الجزية للمسلمين.

أما موقفه من أهل الحرب؛ فقد كان متبعا منهج الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهج خلفائه الراشدين حيث كتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم مع فارس والروم، ووعدهم عمر بأن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وكانت سيرته قد بلغتهم فأسلم "جيشبة بن زاهر" والملوك، وتسموا له بأسماء العرب، وبقي ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر ويزيد بن عبد الملك.

كما كتب إلى ملك الروم قيصر يدعوه إلى الإسلام. أما ما يخص أهل الذمة الموجودين تحت سلطته فيتضح موقفه منهم فيما أثر عنه من الآثار الآتية:

تحدث ابن القيم عن حال عمر بن عبد العزيز مع أهل الذمة فقال: فأما عمر بن

---

*آل البيت مصطلح إسلامي يشير إلى جماعة من أقرباء نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم, ويؤمن المسلمون بأن آل البيت لهم مكانة خاصة بين العموم مع اختلاف درجة هذه المكانة بين المذاهب الإسلامية. ذكرهم القرآنفي آية التطهير:

إِنَّمَا يُرِيدُ اللـهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (سورة الأحزاب : آية 33)

وذكرهم الرسول صلى الله عليه وسلم في عدة نصوص واردة عنه، واكتسب هذا المصطلح أهميته وشهرته، نتيجة الاختلاف بين شيوخ أهل السنة والجماعة في تفسير ماهية أهل البيت الذين ذكرهم القرآن والرسول.

عبد العزيز رحمه اللـه تعالى فإنه كتب إلى جميع عماله في الآفاق: أما بعد، فـإن عمـر بن عبد العزيز يقرأ عليكم من كتاب اللـه: "ياأيها الذين آمنـوا إنمـا المشركـون نجـس"، وجعلهم اللـه " حزب الشيطان " وجعلهم: بالأخسرين أعـمالا الـذين ضـل سـعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، واعلموا أنـه لم يهلـك مـن هلـك مـن قبلكم إلا بمنعه الحق وبسطه يد الظلم، وقد بلغني عن قوم مـن المسـلمين فـيما مضى أنهم إذا قدموا بلدا أتاهم أهـل الشرك فاسـتعانوا بهـم في أعمالهـم وكتـابتهم لعلمهـم بالكتابة والجباية والتدبير، ولا خيرة ولا تدبير فيما يغضب اللـه ورسوله، وقد كان لهـم في ذلك مدة وقد قضاها اللـه تعالى، فلا أعلمـن أن أحـدا مـن العـمال أبقـى في عملـه رجلا متصرفا على غير ديـن الإسـلام إلا نكلـت بـه، فـإن محـو أعمالهـم كمحـو ديـنهم، وأنزلوهم منزلتهم التي خصهم اللـه بها من الذل والصغار، وآمر بمنع اليهود والنصارى من الركوب على السروج إلا على الأكف، وليكتب كل منكم بما فعله من عمله.

وكتب إلى حيان، عاملـه عـلى مصر بـاعتماد ذلـك فكتـب إليـه: أمـا بعـد يـا أمـير المؤمنين فإنه إن دام هذا الأمر في مصر أسلمت الذمة، وبطل مـا يؤخـذ مـنهم، فأرسـل إليه رسولا وقال له: اضرب حيان على رأسه ثلاثين سوطا أدبا عـلى قولـه، وقـل لـه: مـن دخل في دين الإسلام فضع عنه الجزيـة، فـوددت لـو أسـلموا كلهـم، فـإن اللـــه بعـث محمدا داعيا لا جابيا.

وأمر أن تهدم بيع النصارى المستجدة، فيقال: إنهـم توصـلوا إلى بعـض ملـوك الـروم وسألوه في مكاتبة عمر بن عبد العزيز، فكتب إليه: أما بعد يا عمر، فـإن هـؤلاء الشـعب سألوا في مكاتبتك لتجري أمورهم على ما وجدتها عليـه، وتبقـي كنائسـهم، وتمكـنهم مـن عمارة ما خرب منها، فإنهم زعموا أن من تقدمك فعل في أمر كنائسهم مـا منعـتهم منـه، فإن كانوا مصيبين في اجتهادهم فاسلك سنتهم، وإن يكونوا مخالفين لها فافعل ما أردت.

فكتب إليه عمر: أما بعد فإن مثلي ومثل مـن تقـدمني كـما قـال اللــه تعـالى في قصة داود وسليمان: إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيـه غـنم القـوم وكنـا لحكمهـم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما.

وكتب إلى بعض عماله: أما بعد، فإنه بلغني أن في عملك كاتبا نصرانيا يتصرف في مصالح الإسلام، والله تعالى يقول: ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين, فإذا أتاك كتابي هذا فادع حسان بن زيد - يعني: ذلك الكاتب - إلى الإسلام، فإن أسلم فهو منا ونحن منه، وإن أبى فلا تستعن به ولا تتخذ أحدا على غير دين الإسلام في شيء من مصالح المسلمين، فأسلم حسان وحسن إسلامه.

إلا أن بعض الروايات عن النصارى الذين عاصروا عمر بن عبد العزيز تتناقض مع ذلك، فقد روي عن الأوزاعي أنه قال: شهدت جنازة عمر بن عبد العزيز، ثم خرجت أريد مدينة قنسرين، فمررت على راهب فقال: «يا هذا، أحسبك شهدت وفاة هذا الرجل» أي عمر بن عبد العزيز، فقلت له: «نعم»، فأرخى عينيه فبكى سجاماً، فقلت له: «ما يبكيك ولست من أهل دينه؟»، فقال: «إني لست أبكي عليه، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطفئ».

كما حاول تعويض النصارى عن مصادرة كنيسة القديس يوحنان، إذ أعاد لهم كنيسة توما في دمشق .

وذكر أن عمر كان يقيم لمدة طويلة وحتى آخر أيامه بخناصرة بالقرب من أحد الأديرة الذي يسمى دير سمعان، حيث يوجد قبره، ويقال أن أهل الدير أرادوا إهداء موضع القبر لخليفتهم إلا أنه فضل شراءه منهم.

والأكثر من ذلك أنه يقال أن عمر وظف عطايا لأهل الذمة بعد أن تم توزيع الأموال على المسلمين.

ويُروى أن عمر بن عبد العزيز بعث وفداً إلى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين، وحق يدعوه إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسر عليه وهو جالس على سرير ملكه، والتاج على رأسه والبطارقة على يمينه وشماله، والناس على مراتبهم بين يديه، فأدى إليه ما قصدوه له، فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن الجواب، وانصرفوا عنه في ذلك اليوم،

فلما كان في غداة غد أتاهم رسوله، فدخلوا عليه، فإذا هو قد نـزل عـن سريـره ووضـع التاج عن رأسه، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها، كأنـه في مصـيبة، فقـال: «هـل تدرون لماذا دعوتكم؟»، قالوا: «لا»، قال: «إن صاحب مصلحتي التي تلي العرب جاء في كتابه في هذا الوقت: أن ملك العرب الرجل الصالح قد مـات»، فـما ملكـوا أنفسـهم أن بكوا، فقال: «ألكم تبكون أو لدينكم أو له؟»، قالوا: «نبكي لأنفسنا ولـديننا ولـه»، قـال: «لا تبكوا له، وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم، فإنه خرج إلى خير مما خلف، وقد كان يخاف أن يدع طاعة اللـه، فلم يكن اللـه ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافته، لقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيـي المـوتى لظننـت أنـه يحيـي المـوتى، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً، بل باطنه أشـد حين خلوته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه عـلى رأس صومعته، ولكني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها حتى صـار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً».

إن سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين تتجلى بسيرة الرسـول صـلى اللــه عليـه وسلم في تعامله مع غير المسلمين وتنبع مـن أن اللــه بعثـه رحمـة للعـالمين، وأنـه مثـال للكمال البشري في حياتـه كلهـا وفي علاقتـه بالنـاس كلهـم بمختلـف أجناسـهم وأعمارهـم وألوانهم، مسلمين وغير مسلمين. وتعدد صور السماحة في هدي النبي صـلى اللــه عليـه وسلم مع غير المسلمين وشواهد ذلك من سيرته لا تحصر. ومن الأمثلـة عـلى ذلـك تظهـر سيرته في المدينة المنورة حيث تأسس المجتمع الإسلامي الأول وعاش في كنفه اليهود بعهـد مع المسلمين وكـان صـلى اللــه عليـه عليـه وسـلم غايـة في الحلـم معهـم والسـماحة في معاملتهم حتى نقضوا العهد وخانوا رسول اللـه. لقد ضمن صلى اللـه عليـه وسـلم لمـن عاش بين ظهراني المسلمين بعهد وبقي على عهده أن يحظى بحماية الرسـول الخاصـة لـه وانه خصم لمن ظلمه فقال صلى اللـه عليه واله وسلم: ألا من ظلم معاهدا أو انتقصـه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة. وشدد الوعيد على من هتك حرمة دمائهم فقال صلى اللـه عليه وسلم: من قتل معاهـدا لم يـرح رائحـة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما تلك صـور مـن سـماحة النبـي صـلى اللــه

عليه وسلم مع غير المسلمين وبصورة عامة لم يعرف في تاريخ المسلمين الطويل أنهم ضيقوا على اليهود والنصارى أو غيرهم أو أنهم أجبروا أحدا من أي طائفة من الطوائف اليهودية أو النصرانية على اعتناق الإسلام. يقول توماس آرنولد: " لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي ".

وكان الخليفة الاول أبو بكر يوصي الجيوش الإسلامية بقوله: " وستمرون على قوم في الصوامع رهبانا يزعمون أنهم ترهبوا في اللـه فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم ".

ومر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه فواللـه ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم " إنما الصدقات للفقراء والمساكين " والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه.

وقد اهتم الإمام علي بحفظ حقوق كل مواطن في دولته، مسلماً كان أو غير مسلم، فإن غير المسلم شريك في الإنسانية والوطن، كما قال رضي اللـه عنه: (إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق). لذلك نجد الإمام علياً يتألم لانتهاك حرمة المرأة غير المسلمة، كما يتألم للمرأة المسلمة، ويعتبر وقوع شيء من ذلك في بلاد المسلمين، دون مقاومة أو ردع، يسلب الحياة قيمتها، ويكفي مبرراً لاختيار الموت أسفاً واعتراضا، يقول عليه السلام منددا بإحدى غارات جيوش معاوية: ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعاثها، ما تمنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أُريق لهم دم، فلو أن امرءاً مسلماً، مات من بعد هذا أسفا، ما كان به ملوما، بل كان به عندي جدير.

وذات مرة رأى الإمام علي شيخاً كبيراً فاقد البصر، وهو يستجدي الناس، فهاله المنظر، والتفت قائلاً: ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين نصراني، فقال رضي الله عنه: استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه؟! أنفقوا عليه من بيت المال.

وكتب في رسالة إلى عماله على الخراج، مؤكداً حرمة أموال وحقوق كل المواطنين مسلمين وغير مسلمين، يقول رضي الله عنه: (ولا تمسُّن مال أحد من الناس؛ مصل ولا معاهد.

ونجد ذروة الاحترام والمساواة أمام القانون، ما نقله ابن الأثير عن الشعبي قال: وجد علي درعاً له عند نصراني، فأقبل به إلى شريح (القاضي) قائلاً: هذه درعي! فقال النصراني: ما هي إلا درعي، ولم يكذب أمير المؤمنين، فقال شريح لعلي: ألك بينة؟ قال: لا، وهو يضحك، فأخذ النصراني الدرع، ومشى يسيراً، ثم عاد، وقال: أشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه، ثم أسلم، واعترف أن الدرع سقطت من علي عند مسيره إلى صفين، ففرح علي بإسلامه، ووهب له الدرع وفرساً.

لقد تمتع أهل الذمة في زمن الدولة الأموية بنصيب كبير من الوظائف، حيث احتلوا مكانة بارزة في الحكم الأموي، وكثُر عددُهم في الدواوين والمصالح.

وحتى في خلافة عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدي بن أرطأة: وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه.

كما تمتع أهل الذمة في عهد عمر بن عبد العزيز بكثير من عدله ورحمته؛ فقد أمر عماله بألاَّ يهدموا كنيسة أو بيعة أو بيت نار صُولح أهلُ الذمة عليه، كما نهى عمر بن عبد العزيز عامله على الكوفة عن اتباع سياسة الحجاج التي تقضى بإرجاع أهل الذمة إلى قراهم.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة -أيضًا- أن يعطي أهل الذمة ما بقي من خراج الكوفة فيسدد ديونهم، ويساعد من أراد الزواج منهم، ثم ختم رسالته بقوله: "

قووا أهل الذمة؛ فإننا لا نريدهم لسنة أو سنتين ".

وكان عمر بن عبد العزيز يجعل صدقات بني تغلب -القبيلة المسيحية- في فقرائهم دون ضمها إلى بيت المال.

وعندما أمر عمر مناديه ينادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، قام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي. والعباس جالس، فقال له عمر: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى، فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد قم فاردد عليه ضيعته فردها عليه.

ولكن أهل الذمة في العراق في عصر الحجاج بن يوسف والي عبد الملك بن مروان عانوا بعض الشيء من سياسته، فقد ظنَّ أهل الذمة أن إسلامهم سيخلِّصُهم من دفع الجزية، فأقبلوا على الإسلام وخرجوا من قراهم إلى مدن العراق، ولكنَّ الحجاج ختم أسماء قراهم على أيديهم وأعادهم بالقوة، ووضع عبد الملك ضرائب استثنائية على أهل الذمة، وجعل الجزية في الجزيرة هي الزائد عن دخل أهل الذمة. حاول أهل الذمة الفرار من الجزية فترهبنوا لعلمهم بإعفاء الرهبان، ولكن الحجَّاج فرض الجزية على جميع الرهبان، كما كان يشتد على أهل الذمة إذا ما تأخروا في وضع الجزية، وقام الحجاج بإقصاء العمال الذميين من وظائف الدولة بالعراق.

ومن معالم التعامل مع أهل الذمة في عهد عمر بن عبد العزيز أنه أمر عماله بألاَّ يهدموا كنيسة أو بيعة أو بيت نار صُولح أهلُ الذمة عليه، كما نهى عامله على الكوفة عن اتباع سياسة الحجاج التي تقضى بإرجاع أهل الذمة إلى قراهم. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة أيضًا أن يعطي أهل الذمة ما بقي من خراج الكوفة فيسدد ديونهم، ويساعد من أراد الزواج منهم، ثم ختم رسالته بقوله: "قووا أهل الذمة؛ فإننا لا نريدهم لسنة أو سنتين". وكان عمر يجعل صدقات بني تغلب القبيلة العربية المسيحية في فقرائهم

دون ضمها إلى بيت المال فقد كان حريصا على تحقيق مبدأ الحرية التي قام عليها الحكم، وذلك ضمن حدود الشريعة الإسلامية وبما لايتناقض معها، فأقر ما كان فيها موافقا، لتعاليم الإسلام، وأعاد مالم يكن كذلك.

فكان حريصا على تنفيذ قاعدة حرية الإعتقاد في المجتمع انطلاقا من قوله تعالى:" لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" (البقرة : 256), وكانت سياسته حيال أهل الكتاب تلتزم بالوفاء بالعهود والمواثيق وإقامة العدل معهم، ورفع الظلم وعدم التضييق عليهم في معتققدهم، ودينهم، ولم يكره أحدا على الدجخول في الإسلام.

لقد تمتع أهل الذمة في الخلافة الأموية بنصيب كبير من الوظائف، حيث احتلوا مكانة بارزة من حياة الخلافة الأموية، وكثُر عددُهم في الدواوين والمصالح، وزاد عليه المستشرق الروسي (بارتولد) في كتابه تاريخ الحضارة الاسلامية: بأن النصارى والفرس كانوا يقومون ببناء المساجد والقصور.

***

حظيت الدولة الإسلامية في عهدها الزاهر بعُمرين، الأول عمر بن الخطاب، والثاني عمر بن عبدالعزيز حفيده رضي الله عنهما، الذي كان صورة في المماثلة لجده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في حرصه على المسلمين والاهتمام بهم، فقد حُمل إلى عمر بن عبدالعزيز

---

*أهل الذمة هو مصطلح فقهي إسلامي يقصد به كلا من النصارى واليهود أهل الكتاب وأصحاب الديانات الأخرى الذين يعيشون تحت الحكم الإسلامي أو في البلاد ذات الأغلبية المسلمة.
ولكونهم تحت الحماية الإسلامية ومسئولية الدولة. ولا تقصر الشريعة الإسلامية تلك المسؤولية على الدولة فقط ولكن تصرفها أيضا على المواطن المسلم فلا يجوز للمسلم الإساءة للذمي تحت عذر أنه من غير المؤمنين بالقرآن أو برسول الإسلام محمد بن عبد الله وإنما أوضحت الشريعة أن مسألة الإيمان يحاسب عليها الله وحده يوم القيامة.
وجاء في دائرة المعارف الاسلامية أن الذمة هي العهد الذي يعطى للقوم الذين يدخلون في الاسلام عند فتح المسلمين لبلادهم ولا يسترقون ويؤمنون على حياتهم وحريتهم ثم على أموالهم، ومن ثم يسمون أهل الذمة أو الذمة أو الذميين شريطة أن يبذلوا الجزية ويلتزموا أحكام الملة.
وأما أهل الكتاب فهو اللفظ أو الوصف الذي ذكره القرآن وجاء في السنة النبوية الشريفة دالا على اليهود والنصارى تمييزا لهم عن عبدة الأوثان.

خبر عدم تشجيع الجراح الناس على الدخول في الإسلام، وإن دخلوا في الإسلام فلا يسقط عنهم الجزية، ومن شارك منهم بالجهاد فلا يعطون الأرزاق. فكتب عمر إلى الجراح يقول: "انظر من صلى قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية"، كما كتب إليه: "إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً، ولم يبعثه جابيا".

وبعد هذا الكتاب دخل الكثير من الناس في الإسلام، وكاد ذلك يخل بميزانية الدولة، فأشار رجال الجراح عليه بإقامة السنة فيمن يدخلون الإسلام، وذلك بأن يأمرهم بالاختتان، وخاف الجراح أن يلومه عمر فكتب إليه يستأذنه، وقد استدعاه عمر بن عبدالعزيز فقدم الجراح إلى دمشق، تاركاً وراءه على قيادة الجيش(عبدالرحمن بن نعيم الغامدي)، وعلى جزيتها - أي ماليتها - عبيدالله بن حبيب.

وقبل السفر إلى دمشق صعد المنبر وخطب في الناس فقا: "يا أهل خراسان: جئتكم في ثيابي هذه التي علي، وعلى فرسي، لم أصب من مالكم إلا حلية سيفي" وكان معه فرسه وبغلة لتحمل له حوائجه، ولما عاد لم يكن معه نفقات السفر إلى دمشق، فاستدان من بيت مال المسلمين عشرة آلاف درهم وقال: هي عليّ سلف حتى أؤديها إلى الخليفة، ولما وصل إلى دمشق قال له الخليفة: متى خرجت؟.

قال: لأيام بقين من رمضان، وعليّ دين فاقضه عني.

قال: لو أقمت حتى تفطر ثم خرجت؟ قضيت عنك، فجمع له قومه إعانة من أعطياتهم، فوفوا ما استدانه من بيت المال لسفره.

ذلك هو الجراح في ولايته على خراسان، الذي لم يكن يملك نفقات سفره عند عودته إلى دمشق، ولما وقعت كارثة آل المهلب بعصيانهم على الدولة، فقد أراد الخليفة مسلمة بن عبدالملك بيع أولاد المهلب، فتدخل الجراح فشفع فيهم لدى الخليفة فخلى سبيلهم.

---

* الجرَّاح الحَكميّ: وهو أبو عقبة الجرَّاح بن عبد الله الحكميّ الوالي الأموي على سجستان، وهو تابعي عاصرالصحابة، ينسب إلى قبيلة بني الحَكَم أشهر وأعظم قبيلة قحطانية من (مَذْحِج)، وتعتبر قبيلة (حكم) من أقدم القبائل وأشجعها وأكرمها وأطهرها

كان لعمر بن عبد العزيز خمسة عشر ولدا، فيهم ثلاث بنات، وكانوا جميعا على حظٍّ موفور من التقى، ومقام كبير من الصلاح، ولد عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رحمه الله سنة 82هـ.

وكما يقول الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

يعجز الوصف فيه، فهو فتى مكتهل كان قائدًا مع أبيه, فكان نعم العون ولمّا يتجاوز السادسة عشر من عمره.

روى أبو نعيم في الحلية عن بعض مشيخة أهل الشام قال: "كنا نرى أن عمر بن عبد العزيز إنما أدخله في العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك".

وقال سيار بن الحكم خادم عمر: "قال ابن لعمر بن عبد العزيز يقال له عبد الملك, وكان يفضل على أبيه: يا أبي أقم الحق ولو ساعة من نهار".وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "لولا أن يكون زُيِّنَ لي من أمر عبد الملك ما يُزين في عين الوالد من ولده، لرأيت أنه أهل للخلافة". وهذا الكلام صادر من عمر، وكفى به مزكيًا، ولكن عمر يربأ بولده عن أن يكون وريثًا له في الإمارة، وإن كان لذلك أهلاً.

وروى الدورقي قال: "إن عمر قال لابنه عبد الملك يومًا: إني أخبرك خبرًا، والله ما رأيت فتى ماشيًا قط أنسك منك نسكًا، ولا أفقه فقهًا، ولا أقرأ منك، ولا أبعد من صبوة في صغر ولا كبر منك يا عبد الملك".

نسبا، وكانوا من آلاف السنين ذوي قوة وبأس، وأسسوا الكثير من الدول. وحارب وجاهد في نصرة الإسلام ونشره في بلاد ما وراء النهر، وفي حروبه على الخارجين على دولة الخلافة الإسلامية، وهو من دمشق من بلاد الشام، ولد ونشأ فيها، وولد مع نهاية العقد السادس الهجري من القرن الأول، فقد دل على ذلك مشاركته في نصرة كتائب الإسلام، وأشارت المصادر التي ترجمت له إلى أن أول ظهور عسكري له، إنما كان سنة 82هـ في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث، عندما خرج على الدولة الأمويةفي دمشق، وشوهد في معركة (دير الجماجم)، حيث قتل ابن الأشعث، وكان مشاركا الحجاج في قيادة الجيشالأموي، وبرز الجراح في هذه المعركة في سعيه لأطفاء نار الفتنة عن طريق الأتصال بمعارفه ممن هم بمعية ابن الأشعث، في مناصحته لهم بالأبتعاد عنه وقد نجح في ذلك، توفي 30 من رمضان 112هـ- 18 من ديسمبر 730م.

لأجل هذا قال ابن رجب الحنبلي في مناقب عبد الملك: "فعسى اللـه أن يجعل في سماع أخباره لأحد من جنسه أسوة، ولعل أحـدًا كريمًـا مـن أبنـاء الـدنيا تأخـذه بـذلك حمية على نفسه ونخوة؛ ففي ذكر أمثال أخبار هذا السيد الجليل مع سنه تـوبيخ لمـن جاوز سنه وهو بطال، ولمن كان بعيدًا عن أسباب الدنيا هو إليها ميال".

وقال ابن رجب: " لقد كان -رحمه اللـه- مـع حداثـة سـنه مجتهـدًا في العبـادة، ومع قدرته على الدنيا وتمكنه منها راغبًا مؤثرًا للزهادة ".

لكنَّ عبد الملك كان واسطة العقد، وكوكبة أخوتـه، فقـد كـان أديبـا، وكـان أريبـا ذكيا، له سنُّ الفتيان، وعقـلُ الكهـول، وأروع مـا في الشـاب عقلُـه الكبـير، وأروع مـا في الشـاب ورعُـه، وأروع مـا في الشـاب معرفتُـه، وأروع مـا في الشـاب أدبُـه، وأروع مـا في الشاب عفَّته، وأروع ما في الشاب توبتُه، وأروع ما في الشاب حبُّه لله عزوجل، وربُّنا عـز وجل يعجب لهذا, فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ, قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللـهِ صلى اللـه عليـه وسـلم: "إِنَّ اللـهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنْ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ " أخرجه أحمد في مسنده.

نشأ عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رحمه اللـه في طاعة اللـه عزَّ وجل منـذ نعومة أظفاره، فكان أقربَ الناس سمتًا إلى آل الخَطَّاب عامة، وأشبههم بعبد اللـه بـن عمر، خاصة في تقواه، وتخوُّفه من معاصيه، وتقرُّبـه إليـه بالطاعـة . حـدَّث ابـنُ عمَّـه عاصمٌ, فقال:وفدتُ على دمشق، فنزلتُ على ابن عمي عبد الملك، وهو عـازِب، فصـلينا العشاء، وأوى كلٌّ منا إلى فراشه، فقام عبد الملك إلى المصباح فأطفـأه، وأسـلم كـلُّ منـا جفنيه إلى الكرى، ثم إني استيقظتُ في الليل، فإذا عبد الملك قائم يصلِّي في العتمة، وهو يقرأ قوله عز وجل:"أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ " (الشعراء: 205-207).

قال ابنُ عمه عاصم: فراعني منه أنه كان يردِّد الآيَةَ، وينشج نشيجا مكبوتا, يقطِّع نِياطَ القلوب، - والحقيقة أنّ صلاة الليل صلاة الإخلاص، أنت قد تؤدِّي الفرائض خوفا من اللـه عزوجل، ولكنك لا تؤدِّي النوافل إلا حبًّا لله عزوجـل، تمامـا كالـذي يـؤدِّي الضريبـة

خوفا من المضاعفة أو العقاب، لكن الذي يتبرَّع هذا دليل محبَّة، وتأدية الضريبة دليل خوف، لكن التبرُّع دليل محبَّة، فأداء الزكاة دليل خوف، وأداء الصدقة دليل محبة، وأداء الصلوات الخمس دليل خوف، وصلاة الليل دليل محبة .

قال: وكان كلما فرغ من الآية عاد إليها, حتى قلتُ: سيقتله البكاءُ، فلما رأيتُ ذلك, قلتُ: لا إله إلا اللـه، والحمد لله، كما يفعله المستيقظ من النوم، لأقطع عليه البكاءَ، فلما سمعني سكتَ، فلم أسمع له حسًّا).

تتلمذ هذا الفتى العمري على أكابر علماء عصره، حتى تملَّى من كتاب اللـه، وتضلَّع بحديث رسول اللـه، وتفقَّه في الدين، فغدا على حداثة سنِّه, يزاحم الطبقةَ الأولى من فقهاء أهل الشام في زمانه.

فقد رُوي أن عمر بن عبد العزيز جمع قرَّاءَ الشام وفقهاءها، وقال: جمع عمر بن عبدالعزيز قراء الشام وفقهاءها، وقال إني قد دعوتكم لأمر هذه المظالم التي في أيدي أهل بيتي، فما ترون فيها؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن ذلك أمر كان في غير ولايتك، ليس لك علاقة، قضية سابقة، وأن وزر هذه المظالم على من غصبها، والتفت إليه أحدهم ممن كان يرى غير رأيهم، وقال: يا أمير المؤمنين، ابعث إلى عبدالملك، فإنه ليس دون من دعوت علماً أو فقهاً أو عقلاً، فلما دخل عليه عبدالملك، قال له عمر: ما ترى في هذه الأموال التي أخذها بنو عمنا من الناس ظلما، وقد حضر أصحابها، وجعلوا يطلبونها، وقد عرفنا حقَّهم فيها؟ فقال عبدالملك لأبيه: أرى أن تردها إلى أصحابها ما دمت قد عرفت أمرها، وإنك إن لم تفعل، كنت شريكا للذين أخذوها ظلما، فانبسطت أسارير عمر، و ارتاحت نفسه، وزال عنه همه.

قال ميمون بن مهران: قال عبد الملك بن عمر لأبيه يومًا: يا أبي ما منعك أن تمضي لما تريد من العدل؟ فواللـه ما كنت أبالي لو غَلَتْ بي وبك القدور في ذلك.

يعني: نعذب في سبيل إقامة الحق ولو وضعنا في القدور التي يغلي فيها الزيت الحار.

وقال عمر يومًا: واللـه لوددت أني عدلت يومًا واحدًا وأن اللـه توفى نفسي.. فقال

عبد الملك: أنا والـلـه لوددت أني عدلت فواق ناقة وأن الـلـه تـوفى نـفسي، فقـال عمـر: الـلـه؟ فقال عبد الملك: الـلـه, ولو غَلتْ بي وبك القدور، فقال عمر: جزاك الـلـه خيرًا.

وقال لأبيه ذات يوم: ماذا أنت قائل لربك غدًا إن سألك وقد تركت حقًّا لم تحيـه، وباطلاً لم تمته؟

وقد آثر عبدالملك المرابطة على الثغور، والإقامة في إحدى المدن القريبة منها عـلى البقاء في بلاد الشام، فمضى إليها، وخلف وراءه دمشق ذات الأنهار السبعة، وكـان أبـوه على الرغم من كل ما عرفه من صلاحه وتقاه خائفا عليـه مـن نزعـات الشـيطان، كثـير الإشفاق عليه من نزوات الشباب، حريصاً على أن يعلم من أمـره كـل مـا يجـوز لـه أن يعلم، وكان لا يغفل عن ذلك أبدا، ولا يهمله.

وعن إبن أبي عبلة قال جلس عمر يوما للناس فلما انتصف النهار ضجر ومل فقال للناس مكانكم حتى أنصرف إليكم ودخل ليستريح سـاعة فجـاء إليـه ابنـه عبـد الملـك فسأل عنه فقالوا دخل فاستأذن عليه فأذن له فلما دخل قال يا أمير المؤمنين ما أدخلك قال أردت أن أستريح ساعة قال أو أمنت الموت أن يأتيك ورعيتك على بابك ينتظرونـك وأنت محتجب عنهم فقام عمر فخرج إلى الناس.

وفي ذكر وفاة عبد الملك، قال عمر ذات يوم لعبد الملك ابنه: ما كنـت أحـب أن أراه فيك إلا قد رأيته إلا شيئًا واحدًا قال: ما هـو؟ قـال: موتـك (أي يبـتلى بفقـده، فيكـون في صحيفة حسناته) قال: أراكه الـلـه، فأصابه الطاعون في خلافة أبيه، فمات قبل أبيه وعمره تسعة عشر عامًا، ووقف عمر على قبره وقال: رحمك الـلـه يا بني، فلقد كنت بـرًّا بأبيـك، وما زلت منذ وهبك الـلـه لي مسرورًا، ولا والـلـه ما كنت أشد سرورًا ولا أرجى لحظي من الـلـه فيك منذ وضعتك في الموضع الذي صيرك الـلـه إليـه، فرحمـك الـلــه وغفـر ذنبـك، وجزاك بأحسن عملك، وتجاوز عن سيئه، ورحم كل شافع يشفع لك من شـاهد وغائـب، رضينا بقضاء الـلـه، وسلمنا لأمره والحمد لله رب العالمين. ثم انصرف والـدمع يمـلأ عينيـه، وكأن حاله يقـول: أن العـين لتـدمع وأن القلـب ليحـزن، وأن عـلى فراقـك يـا عبـد الملـك

لمحزونون.

لقد تأثر عمر بموت ابنه إلا أن هذا الأمر لم يشغله عن شئون الرعية.

وروي أن عمر كتب في رثاء عبد الملك إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن في شأن ابنه عبد الملك حين توفي أما بعد فإن الله تبارك اسمه وتعالى ذكره كتب على خلقه حين خلقهم الموت وجعل مصيرهم إليه فقال فيما أنزل من كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على حقه أنه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ثم قال لنبيه عليه السلام "وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون" ثم قال "منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى" فالموت سبيل الناس في الدنيا لم يكتب الله لمحسن ولا لمسيء فيها خلدا ولم يرض ما أعجب أهلها ثوابا لأهل طاعته ولم يرض ببلائها نقمة لأهل معصيته فكل شيء منها أعجب أهلها أو كرهوا منه شيئا متروك. لذلك خلقت حين خلقت وسكنت منذ سكنت ليبلو الله فيها عباده أيهم أحسن عملا، فمن قدم عند خروجه من الدنيا إلى أهل طاعته ورضوانه من أنبيائه وأئمة الهدى الذين أمر الله نبيه أن يقتدي بهداهم خالد في دار المقامة من فضله لا يمسه فيها نصب ولا يمسه فيها لغوب، ومن كانت مفارقته الدنيا إلى غيرهم وغير منازلهم فقد قابل الشر الطويل وأقام على مالا قبل له به، أسأل الله برحمته أن يبقينا ما أبقانا في الدنيا مطيعين لأمره متبعين لكتابه، وجعلنا إذا خرجنا من الدنيا إلى نبينا ومن أمرنا أن نقتدي بهداه من المصطفين الأخيار وأسأله برحمته أن يقينا أعمال السوء في الدنيا والسيئات يوم القيامة ثم إن عبد الملك ابن أمير المؤمنين كان عبدا من عباد الله أحسن الله إليه في نفسه وأحسن إلى أبيه فيه أعاشه الله ما أحب أن يعيشه ثم قبضه اليه حين أحب أن يقبضه وهو فيما علمت بالموت مغتبط يرجو فيه من الله رجاء حسنا فأعوذ بالله أن تكون لي محبة في شيء من الأمور تخالف محبة الله فإن خلاف ذلك لا يصلح في بلائه عندي وإحسانه إلى ونعمته علي وقد قلت فيما كان من سبيله والحمد لله ما رجوت به ثواب الله وموعده الصادق من المغفرة إنا لله و إنا اليه راجعون ثم لم أجد والحمد لله بعده في نفسي إلا خيرا من رضى بقضاء الله واحتساب لما كان من المصيبة فحمدا لله على ما مضى وعلى ما بقي وعلى كل حال من أمر الدنيا

والآخرة أحببت أن أكتب إليك بذلك وأعلمك من قضاء اللـه فلا أعلم ما نـيح عليـه في شيء من قبلك ولا اجتمع على ذلك أحد من الناس ولا رخصت فيه لقريـب مـن النـاس ولا لبعيد واكفني ذلك بكفاية اللـه ولا ألومك فيه إن شاء اللـه والسلام عليك.

وعن الربيع بن سبرة قال: "لما هلك عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وسهل بـن عبدالعزيز ومزاحم مولى عمر في أيام متتابعة - دخلت على عمر فقلـت: أعظـم اللــه أجرك يا أمير المؤمنين، واللـه ما رأيت مثل ابنك ابنًا، ولا مثل أخيك أخًا، ولا مثل مولاك مولى قط، فطأطأ عمر رأسه. فقال لي رجل معي على الوسادة: لقد هيجت عليـه، قـال: ثم رفع عمر رأسه وقال: كيف قلت الآن يا ربيع؟ فأعدت عليه مـا قلـت أولًا. فقـال: لا والذي قضى عليهم بالموت ما أحب شيئًا من ذلك لم يكن".

"وروي أن عمر بن عبد العزيز لما دفن ولده عبد الملك وعاد - مر بقـومٍ يرمـون، فلما رأوه أمسكوا، فقال: ارمـوا ووقـف، فرمـى أحـد الـراميين فـأخرج، فقـال لـه عمـر: أخرجت فقصر، وقال لآخر: ارمِ، فرمى فقصر، فقـال لـه عمـر: قصرت؛ فبلـغ. فقـال لـه مسلمة: يا أمير المؤمنين، أتفرغ قلبك إلى ما تفرّغـت لـه، وإنمـا نفضـت يـدك الآن مـن تراب قبر ابنك ولم تصل إلى منزلك؟ فقال له عمر: يا مسلمة، إنما الجـزع قبـل المصـيبة، فإذا وقعت المصيبة فالهَ عمّا نزل بك".

وروي أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه بعض الناس يعزيه بموت ابنه عبد الملك، فقال عمر لكاتبه: اكتب، ودقِّق القلم: أما بعد.. فإن هذا أمرٌ كُنّـا وطّنـا نفوسـنا عليـه، فإذا نزل بنا لم نكرهه والسلام". وعن الضحاك بن عثمان قال: "لما انصرف عمر بن عبـد العزيز عن قبر سلفّت له مراكب سليمان، فقال:

ولـولا التُقـى ثـم النُهـى خشـية الـردى   قضى مـا قضى فـيما قضى ثـم لا يـرى

لعاصـيت في حــب الصــبا كــل زاجــر   لـــه صــبوة أخـــرى الليـــالي الغـــوابر

ثم قال: إن شاء اللـه، لا قوة إلا باللـه، قدِّموا إليَّ بغلتي".

لا تتعجب من فعل هؤلاء وصبرهم، فإنما الصبر من الأخـلاق الحميـدة وهـي مـن

صفات الرجال، محفورة أسماؤهم في سجلات، المعلم فيها محمد صلى اللـه عليه وسلم, وإذا أردت أن تتشبه بهم، فالقى نظرة على سيرة نبينا محمد صلى اللـه عليه وسلم. وأقرب شاهد على ذلك أنه لم يحد عن سبيل الزهد في هذه الحياة قيد أنملة، فعيشه يوم كان يتعبد في غار حراء كعيشه يوم أظلت رايته البلاد العربية، وأطلت على ممالك قيصر من ناحية تبوك. وكذلك مضاؤه في سبيل الدعوة، فقد قام يدعو إلى الهدى ودين الحق، ويلقى من الطغاة والسفهاء أذى كثيرًا، فيضرب عنه صفحًا أو عفوًا، ويمضي في سبيله لا يأخذه يأس، ولا يقعد به ملل، ولا ثنيه جزع. وقد ظهر دين اللـه، وعلت كلمته بهذا العزم الذي تخمد النار ولا يخمد، وينام المشرفي ولا ينام.

قال ابن القيم: "فإذا جئت إلى النبي صلى اللـه عليه وسلم وتأملت سيرته مع قومه، وصبره في اللـه، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلوّن الأحوال عليه، من سلم، وخوف، غنى، وفقر، وأمن، وإقامة في وطنه، وظعن عنه، وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول، والفعل، والسحر، والكذب، والافتراء عليه، والبهتان، وهو مع ذلك صابر على أمر اللـه، يدعو إلى اللـه. فلم يؤذ نبي ما أوذي، ولم يحتمل في اللـه ما احتمله، ولم يعط نبي ما أعطيه، فرفع اللـه له ذكره، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأسمعهم عنده شفاعة، وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده شرفًا وفضلًا، وساقه بها إلى أعلى المقامات".مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رحمه اللـه سنة 101هـ, وهو في التاسعة عشرة من عمره، في زهرة شبابه مات صافيًا لم يعرف آثام الحياة.

قال أبو الحسن المدائني رحمه اللـه: دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك في مرضه - رحمهما اللـه جميعاً- فقال: يا بني! كيف تجدك؟ قال: تجدني -أبتاه- في الموت. قال: يا بني! لأن تكون في ميزاني أحب إليَّ من أن أكون في ميزانك، فقال الابن: يا أبتِ! واللـه لأن يكون ما تحبُّه أحبُّ إليَّ من أن يكون ما أحبُّه، ثم مات رحمة اللـه.

ويروي الإمام أحمد في الزهد: عن زياد بن أبي حسان أنه شهد عمر -رحمه اللـه - حين دفن عبد الملك ابنه قد استوى قائماً عند القبر، وأحاط به الناس، فقال: واللـه -يا

بني- لقد كنت بـارّاً بأبيـك، والـلـه مـا زلـت مسرورًا بـك منـذ وهبـك الـلـه لي إلى أن استودعتك الـلـه في المنزل الذي صيَّرك الـلـه إليه، فرحمك الـلـه، وغفـر ذنبـك، وجـزاك بأحسن عملك، ورحم كل شافعٍ يشفع لك بخير شاهد أو غائـب، رضـينا بقضـاء الـلـه، وسلمنا لأمر الـلـه، والحمد لله رب العالمين، وإنا لله وإنا إليه راجعون. ثم انصرف ورجع إلى مجلسه. وكان قبل وفاة عبد الملك قد هلك أخـوه سـهل -وهـو مـن أحـب إخوتـه- وهلك مولاه مزاحم وهـو عزيـز عليـه، كـل ذلـك في أوقـات متتابعـة، فلـما اسـتوى في مجلسه جاء الربيع بن سـبرة -عليـه رحمـة الـلـه- فقـال: عظَّـم الـلـه أجـرك يـا أمـير المؤمنين، ما رأيت أحداً أصيب بأعظمَ من مصيبتك؛ ما رأيـت مثـل ابنـك ابنـاً، ولا مثـل أخيك أخاً، ولا مثل مـولاك مـولى قـط. فطأطـأ رأسـه عمـر -رحمـه الـلـه- فقـال أحـد الحاضرين: لقد هيَّجت عليه، قال: ثم رفع رأسه، فقال: كيف قلت يا ربيع؟ أعـد. قـال: فأعدت عليه، فقال: لا والذي قضى عليهم الموت ما أحب أن شيئًا كان من ذلك لم يكن.

و فيـا أيهـا الكـون منـه اسـتمع ويـا أذن الـدهر عنـه افهمـي

روى ابن أبي حاتم بسنده عن خالد بن يزيد عن عياض عن عقبة أنه مات له ابن يقال له: يحيى ؛ فلما نزل في قبره قال له رجل: والـلـه! إن كان لسيد الجيش فاحتسبه، فقال والده: وما يمنعني أن أحتسبه وقد كان من زينة الحيـاة الـدنيا، وهـو اليـوم مـن الباقيات الصالحات.

فلله.. ما أحسن فهمهم! ولله.. ما أحسـن تعـزيتهم لأنفسـهم وثقـتهم بمـا أعطـى الـلـه -عز وجل- من ثواب للصابرين!

الفصل العاشر

آخر خطبة

" يا أيها الناس، انكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينـزل اللـه فيه للحكم فيكم و الفصل بينكم وقد خاب و خسر من خرج من رحمة اللـه التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي عرضها السموات و الأرض ألا و اعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر اللـه وخافه و باع نافذاً بباق و قليلاً بكثير و خوفاً بأمان ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيرثها بعدكم الباقون؟ كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين وفي كل يوم تشيعون غادياً و رائحاً إلى اللـه قد قضى نحبه وانقضى أجله فتودعونه في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد قد فارق الأحبة و خلع الاسباب فسكن التراب وواجه الحساب فهو مرتهن بعمله، فقير الى ما قدم غنياً عمّا ترك فاتقوا اللـه عباد اللـه قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه... وايم اللـه إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحدٍ من الذنوب أكثر مما عندي فأستغفر اللـه وأتوب إليه و ما منكم أحد يسعه ما عندنا إلا وددت أنه سداي و لحمتي حتى يكون عيشنا وعيشه سواء، وأيم اللـه أن لو أردت غير هذا من الغضارة، و العيش لكان اللسان مني به ذلولاً عالماً بأسبابه ولكنه مضى من اللـه كتاب ناطق و سنة عادلة يدل فيها على طاعته و ينهى عن معصيته ثم رفع طرف رداءه وبكى حتى شهق و أبكى الناس حوله، ثم نزل فكانت اياها لم يخطب بعدها حتى مات رحمه اللـه عليه".

***

قيل لعمر بن عبد العزيز رضي اللـه عنه، لو أتيت المدينة فإن مت دفنت في موضع القبر الرابع مع رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم, فقال : واللـه لأن يعذبني اللـه بكل عذاب إلا النار أحب إلي من أن يعلم اللـه مني أني أراني لذلك الموضع أهلاً.

اختلفت الروايات عن سبب مرض عمر بن عبد العزيز وموته، إذ تذكر بعض الروايات أن سبب مرضه وموته هو «الخوف من الله تعالى والاهتمام بأمر الناس» كما روي عن زوجته فاطمة بنت عبد الملك، وكما ذكر ابن سعد في الطبقات.

إلا أنه قد ذكر سبب آخر لموته؛ وهو أنه سُقي السم، وذلك أن بني أمية قد تبرموا وضاقوا ذرعاً من سياسة عمر التي قامت على العدل وحرمتهم من ملذاتهم وتمتعهم بميزات لا ينالها غيرهم، بل جعل بني أمية مثل أقصى الناس في أطراف دولة الإسلام، ورد المظالم التي كانت في أيديهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون، فكاد له بعض بني أمية بوضع السم في شرابه، فقد رُوي أنهم وعدوا غلام عمر بألف دينار وأن يُعتق إن هو نفذ الخطة، فكان الغلام يضطرب كلما همّ بذلك، ثم إنهم هددوا الغلام بالقتل إن هو لم يفعل، فلما كان مدفوعاً بين الترغيب والترهيب حمل السم فوق ظفره، ثم لما أراد تقديم الشراب لعمر قذف السم فيه ثم قدمه إلى عمر، فشربه ثم أحس به منذ أن وقع في بطنه.

وعن مجاهد قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: «ما يقول الناس فيّ؟»، قلت: «يقولون إنك مسحور»، قال: «ما أنا بمسحور»، ثم دعا غلاماً له فقال له: «ويحك ما حملك على أن تسقيني السم؟»، قال: «ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق»، قال: «هات الألف»، فجاء بها فألقاها عمر في بيت المال وقال: «اذهب حيث لا يراك أحد» قال: اذهب فأنت حر لوجه الله، والله يحب المحسنين. وقيل أنه مات بسبب السل. والأشهر أنه مات مسموما.

***

ما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيت بهم إليَ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم، فلما سمع مقالته: قال: أجلسوني فأجلسوه فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة، أما قولك: إني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم ولم أكن لأعطيهم شيئاً لغيرهم، وأما ما قلت في الوصية فإن وصيتي فيهم:

(إِنَّ وَلِيِّيَ الـلـهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَـوَلَّى الصَّـالِحِينَ) (الأعـراف: 196). وإنما ولـد عمر بين أحد رجلين: إما صالح فسيغنيه الـلـه، وإما غير ذلك فلن أكون أول مـن أعانـه بالمال على معصية الـلـه ادع لي بني، فأتوه فلـما رآهـم ترقرقـت عينـاه، وقـال: بـنفسي فتية تركتهم عالة لا شيء لهم ـ وبكى ـ: يا بني إني قد تركت لكـم خـيراً كثـيراً، لا تمـرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً يا بني إني قد مثلت بين الأمرين: إمـا أن تستغنوا وأدخل النار، أو تفتقروا إلى أخر يوم الأبد وأدخل الجنة، فـأرى أن تفتقـروا إلى ذلك أحب إلي، قوموا عصمكم الـلـه، قوموا رزقكم الـلـه.

***

كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك وهو في مرض الموت قائلاً: بسـم الـلـه الرحمن الرحيم, من عبد الـلـه عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبـد الملك،السـلام عليك، فإني أحمد إليك الـلـه الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإني كتبـت إليـك وأنـا دنـف من وجعي، وقد علمت أني مسؤول عما وليت، يحاسـبني عليـه مليـك الـدنيا والآخـرة، ولست أستطيع أن أخفي عليه مـن عمـلي شـيئاً، يقـول تعـالى فـيما يقـول: « فَلَنَقُصَّـنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ». فإن يرضى عني الرحيم فقد أفلحـت ونجـوت مـن الهـول الطويل، وإن سخط علي فيا ويح نفسي إلى ما أصير، أسأل الـلـه الذي لا إلـه إلا هـو أن يجيرني من النار برحمته، وأن يَمُنّ علي برضوانه والجنة. وعليـك بتقـوى الـلــه والرعيـةَ الرعيةَ، فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير.

***

عن رافع بن حفص المدني أن عمر قال لرجاء: إذا أنا مت وغسـلتموني وكفنتمـوني وصليتم علي وأدخلتموني لحدي، فاجذب اللبنة من عنـد رأسي، فـإن رأيـت وجهـي إلى القبلة فاحمدوا الـلـه وأثنـوا عليـه، وإن رأيـت قـد زويـت عنهـا، فـاخرج إلى المسـلمين ماداموا عند لحدي حتى يستوهبوني من ربي، قال : فلما وضع في لحده وقبل باللبن على وجهه جذبت اللبنة من عند رأسه فإذا وجهه إلى القبلة فحمدنا الـلـه وأثنينا عليه .

كراهته تهوين الموت عليه:قال عمر بن عبد العزيز: ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت لا نه آخر ما يرفع للمؤمن من الأجر. وفي رواية: ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت لا نه آخر ما يكفر به عن المرء المؤمن .

***

اشتد بعمر بن عبد العزيز المرض وأدخل عليه الأطباء، ووضعوا له العلاج المناسب والشفاء بيد بارئه سبحانه وبحمده، فقال: والله لو كان دوائي في أن أرفع يدي اليمنى إلى أذني ما فعلت، والله ما أنا بحريص على الدنيا فقد مللتها، لكني أسأل الله أن يُسَلِّم. وكانوا يسمعونه يردد ويقول: " تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ " (القصص:83).

وأسلمَ الروح إلى باريها رضي الله عنه، وقال: " يا رب أنا الذي أمرتني فقصرت، ودعيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا أنت ".

وروى ابن سعد: أن مَسْلَمة بن عبد الملك دخل على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه، فقال له: من تُوْصِي بأهلك؟ فقال: إذا نسيتُ الله، فذَكِّرْني، ثم عاد أيضًا، فقال: مَنْ تُوْصِي بأهلك؟ فقال: إن وَلِيي فيهم " اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ " (الأعراف: 196).

قال المبرد في الكامل في اللغة والأدب :دخل مَسْلَمة بن عبد المَلِك على عمر بن عبد العزيز في مَرْضَته التي مات فيها، فقال: ألا تُوْصِي يا أمير المؤمنين؟ قال: فيم أُوْصِي؟ فوالله إنْ لي من مال، فقال: هذه مائة ألف، فمُر فيها بما أحببت، فقال: أَوَتَقْبَل؟ قال: نعم، قال: تُرَدُّ على من أُخِذَت منه ظُلْمًا، فبكى مَسْلَمة، ثم قال: يرحمك الله، لقد أَلَنْتَ مِنَّا قُلوبًا قاسِيَة، وأَبْقَيْت لنا في الصَّالحين ذِكْرًا .

فلما حضرته الوفاة، ذهب بعض الأصحاب ليعودوه، وكان عمر قد ترك من الأولاد خمسة عشر ولدًا، فقالوا له وهو يعالجُ سكرات الموت: ماذا تركت لأولادك يا أمير المؤمنين؟.

وإذا بأمير المؤمنين يجيب بكلمة واحدة: تركت لهم تقوى اللـه ! كيف يا أمير المؤمنين؟ ! فيقول أمير المؤمنين: إن كانوا صالحين، فاللـه يتولَّى الصالحين، وإن كانوا غير ذلك، فلن أترك لهم شيئًا يستعينون به على معصية اللـه.

وإذ بعمر يصدر الأمر إلى زائريه بالانصراف فورًا؛ ليتركوه وحدَه على فراش الموت، وتدخل عليه فاطمة الوفيَّة، الأمينة، الزاهدة، بنت الخلافة، ولكنها رَمَتِ الدنيا كلَّها وراء ظهرها، تدخل عليه وهو في السكرات، فيقول لها: يا فاطمة، اخرجي الآن؛ فإنني أرى خَلْقًا يزاحمون عليَّ مكاني هذا، أرى خَلْقًا غريبًا ذوي أجنحة لم أرهم قبل الآن، اخرجي يا فاطمة، اخرجي يا فاطمة، آن للغريب أن يرى حماه، آنَ للغريب أن يرى رباه، آن للغريب أن يعودَ إلى دار البقاء، اخرجي يا فاطمة؛ إن هناك أجسامًا نورانيَّة ذوي أجنحة؛ مثني، وثُلاث، ورُباع، اخرجي يا فاطمة، فإن الرُّوح تُزَف؛ لأنها ستصل إلى خالقها الأعظم، ستكون في ضيافة الرحمن؛ " يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي " (الفجر:27 - 30).

قالت فاطمة: يا أمير المؤمنين لماذا تخرجني من الغرفة في هذة اللحظات؟ قال: إني أرى في الغرفة وجوها ليست بوجوه أنس ولا وجوه جان يحبون الذكر والطيب, فخرجت زوجته ولكنها أبت أن تترك هذه اللحظات التي يغادر فيها الإنسان العظيم الحاكم العادل، والحبيب الراحل، فوضعت أذنها على باب الغرفة تسمع عمر بن عبدالعزيز رضي اللـه عنه، وكأنها تودع منه، يقول:مرحبا بأبي البشر آدم.أهلا بخليل الرحمن ابراهيم.مرحبا بكليم اللـه موسى.أهلا روح اللـه عيسى.مرحبا سيدي رسول اللـه.

ثم سكت لحظة وقال: مرحبا بملك الموت زائر أتى على موعد, وأنا أشهد أن لا الـه الا اللـه و أشهد أن محمد رسول اللـه.وكان يرتِّل آيةً واحدة في كتاب اللـه، ختم بها سِجِلَّ حياته، هذه الآية هي قوله تعالى" تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ " (القصص: 83).

ثم هدأ الصوت فقال مسلمة بن عبد الملك (لفاطمة) قد قبض صاحبك فدخلوا

فوجدوه قد قبض.

وعن هشام بن حسان عن خالد الربعي قال إنا نجد في التوراة أن السماوات والأرض تبكي على عمر بن عبد العزيز أربعين صباحا وقال هشام لما جاء نعيه إلى الحسن قال مات خير الناس.

قال ابن الحكم رحمه الله:لما حضرت عمرَ الوفاةُ، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك، وقال: إنك يا أمير المؤمنين, قد فطمت أفواه أولادك عن هذا المال، فحبذا لو أوصيت بهم إليك، أو إلى من تفضله من أهل بيتك، فلما انتهى من كلامه, قال عمر : أجلسوني، فأجلسوه، فقال: قد سمعتُ مقالتك يا مسلمة، أمَا إنّ قولك: قد فطمت أفواه أولادي عن هذا المال، فإني واللهِ ما منعتهم حقاً هو لهم، ولم أكن لأعطيهم شيئاً ليس لهم، أما قولك: لو أوصيت بهم إلي، أو إلى من تفضله من أهل بيتك، فإنما وصيي وولي فيهم الله الذي نزل الكتاب بالحق، وهو يتولى الصالحين، واعلمْ يا مسلمة أن أبنائي أحدُ رجلين؛ إما رجل صالح متقن فسيغنيه الله من فضله, ويجعل له من أمره مخرجا، وإما رجل طالح مكبٌّ على المعاصي, فلن أكون أول من يعينه بالمال على معصية الله تعالى، ثم قال: ادعوا لي بنيّ، فدعوهم وهم بعضة عشر ولداً، فلما رآهم ترقرقت عيناه، وقلتُ - القائل مسلمة - في نفسي: فتية تركهم عالة لا شيء لهم، وهو خليفة، وبكى بكاءً صامتاً، ثم التفت إليهم، وقال: أي بنيّ إني لقد تركت لكم خيراً كثيراً، فإنكم لا تمرون بأحد من المسلمين، أو أهل ذمتهم، إلا رأوا أن لكم عليهم حقاً، -هذه السمعة الطيبة، كيفما مشى ابن الرجل الصالح, يقال له : رحمة الله على والدك، هذه ثروة كبيرة جداً- قال: يا بنيّ, إن أمامكم خياراً بين أمرين، فإما أن تستغنوا، أي أن تصبحوا أغنياء، ويدخل أبوكم النار، وإمّا أن تفتقروا ويدخل الجنة، ولا أحسب إلا أنكم تؤثرون إنقاذ أبيكم من النار على الغنى، كذلك ربّاهم تربية عالية، ربّاهم على محبته، ومحبة الحق، ثم نظر إليهم في رفق, وقال: قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله، فالتفت إليه مسلمة، وقال: عندي يا أمير المؤمنين, ما هو خير من ذلك, فقال: وما هو؟ قال: لدي ثلاثمائة ألف دينار، وإني أهبها لك ففرِّقها عليهم، أو تصدّق بها إذا شئت، فقال له عمر: أَوَ خير من ذلك يا مسلمة؟!

قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: تردُّها لمن أخذتها منه، فإنها ليست لك بحق، فترقرقت عينا مسلمة، وقال: رحمك الله يا أمير المؤمنين حياً وميتاً، فقد ألَنْتَ منا قلوباً قاسية وذكّرتها، وقد كانت ناسية، وأبقيت لنا في الصالحين ذكرا، ثم تتبع الناسُ أخبارَ أبناء عمر من بعده، فرأوا أنه ما احتاج أحد منهم ولا افتقر، وصدق الله العظيم إذ يقول:" وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً " (النساء: 9).

وتوفي عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رجب سنة 101هـ على أصح الروايات، واستمر معه المرض عشرين يوماً، وتوفي بدير سمعان من أرض معرة النعمان بالشام، بعد خلافة استمرت سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وتوفي وهو ابن تسع وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وعلى أصح الروايات كان عمره لما توفي أربعين سنة. نقش على خاتمه: "عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله".

ويقول ابن الجوزي: بلغني إن المنصور قال لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر يعظه قال: مات عمر بن عبدالعزيز رحمه الله وترك أحد عشر إبنا، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً، كفن منها بخمسة دنانير، واشترى له موضع قبره بدينارين، وقسم الباقي على بنيه، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهما، ويقارن عبدالرحمن بن القاسم فيقول: ولما مات هشام بن عبدالملك وخلف أحد عشر إبنا قسمت تركته وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف أي مليون ورأيت رجلا من ولد عمر بن عبدالعزيز قد تصدق بمائة فرس في سبيل الله عز وجل ورأيت رجلا من ولد هشام يتصدق عليه.

تقول فاطمة زوج عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، جاءها الفقهاء يسألونها: أخبرينا كيف كان حال عمر بينكم؟ قالت: أفعل (أي أخبركم) و لو كان حيا ما فعلت، والله ما كان بأكثركم صلاة ولا صياما، و لكني و الله ما رأيت عبدا قط كان أشد خوفا لله من عمر، والله إن كان ليكون بيني و بينه لحاف، فيخطر على قلبه الشئ من أمر الله، فينتفض كما ينتفض طائر وقع في الماء، ثم يرتفع بكاؤه حتى أقول: والله لتخرجن نفسه، فأطرح اللحاف عني و عنه رحمة له، و أنا أقول : يا ليتنا كان بيننا و بين هذه الإمارة بعد

المشرقين، فوالـلـه ما رأينا سرورا منذ دخلنا فيها !!

بكت فاطمة زوجه بعد وفاته حتى فقدت بصرها، ودخل عليها إخوتها قائلين: ما هذا يا فاطمة؟ أجزعك على عمر؟ فهو والـلـه أحق مَنْ يُجْزَعُ على مثلـه، أم عـلى شيء من الدنيا؟ فأموالنا بين يديْك وما أخذت منها خير مما تركت.

قالت: والـلـه لا هذا ولا ذاك. لكني رأيـت مـن عمـر ليلـةً منظـراً مـا تذكرتـه إلا بكيت، رأيتُه ليلةً قائماً يُصَلِّي، ثم جلس يقـرأ حتـى أتى عـلى قـول الـلــه: (يَـوْمَ يَكُـونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) (القارعـة:4-5)، فصـاح: وا سوء صباحاه! ثم وثب ثم سقط فجعل يَئِنُّ حتى ظننت أن نَفْسَه ستخرج، ثـم هـدأ ثم نادى: وا سوء صباحاه! ثم قام، وهو يقول: وَيْلي من يوم يكون الناس فيه كـالفراش المبثوث، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر، ثم سقط كأنه ميت حتى سمع الأذان فقام.

تقول: فوالـلـه ما ذكرت ليلته تلك إلا غلبتني عيناي فلـم أملـك رد عـبرتي فأسـأل الـلـه أن يؤمنه وأن يؤمننـا: (يَـوْمَ يَكُـونُ النَّـاسُ كَـالْفَرَاشِ الْمَبْثُـوثِ * وَتَكُـونُ الْجِبَـالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) (القارعة:4-5).

خاف الـلـه في الدنيا ونسأل الـلـه أن يؤمنه في الآخرة.

يذكر أنه دخل عليه أحد العباد: وهو كعب القرظي؛ فجعل ينظـر في وجهـه فـإذا به: وَجْهٌ شاحب، وبدنٌ ناحل، كأن جبال الدنيا قد سقطت عليـه، فقـال: يـا عمـر ! مـا دهاك؟ ما أصابك؟ والـلـه لقد رأيتك أجمل فتيان قريش، تلبس اللَّيِّن وتفترش الوثير، لَيِّنُ العيش، نضر البشرة، والـلـه لو دخلت عليك - يا عمر- في غير هذا المكان ما عرفتك.

فتنهد عمر باكياً ويقول: أما إنك لو رأيتني بعد ثلاث ليال من دفني، وقد سقطت العينان، وانخسفت الوجنتان، وعاشت في الجوف الديدان، وتغير الخدان، لكنت لحـالي من حالي أشد عجباً، وأعظم إنكاراً. فبكى كعب، وبكى الناس حتى ضج مجلسـه بالبكـاء. جعل الهم هماً واحداً، فورحمه.

قال أبو بكر بن أبي شيبة: ثنا عبد الملك بن عبد العزيز، عن الدراوردي، عـن عبـد

العزيز بن أبي سلمة، أن عمر بن عبد العزيز لما وضع عند قبره هبت ريح شديدة فسقطت صحيفة بأحسن كتاب، فقرأوها فإذا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم براءة من الله لعمر بن عبد العزيز من النار، فأدخلوها بين أكفانه، ودفنوها معه.

وقال رجاء بن حيوة: كان عمر بن عبد العزيز قد أوصى إلي أن أغسله وأكفنه، فإذا حللت عقدة الكفن أن أنظر في وجهه فأدلي، ففعلت فإذا وجهه مثل القراطيس بياضا، وكان قد أخبرني أنه كل من دفنه قبله من الخلفاء وكان يحل عن وجوههم فإذا هي مسودة.

واختلفت الروايات على مقدار تركة عمر بن عبد العزيز حين توفي، ولكن الروايات متفقة على قلة التركة أو انعدامها، قال ابن الجوزي: بلغني أن المنصور قال لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «عظني»، قال: « مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وخلف أحد عشر ابناً، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً كفن منها بخمسة دنانير، وثمن موضع قبره ديناران، وقسم الباقي على بنيه، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهماً. ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً، فقسمت تركته، وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف، ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد حَمَلَ في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل، ورأيت رجلاً من ولد هشام يُتصدق عليه ».

وقد رئيت له منامات صالحة، وتأسف عليه الخاصة والعامة، لا سيما العلماء والزهاد والعباد، ورثاه الشعراء، فمن ذلك ما أنشده أبو عمرو الشيباني لكثير عزة يرثي عمر:

عمت صنائعه فعم هلاكه ... فالناس فيه كلهم مأجور

والناس مأتمهم عليه واحد ... في كل دار رنة وزفير

يثني عليك لسان من لم توله ... خيرا لأنك بالثناء جدير

ردت صنائعه عليه حياته ... فكأنه من نشرها منشور

وقال فيه (جرير):

نعـى النعـاةُ أمـيرَ المـؤمنين لنـا ... يـا خـير مـن حـج بيـت اللـه واعتمـرا

حملـت أمـراً جسـيماً فاصـطبرت لـه ... وقمـت فيـه بحـق اللـهِ يـا عمـرا

فالشـمسُ طالعـةٌ ليسـت بكاسـفةٍ ... تـبكي عليـك نجـوم الليـل والقمـرا

وقال أيضا:

لـو كنـت أملـك والأقـدار غالبـة ... تـأتي رواحـا وتبيانـا وتبتكـر

رددت عـن عمـر الخـيرات مصرعـه ... بـدير سـمعان لكـن يغلـب القـدر

بينما رثاه الفرزدق بأبيات تطرب لها النفس فتتعرف على هذا الخليفة العادل، فيقول في أبيات :

كم مـن شريعـة عـدل قـد سننت لهـم ... كانـت أميتـت وأخـرى منـك تنتظـرُ

يا لهف نـفسي ولهـف اللاهـف ينمعـي ... عـلى العـدول التـي تغتالهـا الحفـرُ

وفي رثائه للخليفة "عمر بن عبد العزيز رضي اللـه عنه" يقول الشاعر الشريف الرضي:

" يـا بـن عبـد العزيـز لـو بكـت العـين

فتـى مـن بنـي أميـة لبكيتـك

ولـو أني رأيـت قـبرك لاسـتحييت

مـن أن أرى ولا حيّيتـك

ديـر سـمعان لا عـددتك العـوادي

خـير ميـت مـن آل مـروان ميتـك ".

وودع عمر الأمة الإسلامية، ودعها بعد أن أشبعَ الجائعين، وأمَّـن الخائفين، ونصر المستضعفين، ودع عمر الأمة بعد أن وجد فيه اليتامى أبًـا، والأيامى كافلاً، والتائهون دليلاً، والحائرون هاديا ومعينا.

ذهب عمر وقد حقق للأمة العدل والأمن والأمان، والإيمان، والسكينة والاطمئنان، والاستقرار، حقق ذلك كله ليس في عشرين أو ستين سنة، ولا عشر سنين، ولكن في سنتين، وخمسة أشهر وبضعة أيام.

ودع عمر وترك لنا إرثا ثقيلا على الحكام والمحكومين من بعده؛ فهل يعي كل راع أقوال وأفعال عمر وكيف تصرف في كل مسألة وكيف صان للأمة عزها ومجدها وأمن حدودها.. نحن في حاجة لخليفة مثل عمر بن عبد العزيز.

تميزت خلافة عمر بن عبد العزيز بعدد من المميزات، منها: العدل والمساواة، ورد المظالم التي كان أسلافه من بني أمية قد ارتكبوها، وعزل جميع الولاة الظالمين ومعاقبتهم، كما أعاد العمل بالشورى، ولذلك عده كثير من العلماء خامس الخلفاء الراشدين، كما اهتم بالعلوم الشرعية، وأمر بتدوين الحديث النبوي الشريف. استمرت خلافة عمر سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، حتى قتل مسموماً سنة101هـ فتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة من بعده.

***

ضريح عمر بن عبد العزيز في معرة النعمان.. تعد بساطة معمارية في الأضرحة الإسلامية، وظاهرة معمارية مميزة انتشرت في مدن بلاد الشام، كما في كل المدن العربية والإسلامية الأخرى خلال مختلف مراحل التاريخ الإسلامي.

ومن هذه الأضرحة المشهورة في بلاد الشام ضريح الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكان مقصدا للزوار من كل بقاع العالم. ويقع هذا الضريح في قرية دير سمعان أو "دير النقيرة" كما يعرفها العامة التي تبعد حوالي ثلاثين كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من بلدة معرة النعمان في الشمال السوري التابعة لمحافظة إدلب في سوريا، من المعروف أن قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز هو القبر الوحيد الذي لم يُنبَش من بين قبور بني أمية.. وقد ورد ذكر هذا الضريح لدى عدد كبير من المؤرخين والرحالة على مختلف ميولهم ومذاهبهم السياسية والدينية ومنهم "ياقوت الحموي" الذي ذكر أن (دير سمعان قرب

المعرة من أعمال حلب وفيها قبر عمر بن عبد العزيز)، كما ذكره الذهبي:إن وفاة عمر بن عبد العزيز في دير سمعان قرب المعرة من أعمال المعرة " وأيّده في ذلك الكثير من أهل السير والتاريخ ما ورد أن (دير سمعان) من قرى المعرة تعرف بدير النقيرة وفيها قبر عمر بن عبد العزيز وبجانبه قبر الشيخ (أبي زكريا يحيى بن منصور)، وكان متعبداً هناك ودفن سنة 600 للهجرة. وما ذكره ابن بطوطة في رحلته سنة 727 هجرية المعرة وقبر عمر بن عبد العزيز في ضاحيتها، وفي كتاب مخطوط بالسريانية لراهب كان في دير النقيرة محفوظ في إحدى خزائن المتحف البريطاني بلندن تحت رقم 14629, وتاريخه 720 هـ ذكر وفاة الخليفة ابن عبد العزيز ودفنه في دير النقيرة وأن الخليفة عمر قد جعل من الملك العضود الأموي خلافة أوابة عادلة بأرة تمثل كل فضائل عصر النبوة، إنه الرجل الذي حاول نقل عصر النبوة بمثله وفضائله إلى دنيا هائجة مائجة مفتونة مضطربة بالظلم والقهر، وثمة إشارة إلى مكان الضريح في سجلات محكمة حماة الشرعية.

ويشبه الضريح الذي يضم رفات الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز التكيةَ التي يكثر وجودها في بلاد الشام، وقد أحيطت بالأروقة الحجرية، وفي وسطها انتصب قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز مجلّلا بغطاء أخضر على عادة تغطية الأضرحة الإسلامية في بعض البلدان وإلى جانبه قبران، وأمام هذه المشهد شديد البساطة يقف الزائر حائراً يتلمس الذكريات التي تنقله إلى الجو الذي عاش في ظلاله الخليفة الأموى العادل عمر بن عبد العزيز رضي اللـه عنه، فلا يعثر على شيء، نعم لا شيء من جلال الذكرى، ولا شيء يمثل حياة واحد من كبار رجالات الإسلام سوى قبة كبيرة مزدانة بقمريات غاية في التقشف مرصوفة من الداخل بالقرميد الأحمر الداكن.

أما بناء الضريح الأساسي عبارة عن بناء قديم يعود إلى العهد المملوكي، وقد ظل يعاني الإهمال حتى تسعينيات القرن الماضي عندما قامت وزارة الآثار والمتاحف (وبجهود من الباحثين وعلماء الآثار في سوريا) أعيد تأهيل البناء بالكامل وبناء قبة تكريمية فوق باحة الضريح، وإنشاء حديقة عامة حوله يؤمها الزوار والسياح من كل البلاد ليقفوا أمام ضريح هذا الخليفة الذي كان مضرب الأمثال في ورعه وتقواه وعدله.

وموقع الضريح عبارة عن دير يعود إلى القرن الخامس الميلادي، حيث كان يسكنه الراهب سمعان وعندما أصبح الخليفة عمر بن عبد العزيز والياً على خناصرة قرب حلب نشأت علاقة قوية بينه وبين الراهب سمعان حيث كان الخليفة عمر يكثر من زيارة هذه المنطقة حيث أراضي أمه وأخواله، وحين أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين استمرت هذه العلاقة، وتطورت هذه العلاقة حتى اشترى من الراهب سمعان مكانا في الدير لكي يدفن فيه، وقد أصر أن يدفع ثمنه للراهب الذي أراد أن يعطيه إياه هدية حباً بجواره، ولما توفي في رجب سنة 101 هجرية، دفن في هذا القبر ثم دفنت معه زوجته فاطمة بنت عبد الملك، وقد زاره العديد من السلاطين الأيوبيين والمماليك ومنهم السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 584 هـ .

قام الباحث السوري كامل شحادة بإجراء دراسة لتحديد موقع الضريح بدقة، واستطاع من خلال هذه الدراسة إثبات المكان الدقيق للضريح في قرية دير شرقي (الواقعة شرق مدينة معرة النعمان) ومن ثم العثور على قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. وبعد تحديد الموقع استطاع الباحث كامل شحادة الحصول على موافقة وميزانية من وزارة الآثار والمتاحف لترميم الضريح وبناء قبة فوقه حتى أصبح بحالة جيدة، قبل وقوع الأحداث الدموية التي تمر بها الجمهورية العربية السورية منذ عام 2011 م

***

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تاقت نفسي للإمارة، فلما بلغتها تاقت نفسي للخلافة، فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الجنة.

عن عمرو بن مهاجر قال: قال لي عمر بن عبد العزيز رحمه الله: إذا رأيتني قد ملت عن الحق، فضع يدك في تلبابي، ثم هزني، ثم قل: يا عمر ما تصنع.

قال ميمون بن مهران: ولاني عمر بن عبد العزيز، وقال لي: إن جاءك كتابي بغير الحق فاضرب به الحائط.

قال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها

الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه.

وقال رحمه الله: ما رأيت يقينًا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له.

وقال أيضا: خذوا من الرأي ما يوافق من كان قبلكم فإنهم كانوا أعلم منكم.

عن سعيد بن سويد من حرس عمر بن عبد العزيز قال : صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا أمير المؤمنين إن الله عز و جل قد أعطاك فلو لبست وصنعت، فنكس مليا حتى عرفنا أن ذلك قد ساءه ثم رفع رأسه إليه فقال إن أفضل القصد عند الجدة وأفضل العفو عند المقدرة.

عن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز قال : ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره على نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال اللهم أني أعوذ بك أن أبدل نعمك كفرا أو أكفرها بعد معرفتها أو أنساها فلا أثنى بها.

عن عبد العزيز ابن عمر بن عبد العزيز قال: قال لي أبي: يا بني إذا سمعت كلمة من امرىء مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محملاً من الخير.

وقال: " إنَّ الليل والنهار يعملان فيك، فاعْمَلْ فيهما".

وقال: " أيُّها الناس، أصلحوا سرائركم تَصْلُح علانيتُكُم، واعملوا لآخرتكم تكفوا دُنياكم ".

وقال: " قيِّدُوا النِّعَمَ بالشُّكر، وقيِّدوا العلم بالكتابة ".

وقال: " تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور".

وقال: " ملاقاةُ الرجال تلقيح للألباب ".

وقال: " ليس الأحمقُ من بَاع آخرتَه بدنياه، الأحمقُ من بَاع آخرتَه بدنيا غيره ".

ومن شعره :

من كان حين تصيب الشمس جبهته ... أو الغبار يخاف الشين والشعثا

ويألف الظل كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يوما راغما جدثا

في قعر مظلمة غبراء موحشة ... يطيل في قعرها تحت الثرى اللبثا

تجهزي بجهاز تبلغين به ... يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثا

قال سعيد ين أبي عروبة كان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله

ومما روي له:

ولا خير في عيش امرىء لم يكنله ... من الله في دار القرار نصيب

فإن تعجب الدنيا أناسا فإنها ... متاع قليل والزوال قريب

ومما روي له أيضا:

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم ... وكيف يطيق النوم حيران هائم

فلو كنت يقظان الغداة لخرقت ... مدامع عينيك الدموع السواجم

تسر بما يبلى وتفرح بالمنى ... كما اغتر باللذات في اليوم حالم

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم

وسعيك فيما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وعن وهيب بن الورد قال كان عمر بن عبد العزيز يتمثل كثيرا بهذه

يرى مستكينا وهو للهو ماقت ... به عن حديث القوم ما هو شاغله

وأزعجه علم عن الجهل كله ... وما عالم شيئا كمن هو جاهله

عبوس عن الجهال حين يراهم ... فليس له منهم خدين يهازله

تذكر ما يبقى من العيش آجلا ... فأشغله عن عاجل العيش آجله

قالوا عنه:

عمر بن عبد العزيز شخصية عظيمة، تعد من الشخصيات الإسلامية التاريخية التي

نالت حظها من حب الله وحب الناس جميعا وما ذلك إلا لما تميزت به هذه الشخصية من صفات نادرة صارت مضرب المثل، ومن أهم هذه الصفات هو العدل الذي ملأ به الأرض، ورد المظالم إلى أهلها حتى أنهم ليقولون: إن الشياه والذئاب والوحوش كانت ترعى في مكان واحد فلا تعتدي الوحوش على الشياه ولا تقربها .

قال مالك بن دينار رحمه الله: لما وليّ عمر، قالت رعاة الشاة في ذروة الجبال: من هذا الخليفة الصالح الذي قد قام على الناس؟ فقيل لهم: وما علمكم بذلك؟ قالوا: انا اذا قام على الناس خليفة صالح، كفت الذئاب والأسد عن شياتنا.

وقال حسن القصار رحمه الله: كنت أحلب الغنم في خلافة عمر، فمررت براع وفي غنمه نحوا من ثلاثين ذئبا حسبتهم كلابا ولم أكن رأيت الذئاب من قبل، فقلت يا راعي! ما ترجو بكل هذه الكلاب؟ فقال: يا بني! انها ليست كلابا، انما هي ذئاب، يا بني! اذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس. إن الرعاة لم يعلموا بموت عمر بن عبد العزيز إلا بعدما رأوا اعتداء وتعرض الذئاب على غنمهم.

وقال موسى بن أعين: كنا نرعى الشاء بكرمان في خلافة عمر بن عبد العزيز فكانت الشاة والذئب ترعى في مكان واحد فبينا نحن ذات ليلة إذ عرض الذئب للشاة .

ذكرت كتب السير: كل من الإمامين مالك وسفيان بن عيينة قد أطلق عليه وصف إمام، وقال فيه مجاهد: «أتيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلمّنا منه«، وقال ميمون بن مهران: «كان عمر بن عبد العزيز معلمَّ العلماء«، وقال فيه الذهبي: «كان إماماً فقيهاً مجتهداً، عارفاً بالسنن، كبير الشأن، حافظاً، قانتاً لله أوَّاهاً منيباً، يعد في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهد مع الحسن البصري، وفي العلم مع الزهري«, وقد احتج الفقهاء والعلماء بقوله وفعله.

يرى المتتبع لأقوال العلماء والمؤرخين إجماعاً تاماً على عدّ الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز المجدد الأول في الإسلام، وكان أول من أطلق عليه ذلك الإمام محمد بن شهاب الزهري، ثم تبعه على ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال: ".يروى في الحديث: إن الله يبعث

على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة أمر دينها، فنظرنا في المائة الأولى فإذا هـو عمر بن عبد العزيز ".

ويقول ابن حجر العسقلاني: ". إن إجماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميـع خصـال الخـير كلهـا في شـخص واحـد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بـن عبـد العزيـز، فإنـه كـان القـائم بـالأمر عـلى رأس المائـة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمـد أنهـم كـانوا يحملـون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعي، وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل ".

وقال سفيان الثوري: الخلفاء خمسة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبـد العزيز رضي الـلـه عنهم .

وقال حرملة :سمعت الشـافعي يقـول: الخلفـاء خمسـة "أبـوبكر وعمـر وعـثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز".

وقال ابن وهب: حدثني الليث، عن أبي النضر المـديني، قـال: رأيـت سـليمان بـن يسار خارجا من عند عمر بن عبد العزيز فقلت له: من عند عمر خرجت؟ قال: نعـم ! قلت: تعلمونه؟ قال: نعم، فقلت: هو والـلـه أعلمكم.

وقال مجاهد: أتينا عمر نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه.

وقال ميمون بن مهران: كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة، وفي رواية قال ميمون: كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء.

وقال الليث: حدثني رجل كان قد صحب ابن عمر وابن عباس، وكان عمر بن عبد العزيز يستعمله على الجزيرة، قال: ما التمسنا علم شيء إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه، وما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة.

قال الإمام أحمد بن حنبل: لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمـر بـن

عبد العزيز.

وقال علي بن زيد: ما رأيت رجلين كأن النار لم تخلق إلا لهما مثل الحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز.

وسئل محمد بن علي بن الحسين عن عمر بن عبد العزيز فقال: هو نجيب بني أمية وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

وقال الذهبي عنه: " كان ناطقا بالحق مع قلة المعين عليه وكثرة الأمراء الظلمة الذين كرهوا محاققته وأخذه كثيرا ممافي أيديهم مما أخذوه بغير حق".

ومع ذلك نحسبه صدق الله في إصلاحه فعلم الله منه صدق النية فأعانه بعونه وتوفيقه وليست الأفعال كالدعاوى! وقد أثمر هذا العمل بركة وسعة للمسلمين وقد كان الرجل يطوف بزكاته مما فرضه الله عليه في سكك الخلافة مترامية الأطراف من سفوح جيان في إسبانيا غربًا إلى كاشغر الصين شرقًا ومن سيبيريا من أرض الترك شمالاً إلى عدن في اليمن جنوباً فما يجد من يقبل الزكاة منه!

قال عمر بن أسيد: " والله ما مات عمر بن عبدالعزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح حتى يرجع بماله كله؛ قد أغنى عمر الناس".

وقال الذهبي عنه أيضا: " كان إمامًا فقيهًا مجتهدًا عارفاً بالسنن حافظًا قانتًا لله أواهاً منيبًا يعد في حسن السيرة والقيام مع جده لأمه عمر بن الخطاب".

وقال الحافظ السيوطي في أرجوزته المسماة تحفة المهتدين بأخبار المجددين على أن عمر من كبار المجددين وأولهم بعد عصر الخلافة الراشدة، فقال:

منا عليها عالما يجدد	دين الهدى لأنه مجدد
فكان عند المائة الأولى عمر	خليفة العدل بإجماع وقر
والشافعي كان عند الثانية	لما له من العلوم السارية

وقد عدَّ كثير من العلماء عمرَ بن عبد العزيز من مجددي هذا الدين .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه اللـه: "لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحدٌ فقط؛ بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة، وهو متجهٌ؛ فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوعٍ من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدَّعي ذلك في عمر بن عبد العزيز فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير، وتقدمه فيها؛ ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه.

وأما من جاء بعده؛ فالشافعي - وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة- إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد، والحكم بالعدل. فلعل هذا كل من كان متصفاً بشيءٍ من ذلك عند رأس المائة هو المراد؛ سواء تعدَّد أم لا ".

قال ابن كثير رحمه اللـه: فقال جماعة من أهل العلم, منهم أحمد بن حنبل - فيما ذكره ابن الجوزي وغيره - : إن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى، وإن كان هو أولى مَن دخل في ذلك، وأحق؛ لإمامته، وعموم ولايته، وقيامه، واجتهاده في تنفيذ الحق، فقد كانت سيرته شبيهة بسيرة عمر بن الخطاب، وكان كثيراً ما تشبَّه به.

ورحم اللـه الإمام الذهبي إذ يقول عن عمر بن عبدالعزيز رضي اللـه عنه: "أجد قلبي منشرحًا للشهادة لعمر بن عبدالعزيز أنه من أهل الجنة".

مصادر ومراجع

القرآن الكريم

1- الأعلام - خير الدين الزركلى - دار العلم للملايين –بيروت 2002

2- البداية والنهاية - ابن كثير – مكتبة المعارف بيروت1990

3- التاريخ الإسلامى – محمود شاكر - المكتب الإسلامي بيروت 2000

4- أثار عمر بن عبد العزيز الأدبية : تحقيق ودراسة – د. مفلح النمر الفايز- دار غيداء للنشر والتوزيع –عمان 2011

5- الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) – تقى الدين المقريزى - دار الكتب العلمية بيروت 2010

6- الخلفاء الراشدون القادة الأوفياء وأعظم الخلفاء – حسن أيوب – مكتبة دار السلام – القاهرة 2011

7- الخليفة الراشد العادل عمر بن عبد العزيز - وهبة الزحيلي - دار قتيبة - بيروت 1981

8- الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز – د. على محمد الصلابى – المكتب الإسلامى – بيروت 2000

9- الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام – د. السيد عمر – مكتبة دار السلام – القاهرة 2010

10- الدولة الأموية – د. يوسف العش – دار الفكر – دمشق 1985

11- السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية – ابن تيمية - وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية 2010

12- السياسة المالية لعمر بن عبد العزيز – قطب إبراهيم محمد – الهيئة المصرية العامة للكتاب 1988

13- الطبقات الكبرى - ابن سعد, تحقيق : على محمد عمر – مكتبة الخانجى - القاهرة 2001

14- العقد الفريد – ابن عبد ربه – دار الكتب العلمية – بيروت 1983

15- الكامل فى التاريخ – ابن الأثير - دار الكتب العلمية – بيروت 1987

16- المجددون فى الإسلام – عبد المتعال الصعيدى – مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع 2006

17- المسند – الإمام أحمد بن حنبل – تحقيق : شعيب الأرناؤوط وأخرين – مؤسسة الرسالة 2001

18- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم – ابن الجوزى – دار الكتب العلمية – بيروت 1995

19- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - ابن تغري بردي - وزارة الثقافة بمصر 1963

20- تجربة المصالحة والإصلاح في الحكم الإسلامي- خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه نموذجا – د. على عدلاوى - دار مجدلاوي للنشر والتوزيع –عمان 2015

21- تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – دار ابن حزم – بيروت 2000

22- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة – السيوطى - دار إحياء الكتب العربية – القاهرة 1967

23- حضارة العرب – غوستاف لوبون – ترجمة عادل زعيتر – الهيئة المصرية العامة للكتاب 2000

24- حلية الأولياء – أبى نعيم الأصفهانى – دار الكتب العلمية – بيروت 1988

25- دورالقيادة فى الإصلاح السياسى (دراسة بين الفكر والممارسة – قيادة عمر بن عبد العزيز نموذجا) رسالة ماجستير – إسراء عمران – مكتبة دار السلام – القاهرة 2011

26- سراج الملوك – أبى بكر الطرطوشى – دار المنهاج – جدة, السعودية 2016

27- سلوك المالك في تدبير الممالك - ابن أبى الربيع – دار العاذرية – الرياض 2010

28- صحيح البخارى – الإمام البخارى – دار ابن كثير – دمشق 2002

29- صحيح مسلم – الإمام مسلم – دار طيبة – الرياض 2006

30- عمر بن عبد العزيز (ضمير الأمة وخامس الراشدين) – د. محمد عمارة – مكتبة دار السلام – القاهرة 2012

31- عيون الأخبار – ابن قتيبة – دار الكتب العلمية – بيروت 1997

32- فتوح البلدان – البلاذرى - دار و مكتبة الهلال – بيروت 1988

33- فقه سيرة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - أبو المجد محمد شريف الراشد – دار الكتب العلمية – بيروت 2018

34- قدوة الحكام والمصلحين عمر بن عبد العزيز - محمد صدقي بن أحمد البورنو الغزى - مكتبة المعارف - الرياض 1993

35- لسان العرب – ابن منظور – دار صادر – بيروت 1994

36- مدارج السالكين - ابن القيم – دار الكتاب العربى – بيروت 2003

37- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز – خالد محمد خالد - المقطم للنشر والتوزيع – القاهرة 2005

38- موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز – محمد رواس قلعهجى – دار النفائس – بيروت 2005

الفهرس

خلال عامين وخمسة أشهر وأربعة أيام تقريباً - هي مدة خلافته - استطاع عمر بن عبد العزيز أن يسطر معجزة تربوية في تاريخ الإسلام؛ ففي هذه الفترة الوجيزة استطاع أن يضع الأسس والأهداف لتربية المجتمع المسلم وفق المنهج النبوي الذي يحرم فيه الغش، والكذب، والرشوة، والفساد على الرعية ، ذلك المنهج الذي يعتمد على اقتران العلم بالعمل، والمعرفة بالتطبيق والإطلاع الذاتي على سير من سبقنا من السلف الصالح؛ بغية التأسي بهم والتزام فهمهم - في سلوكه القيادي والإداري والتربوي.

لقد تبوأ الخليفة عمر بن عبد العزيز مكانة سامقة في التاريخ الإنساني لم ينلها إلا الأفذاذ من القادة والفاتحين، وأئمة العلم، والعباقرة من الكتاب والشعراء. ويزداد عجبك حين تعلم أنه احتلَ هذه المكانة في زمن قصير، في حين قضى غيره من الخلفاء والزعماء عشرات السنين دون أن يلتفت إليهم التاريخ؛ لأن سنوات حكمهم كانت فراغًا في تاريخ أمتهم، فلم يستشعر الناس تحولا في حياتهم، ولا نهوضًا في دولتهم، ولا تحسنا في معيشتهم، ولا إحساسًا بالأمن والإستقرار يعمّ بلادهم.

ولم تمنعه السياسة من تبوأ مقعده بين العلماء والحكماء، فقد زاحمهم واتفقت كلمة المترجمين لعمر بن عبد العزيز على أنه من أئمة زمانه.

